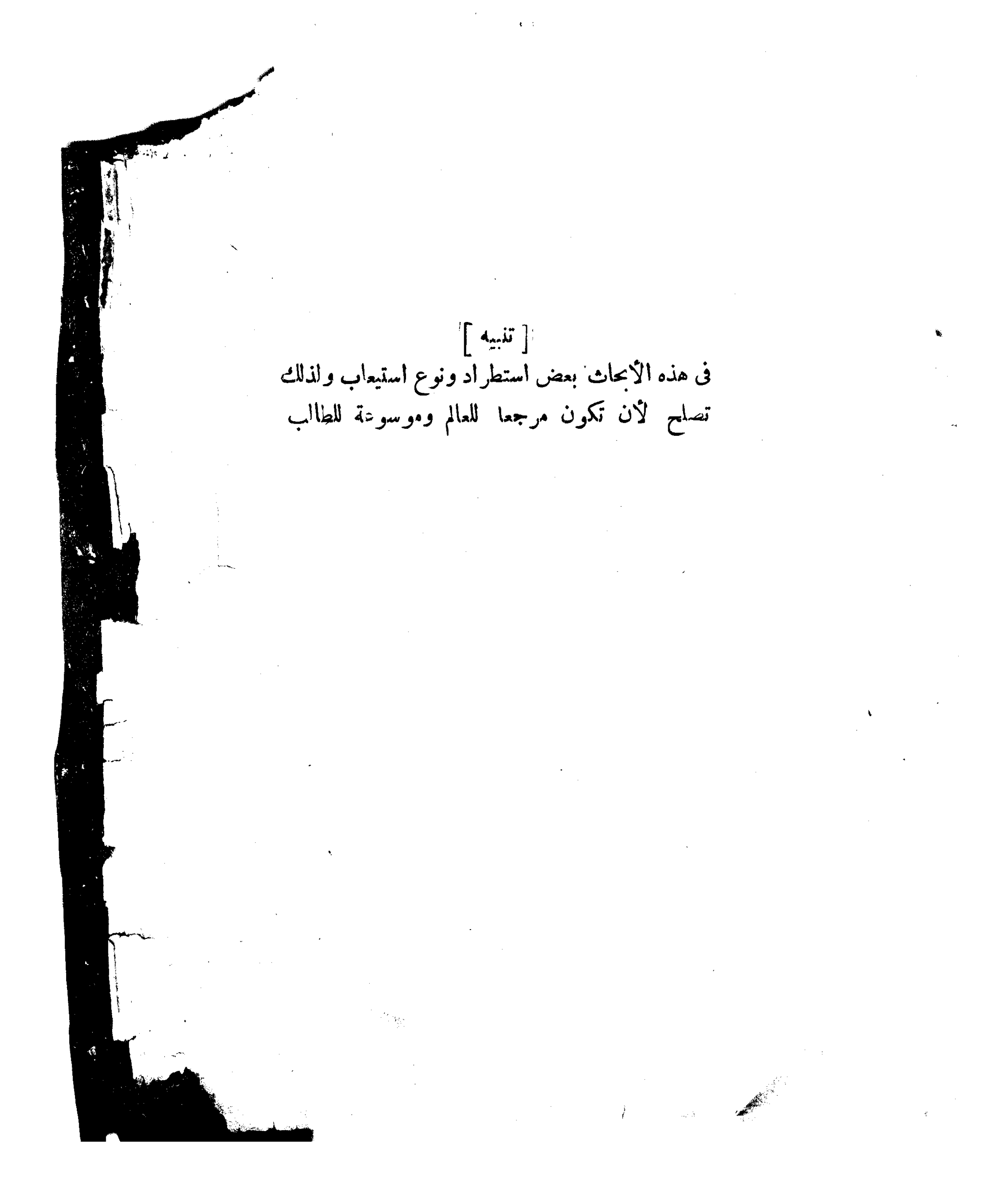
من هدى النبوة

اختيار أحاديث وشرحها

الشرباصي الحسيني
الأستاذية فى علوم القرآن الكريم

شركة الطباعة الفنية المتحدة
١٠ ، ١٦ شارع المستعلى بالله ـ الدراسة



[تنبيه]

فى هذه الأبحاث بعض استطراد ونوع استيعاب ولذلك
تصلح لأن تكون مرجعا للعالم وموسوعة للطالب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

وبعد : فلما كان الحديث هو المصدر الثانى للتشريع وهو المبين لآيات القرآن الكريم لقوله تعالى فى سورة النحل «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون» .

أقول لما كان الحديث بهذه المنزلة وجب على علماء المسلمين أن يسهموا فى شرحه للناس شرحا يتلاءم مع كل عصر من عصورهم حتى تقبله العقول السليمة وتسارع إلى تنفيذ ما فيه من هدى وحكمة . وبذلك تتكون الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وتخلص من شوائب الخرافة والزيغ .

وهأنذا أقوم بهذا المجهود نحو الحديث النبوى الكريم رجاء أن أقوم بنصيب من هذا الواجب العام . وأسأل الله أن يديم علينا نعمة الإخلاص فى القول والعمل وأن يمنحنا الثواب ويلهمنا الصواب إنه سميع وهاب وبه نستعين ؟

الشرباصى الحسنين

فى رجب سنة ١٣٨٤ — ميت أبو غالب

الحديث الأول

عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : —

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

رواه البخارى فى كتاب الإيمان ص ٥١ من شرح فتح البارى ح ١ .

ورواه مسلم فى كتاب الإيمان أيضاً الجزء الثانى من شرح النووى ص١٣ وقد اختلفت الروايات فى بعض الألفاظ ففى بعضها وجد طعم الإيمان وفى بعضها وأن يكره أن يرجع يهوديا أو نصرانيا كما يكره أن يلقى فى النار . ومعظم الروايات متقاربة ولا اختلاف بينها من حيث المعنى إلا اختلافا يسيرا .

المعنى الإجمالى

يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم أمته بأسلوبه البليغ وحكمته البالغة إلى وجوب اتباع الله واتباع رسوله وتقديم طاعة كل منهما على هوى النفس وشهواتها ومحبوباتها لأن ذلك مقتضى الشكر على النعمة التى أسبغها الله على الناس ظاهرة وباطنة ولأن ذلك يربى فى المؤمن صفة العرفان بالجميل فيعامل الناس كما يعامل الله إحساناً بإحسان وقد صرح بهذا المعنى حديث آخر ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله . التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث النعمان بن بشير وروى الترمذى بعضه وصححه . وروت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أتى إليه معروف فليكافىء به ومن لم يستطع فليذكره فمن ذكره فقد شكره ومن تشبع بما لم ينل فهو كلابس ثوبى

زور رواه أحمد فى مسنده من حديث عائشة ورتبه الإمام الساعاتى فى كتاب الفتح الربانى الجزء التاسع عشر والمتشبع بالباء الموحدة المفتخر بما ليس فيه شبهه الرسول بمن يغتصب ثوبين ثم يدعى أنهما ثوباه

كذلك يحث النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه كل مؤمن بأن يكون مثال الإخلاص فى أخوته وصداقته فلا تكون لغرض دنيء ولا تكون مداهنة ونفاقا وإنما تكون منبعثة عن قلب يحب الله ويحب كل من يطيع الله، فتلك الأخوة الكاملة الدائمة التى تؤتى ثمرتها فتربط بين الأفراد والجماعة . وتجعل الأمة متماسكة كالبنيان المرصوص لا ثغرة فيها لعدو .

وبهذا الإخلاص تصبح الأمة على قلب رجل واحد يتحدد هدفها وتتضح سبل العزة أمامها .

كذلك يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم أمته أن تتمسك بإيمانها وتثبت على عقيدتها الإسلامية مهما هبت زلازل الفتن ونوازع الشهوات وذلك لا يكون إلا إذا كان نفور المرء من الكفر كنفرته من النار نفسها وهبنا الله والمسلمين حلاوة الإيمان وراحة اليقين .

المعنى التفصيلى

ثلاث خصال من وجدت فيه واتصف بها أحس بلذة معنوية للإيمان تشبه الحلاوة الحسية بل ربما تفوقها إذا تمكنت هذه الصفات المذكورة فى الحديث من قلبه ، وأشربت بها نفسه .

أولى هذه الخصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . وتظل هذه المحبة مجرد ادعاء عند كثير من الناس لا حقيقة لها ولا دليل عليها .

وأساس محبة الله أن يعتقد الإنسان الكمال الذاتى لله وأن ينسب له كل النعم ظاهرها وباطنها جليلها ودقيقها وحينئذ يقبل قلبه عليه ويلتزم قوانينه . ويتمنى رضوانه . ويؤثر طاعته على محبته لولده وماله ونفسه ويحبه من قلبه لأن النفس جبلت على حب من أحسن إليها بعض الإحسان فما بالك بها لو

اعترفت بإحسان الله تعالى الذى خلقها فسواها ، وقدر لها الخير وهداها وسخر لها الكون كله وأحسن لها كل الإحسان فى النفس والأهل والمال والولد فنعم الله رب العالمين ما من نعمة ظاهرة ولا باطنة إلا وهى مستمدة من الخالق سبحانه .

نطقت بذلك آيات القرآن الكريم ، واعترفت بذلك العقول السليمة وآمنت بهذا الفطرة التى لم تلوث . قال تعالى « وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » آية ٥٣ من سورة النحل . وقال تعالى فى سورة الجاثية آية ١٢ ، ١٣ . « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وقد كان بعض الصالحين يمر كل يوم على البائسين والمرضى فيرى عافية الله تغشيه فينطلق لسانه بذكر ربه وتتحول جوارحه إلى طاعته وشكره .

وأساس محبة الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه أن نشهد بقلوبنا وألسنتنا بأنه النبى الكريم الذى جاهد وصابر وأرشد وبين وبلغ عن الله ما شرعه لعباده فكان واسطة العقد وينبوع الهدى ولولاه لهلكنا وضللنا فكل خير أصبناه فى ديننا ودنيانا يرجع فضله إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فيجب أن نحبه ومحبته تقتضى اتباعه فى كل ما شرع ويرحم الله القائل :

لو كان حبك صادقاً لأطعته ❊ إن المحب لمن يحب مطيع

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به . رواه القسطلانى فى الجزء الثانى من المواهب اللدنية .

ومن أعظم الدلائل على محبة العبد لنبيه بذله النفس والنفيس فى سبيل شريعته والجهاد فى سبيل الله لإعلاء دينه وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم فى المنزلة العليا من هذه المحبة فكان الرجل منهم يتلقى دونه النبال والسيوف قال ابن إسحق والقسطلانى فى المواهب اللدنية الجزء الأول : وتترس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو دجانة بنفسه يقع النبل فى ظهره وهو منحن عليه حتى كثر عليه النبل وهو لا يتحرك وقال ابن هشام فى سيرته خرجت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية أول النهار يوم أحد حتى انتهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فباشرت القتال وما زالت تذب عنه بالسيف وترمى عن القوس حتى خلصت الجراحة إليها قالت أم سعد ابن الربيع لقد رأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور فسألتها عن سببه فقالت لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أقبل ابن قمئة يقول دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا فاعترضت له فضربنى هذه الضربة وضربته أنا ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان .

فانظر يا رعاك الله هل تجد تطبيقاً عمليا ودليلا واقعياً على محبة المؤمنين لنبيهم أكثر من هذا . أما اليوم فإنك تجد أدعياء المحبة كثيرين ولو طلبت من أحدهم درهما فى سبيل دعوته أو غدوة أو روحة فى سبيل دينه لوجدته يولى الأدبار ، ويلوذ بالفرار . فاللهم هدايتك وإنقاذك لهذه الأمة .

ثانية هذه الخصال : أن يحب الشخص أخاه لا يحبه إلا لله ، فالحب فى الله والبغض فى الله باب عظيم من أبواب الإيمان . ومعنى المحبة لله وفى الله أن يحب المرء لأنه طائع لربه يأتمر بأوامر الله وينتهى بنواهيه .

فلا يكون مبعث الحب غرض مادى دنيوى فقط كالذى يحب للقرابة والذى يحب للمصاهرة ، والذى يحب للاشتراك فى التجارة أو العمل والذى يحب لأنه ينتفع بمحبوبه فى جاه أو مال ، وكالذى يحب للمشاركة فى الهوى والمفسدة كل ذلك وأمثاله حب مزيف لا يلبث أن يزول بزوال أسبابه .

أما الحب فى الله فهو إذا دائم بدوام الله ودوام طاعته لا تنقطع آثار هذه المحبة الخالصة فى الدنيا بل ولا فى الآخرة فالله يقول فى سورة الزخرف آية ٦٧ : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

ويقول فى سورة الحجر آية ٤٥ ومابعدها : «إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين» .

ومن آثار الحب فى الله أن يتعاون المتحابان على تنفيذ شريعة الله والعمل بها وأن يسعى كل منهما فيما يعود على الآخر بالنفع العميم والخير الجسيم . ومآل المتحابين إلى الفردوس الأعلى فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله وفيهم رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه رواه البخارى ومسلم .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل : المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

ولقد ظهرت هذه المحبة الخالصة ظهوراً واضحاً فى عهد الصحابة رضوان الله عليهم فقد ثبت أنهم وصلوا بها إلى مثلها العليا وتخطوا بها درجات المادة وسموا بها إلى أعلى الروحانيات . وإليك بعض الأمثلة فى هذا الشأن :

آخى الرسول صلى الله عليه وسلم عقب الهجرة بين المهاجرين والأنصار فقال سعد بن الربيع لأخيه المهاجرى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما هذا مالى ونخلى أقسمه بينى وبينك نصفين وهذه دارى بينى وبينك فقال عبد الرحمن بارك الله لك دلنى على سوق المدينة فدله فما زال يقلب فى سلعته حتى ربح كثيراً .

وقد مدح الله الأنصار وسجل لهم هذه الأخوة العالية بقوله : «والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» .

وقد ثبت عن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم مدح الأشعريين فقال إنهم إذا أرملوا فى الغزو أو قل طعامهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم بالسوية فهم منى وأنا منهم رواه البخارى ومسلم .

ولا أظنك تجهل أثر هذه الأخوة فى إعزاز الأمة وتقوية الروابط بين أفرادها . وما انتصر أهل بدر على قلتهم إلا بهذه الأخوة وتلك المحبة وقد سئل بعض الكافرين عن سر انتصار المسلمين عليهم مع قلة عدد المسلمين وعدتهم فقال إن كل فرد من المسلمين يحب أن يقتل قبل أخيه فداء له ومسارعة إلى الشهادة وأما غيرهم فكل فرد يحب أن يقتل أخوه قبله ليستأثر بالغنيمة من بعده .

الخصلة الثالثة أن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار. والإنسان لا يصل إلى هذه الدرجة إلا إذا كان مؤمناً قوى الإيمان ثابت العقيدة قد اطمأن لها ووضحت أدلتها عنده . وزالت جميع الشبهات من نفسه ولذلك تجده يفديها بنفسه ويعض عليها بالنواجذ ويكره أن يعود إلى الكفر كما يكره النار وينفر منها . وذلك فى الحقيقة هو المؤمن الصادق يقول الله تعالى: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون آية ١٥ من سورة الحجرات « فهذا ميزان الإيمان الحق الذى لا ريب فيه ولا شبهة فى حواشيه » .

واعلم أيها القارىء الكريم أن هذه الصفات أصبحت نادرة فالناس اليوم تبع لأهوائهم يحلون ما وافق شهواتهم ويحرمون حسب أهوائهم فهم أشبه بالجاهليين الذين اخترعوا النسىء فى الأشهر فسجل الله عليهم هذه الشنيعة بقوله فى سورة التوبة آية ٣٧ : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين » . ولكن المؤمن الحق هو الذى يضع نفسه فى إطار الشريعة لا يتجاوزها مهما كان ذلك مخالفاً لشهواته وإلا فما معنى كونها تكاليف إذا أخذ الإنسان منها ما وافق هواه وترك ما خالفه ؟ كذلك شأن الناس اليوم أنهم إذا أحبوا أو صادقوا أحبوا للدنيا وللأغراض الدنيئة ، ولذلك كثيراً ماينقلب الصديق الحميم إلى عدو لدود حينما تتخلف رغباته أو تنعكس شهواته فلا يجد

الغرض الدنىء الذى صاحب من أجله كذلك إذا نظرت إلى الناس من ناحية عقائدهم تجد أكثرهم قد زاغت قلوبهم وشابت عقائدهم شبهات الأباطيل وران على قلوبهم شكوك الملحدين ينبىء عن هذا كله ما يظهر على ألسنتهم وفى صفحات رسائلهم وفى عامة مقالاتهم وفى سلوكهم وأعمالهم .

وندرة هذه الصفات المذكورة فى الحديث تجعلك أيها المسلم حريصاً على التمسك بها والدعوة لها حتى يتجدد عهد السلف الصالح الذى كان يتحلى بها لتعود العزة للمؤمنين .

ولا يخفى عليك بعد هذا البيان ما فى الحديث من صناعة فنى قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث إبهام يؤدى إلى التشويق فإذا جاء البيان بعد ذلك تمكن فى النفس فضل تمكن كالتشويق فى قول الشاعر : —

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها   شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

وموقع ثلاث من الإعراب الرفع على أنه مبتدأ وإن كان نكره لأن التنوين عوض عن المضاف إليه فقام مقام وصفه والتقدير ثلاث خصال وكان العدد مذكراً لأن المعدود مؤنث وهو خصال وكان فى قوله من كن تامة فلا تحتاج إلى منصوب ومن شرطية وفعلها وجوابها لا يخفيان عليك والجملة الشرطية خبر المبتدأ وفى قوله صلى الله عليه وسلم حلاوة الإيمان استعارة بالكناية حيث شبه الإيمان بمطعوم حلو المذاق ثم حذفه ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الحلاوة وفى هذا اللازم استعارة تخييلية .

والمؤمن الكامل أشبه بالصحيح فى بدنه يذوق حلاوة الأشياء على حقيقتها والضعيف فى عقيدته أشبه بالمريض يذوق الحلو فيجده مرا وكلما نقصت الصحة شيئا نقص ذوقه بقدر ذلك .

وقد ورد تشبيه الإيمان وكلمة التوحيد بالشجرة فى قوله تعالى فى سورة إبراهيم آية ٢٤ « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل النخلة تشبه المؤمن فقد روى البخاري فى كتاب العلم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إن من الشجره شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثونى ماهى؟ فوقع الناس فى شجر البوادى قال ابن عمر ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا حدثنا ما هى يا رسول الله قال هى النخلة .

وقد قال ابن حجر شارح البخارى فى كتابه فتح البارى إن السبب فى استحياء ابن عمر هو أن أبا بكر وعمر كانا فى المجلس وكان ابن عمر أصغر الجالسين سناً .

ولا شك أن ثمر النخل حلو سيما فى حالة تناهى نضج الثمرة .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم مما سواهما ليعم من يعقل ومن لا يعقل فإن «ما» تطلق فى بعض الأحيان ويراد بها العموم كقوله تعالى فى سورة النحل آية ٤٩ «ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون» وهنا يورد العلماء بحثا فى قوله صلى الله عليه وسلم مما سواهما فيقولون فيه دليل على جواز جمع الله مع رسوله فى ضمير واحد ولكن ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع خطيبا يقول : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال بئس الخطيب وأجيب عن ذلك التعارض بأجوبة منها : —

١ — أن الخطابة مقام إيضاح وبسط فلا يليق فيها الاختصار .

٢ — أن مقام الرسول صلى الله عليه وسلم يخالف مقام غيره فإذا صدر من الرسول شىء من هذا فلا يوهم قوله أى نقص فى حق الله تعالى ولكن إذا صدر من غيره فربما حمل على مالا يليق بالألوهية .

٣ — جمع الضمير فى قول الخطيب ومن يعصهما بين الله ورسوله يوهم أن المعصية لا تضر صاحبها إلا إذا كانت معصية مزدوجة لله وللرسول معا وهذا باطل لأن معصية كل منهما على حدة تؤدى بصاحبها أما فى الطاعة فلا

يضر الجمع ولا يوهم لأنه لا بد من طاعتهما معا ولا تقبل طاعة واحد منهما بدون الآخر والمقام دقيق يحتاج إلى فطنة . والتعبير بقوله يكره أن يعود فى الكفر مع أن يعود يتعدى بإلى لأنه ضمن معنى الاستقرار كما فى قوله تعالى فى سورة الأعراف آية ٨٩ « وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا » .

وفى التعبير تمثيل لشدة كراهة المؤمن للكفر ونفرته منه .

ولعلك فى حاجة إلى زيادة ثروتك اللغوية فاسمع مايتصل بهذا الحديث قال فى القاموس . الحلو ضد المر حلى كرضى ودعا وسر وحلاوة وحلوا وحلوانا وفى المثل فلان ما يمر وما يحلى بضم الياء أى ما يتكلم بمر ولا حلو والحلوان بضم الحاء أجرة الدلال والكاهن . والحلى بسكون اللام ما يزين به من مصوغ وآمن به إيمانا صدقه والإيمان الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة والحب الوداد والحب بكسر الحاء المحبوب وحبة القلب سويداؤه وحباب الماء فقاقيعه التى تطفو . والكره بالفتح والضم الإباء والمشقة أو بالضم ما أكرهت نفسك عليه وبالفتح ما أكرهك غيرك عليه كرهه كسمعه كرها ويضم وكراهة وكراهية والكريهة الحرب والنازلة والعود الرجوع كالعودة والمعاد والعود زيارة المريض كالعياد والعائدة المعروف والصلة . وقذف بالحجارة رمى بها وقذف المحصنة رماها بالزنا والقذيفة كل ما يرمى به .

وإن كنت أيها القارىء الكريم شغوفا بأسانيد الأحاديث والحكم عليها من حيث الصحة والقبول فهذا الحديث من أحاديث البخارى وكل أحاديث البخارى فى أعلى درجات الصحة تلقتها الأمة بالقبول وقد روى البخارى قال حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا عبد الوهاب الثقفى قال حدثنا أيوب عن أبى قلابة عن أنس الحديث المذكور وهذا الإسناد كل رجاله بصريون موثوق بهم عدول ضابطون .

أغراض الحديث

أولا : وجوب اتباع الله واتباع رسوله وتقديم طاعتهما على هوى النفس وغيرها من المحبوبات .

ثانياً : الإخلاص فى الأخوة بحيث تكون لله لا لغرض دنيوى .

ثالثاً : التمسك بالعقيدة والثبات على الإيمان مهما هبت زلازل الفتن .

رابعاً : ما دام الإيمان يزيد ويحلو فالواجب السعى وراء كماله وطلب المثل الأعلى فيه . والله المستعان .

خاتمة : راوى الحديث هو أنس بن مالك رضى الله عنه ينتهى نسبه إلى بنى عدى بن النجار وهو من أهل المدينة ومن الأنصار خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ولم تكن الخدمة عن ذلة ومهانة نسب كما هو المعتاد فى عصرنا هذا وإنما كانت حبا فى إكرام الرسول وسعياً وراء المعرفة من منبعها روى مسلم عن أنس قال جاءت بى أمى أم سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد آزرتنى بنصف خمارها وردتنى أى ألبستنى رداء بالنصف الآخر فقالت يا رسول الله هذا أنيس ابنى أتيتك به يخدمك فادع الله له فقال اللهم أكثر ماله وولده وفى رواية وأدخله الجنة وقد استجاب الله دعوة رسوله فى أنس فكثر ولده وماله حتى رأى من صلبه عشرات وكان له بستان يحمل الفاكهة فى السنة مرتين وكانت ملازمته للنبى صلى الله عليه وسلم من حين الهجرة إلى حين لقى ربه أكبر معين له على حفظ القرآن والسنة حتى أصبح فى عداد المكثرين من رواية الحديث له رواية فوق الألف من الأحاديث ولذلك روى البخارى فى التاريخ عن قتاده قال حينما مات أنس بن مالك قال مورق ذهب اليوم نصف العلم وتوفى سنة ٩٣ هجرية وكان آخر من توفى بالبصرة من الأنصار .

(الآيات والأحاديث التى تؤيد حديث الباب)

قال تعالى : « والذين آمنوا أشد حبا لله » من سورة البقرة . « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » من سورة آل عمران « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » من سورة التوبة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين) .

وقال تعالى يمدح الأنصار : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . من سورة الحشر وقال تعالى « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . من سورة الفتح .

ويقول صلى الله عليه وسلم (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله الإمام العادل وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه) متفق عليه .

وعن عياض قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم وعفيف متعفف ذو عيال رواه مسلم) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم . أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا فلما أتى

عليه قال أين تريد قال أريد أخالى فى هذه القرية قال هل لك عليه من نعمة تربها عليه قال لا غير أنى أحببته فى الله تعالى . قال (فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه) رواه مسلم . يقال أرصده لكذا إذا وكله بحفظه والمدرجة بفتح الميم والراء الطريق ومعنى تربها تقوم بها وتسعى لصلاحها .

الحديث الثانى

عن عبدالله بن مسعود رضى اللهعنه عنالنبى صلى اللهعليه وسلم قال: —

« لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناونعله حسنة قال : إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » . رواه مسلم فى كتاب الإيمان ص ٨٩ من شرح النووى الجزء الثانى .

المعنى الإجمالى

يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن المتكبر لا يدخل الجنة مهماكان كبره ضئيلا لأن المتكبر عدو الله وعدو الناس يتعالى ويتعاظم ولا يقر لإنسان بجميل ولا يعترف لغيره بفضل ولا يرى أفضل من نفسه فهو أنانى بطبعه وفى الغالب يكون مغرورا ويكون علوه بنفسه عن جهالة أو مركب نقص ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه فلما سمع الصحابة ذم الكبر وصاحبه ظن بعضهم أن المظهر الحسن والاعتناء بالهيئة والسمت الجميل نوع من أنواع الكبر المذموم فبين الرسول له أن هذا ليس من الكبر بل هو من إظهار نعمة الله والتحدث بها . وإنما الكبر المذموم الذى يحرم صاحبه الجنة هو دفع الحق ورده وعدم قبوله واحتقار الناس وازدراؤهم .

المعنى التفصيلى

لا يدخل الجنة المتكبر وذلك على سبيل الحرمان الأبدى إذا استحل الكبر مع علمه بتحريمه لأن من أحل محرما مجمعا على تحريمه معلوما من الدين بالضرورة فقد كفر . وعلى هذا يمكنك أن تجيب عن كل نص من القرآن ، والسنة أثبت الخلود فى النار لصاحب الكبيرة كما قال فى حق القاتل : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » سورة النساء آية ٩٣ .

وكذلك فى حق الزانى يقول الله تعالى : « ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا » سورة الفرقان آية ٦٨ — ٦٩ .

أو المراد بالكبر التكبر على الله تعالى ورفض الإيمان بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره فإن من كان بهذه الصفة يخلد فى النار ولا سبيل له إلى الجنة . وقد رأى بعض العلماء أن الحديث اخبار عما سيحصل فى الآخرة عند دخول الجنة حيث ينزع الله ما فى صدور المؤمنين من غل وحقد وكبر فيدخلون الجنة حين يدخلونها وهم متصفون بسلامة الصدر فلا يدخل الجنة ذو كبر بل يطهره الله منه حين دخولها وعلى هذا فالحديث خبر محض لا يتضمن نهيا . ويؤيد هذا قول الله تعالى : «ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » آية ٤٧ من سورة الحجر. وقد روى الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عن لقمان عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما فى صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضارى ثم قال وهذا موافق لما فى الصحيح من رواية قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة .

والأولى أن يحمل الحديث على أنه وإن كان خبراً لفظا لكنه يتضمن النهى كأنه قال لا تتكبروا فإن من تكبر لم يدخل الجنة . وقد أجاب بعض العلماء عن الحديث بأنه لا يدخل الجنة . ابتداء مع السابقين الأولين وإن كان لا يحرم منها مادام مؤمناً فإن الله لا يظلم مثقال ذرة وقد ورد فى الصحيح أن الله يأمر ملائكته أن يخرجوا من النار كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله قال البخارى فى سنده : إلى أبى هريرة فيعرفونهم بعلامة آثار السجود قال الرسول صلى الله عليه وسلم : فيخرجونهم قد امتحشوا أى احترقوا

وزنا ومعنى فيصب عليهم ماء يقال له ماء الحياه فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل وذلك ثابت فى حديث طويل رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب الصراط جسر جهنم أو يحمل الحديث على أنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه الله ولم يعف عنه .

وقوله صلى الله عليه وسلم مثقال ذرة تمثيل بأصغر الأشياء والمراد تحريم الكبر بجميع أنواعه صغيره وكبيره ظاهره وخفيه فإن ذلك الذر الذى يرى فى شعاع الشمس قد لا يتبين إلا فى حالات خاصة وقد حرم الله التكبر على شرائعه والتعالى على الناس والتعاظم عليهم واحتقارهم لجنس أولون أو جاه أو مال أو غير ذلك من الأسباب لأن الله سوى بين الناس جميعاً فقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » آية ١٣ من سورة الحجرات فجعل مورد التفضيل التقوى ولم يجعل مورده الجاه أو الغنى أو النسب ويقول صلى الله عليه وسلم الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب .

أسباب الكبر : لا شىء يحمل الإنسان على الكبر إلا تعاظمه بنسب أو جاه أو مال أو قوة . وقد رفض الله هذه الميزات فى الآخرة ولم ينظر إلا إلى التقوى والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم رواه مسلم وابن كثير وابن ماجه . والله يقول : « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » آية ١٠١ من سورة المؤمنون ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه .

وروى أبو بكر البزار فى مسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان بكسر الجيم جمع جعل كصرد وهى دابة صغيرة . وقد حدثنا القرآن الكريم عن قوم

تعالوا وتكبروا بقوتهم وشدتهم وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة آية ١٥ من سورة فصلت كذلك حدثنا عن قوم تعالوا بجاههم وملكهم وقال قائلهم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين آية ٥٢ من سورة الزخرف .

كذلك حدثنا عن قارون صاحب الأموال والكنوز حتى إن مفاتح خزائنه لتنوء بالعصبة أولى القوة أنه تكبر على نبى الله موسى وقال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون آية ٧٨ من سورة القصص وهكذا تجد القرآن الكريم قد تتبع أسباب الكبر عند المتكبرين ونعى عليها بالذم وبين عاقبتها الوخيمة ونهاية أصحابها الأليمة . وقد رأى الإمام على كرم الله وجهه رجلا متكبرا متنفخا يجلس جلسة المتكبرين فقال له يا هذا أتعرف مبدأك ، أتعرف نهايتك ؟ إن مبدأك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قذرة وفيما بينهما تحمل العذرة فلم التكبر ؟ ! أراد على رضى الله عنه أن يحارب سبب الكبر فى نفس المخاطب وهو العجب والغرور فعرفه نفسه ومن عرف نفسه استراح وأراح وقد شاع هذا الخلق الذميم فى كثيرين فترى الرجل أنفه فى السماء واسته فى الماء ولو جلست إليه واختبرت عقله لوجدت خفة وسفها ولكنه الغرور والجهل ومركب النقص عافانا الله وإياكم . وأسوأ أنواع الكبر الكبر على الله مع أنه الخالق من العدم والرازق والمنعم والمربى لا بقاء للخلق بغير إمداده ، ولا نجاة لهم بغير هدايته وإسعاده . فاحرص أيها العاقل على تواضعك لربك والتزامك لشرائعه فمن تواضع لله رفعه والمتكبر مذموم عند الله والناس ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد رواه مسلم عن عياض .

(فقال رجل) هو مالك بن مرارة الرهاوى وقيل معاذ بن جبل وقيل هو عبد الله بن عمرو بن العاص والمشهور عند العلماء هو الأول كما رأى القاضى عياض (إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا) ال فى الرجل للجنس والإنسان مدنى بطبعه يسعى دائماً لاحترام الناس له ولذلك يجب أن يظهر أمامهم بمظهر كريم لائق ومن أهم هذه المظاهر حسن الثياب فهو أول ما تقع العين عليه ومن المظاهر الحسن النعل الجميلة لأنها ثانى ماتقع عليه العين قال الرسول صلى الله عليه وسلم رداً على هذا الرجل الذى ظن أن حسن الهيئة من الكبر قال له (إن الله جميل يحب الجمال) أى كل صفاته جميلة كاملة فله الأسماء الحسنى والصفات العلى فالمراد بالجمال الكمال فى حق الله تعالى وقيل جميل بمعنى مجمل ككريم بمعنى مكرم وقال الخطابى معناه ذو النور والبهجة أى مالكهما وقيل جميل بمعنى جليل وهو معنى قريب من الأول وقيل معناه جميل الأفعال بالخلق يكلفهم اليسير ويثيب على ذلك بالجزيل ويمهل العاصين ويحلم على المذنبين ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا . آخر سورة فاطر . والعلماء فى إطلاق هذا الاسم على الله تعالى فريقان فريق أجاز إطلاقه عليه وهو المختار وفريق منعه وحجة الأولين أنه متى ورد فى كتاب الله أو سنة رسوله إثبات اسم لله تعالى دل على إذن الله بذلك . وحجة الآخرين أن ماثبت بخبر الآحاد لايجوز إطلاقه على الله لأن الأمر عقيدة تتعلق بالله ولا يكفى فى إثبات العقيدة خبر الآحاد. قال إمام الحرمين وهو عالم جليل من علماء المتكلمين : ما ورد فى الشرع إطلاقه فى أسماء الله تعالى وصفاته أطلقناه وما منع الشرع من إطلاقه منعناه وما لم يرد فيه إذن ولا منع لم نقض فيه بتحليل ولا تحريم لأن الأحكام الشرعية تتلقى من موارد الشرع ولو قضينا بتحليل أو تحريم لكنا مثبتين حكما بغير الشرع . ثم لا يشترط فى جواز الإطلاق ورود الحديث المتواتر القطعى أو ورود القرآن به ولكن ما يقتضى العمل وإن لم يوجب العلم فإنه

كاف فى ذلك . والجمهور على أنه يكفى فى ذلك خبر الآحاد لأن الدعاء بهذا الإسم والثناء به من باب العمل وذلك جائز بخبر الواحد قال الإمام النووى والصواب جوازه لاشتماله على العمل ولقول الله تعالى ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه آية ١٨٠ من سورة الأعراف . غير أن الجمهور يشترط فى قبول خبر الآحاد والعمل به أن تثبت صحته أو حسنه وأن يحكم علماء الحديث بقبوله . فإن قيل ليس فى أسماء الله الحسنى الجميل وقد أحصى رسول الله أسماء الله فقال إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة . أجاب النووى بأن الجمهور اتفقوا على أن الحديث ليس فيه حصر أسماء الله فى هذا العدد وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين ويؤيد ذلك ما أخرجه أحمد وصححه ابن حبان من حديث ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا فقال أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك وروى مالك دعاء عن كعب الأحبار وأسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم وقد دعت عائشة أمام النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فأقرها . وقال الخطابى فى الحديث إثبات هذه الأسماء المخصوصة بهذا العدد وليس فيه منع ما عداها من الزيادة وإنما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها وخلاصة المقام أن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يبين للرجل أن التزين ليس من الكبر فقال له إن الله جميل يحب الجمال فيستحب للمسلم أن يظهر بمظهر كريم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب السمت الحسن ويكره منظر الرجل الذى ترك شعر رأسه أشعث وقد كان يزور جابر بن عبد الله يوماً فرأى رجلا شعثاً فقال أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه . وقد اعتاد الرسول أن ينظر فى صفحة ماء البئر قبل خروجه للناس ليصلح من هيئته لأن المرآة لم تكن معروفة عندهم كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلبس للوفد أحسن ثيابه ويخرج للجمعة فى أبهى حلة وفى دواوين الحديث كتاب اللباس والزينة فإن أردت المزيد من هذه الآداب فارجع إليه .

تنبيه : يجب أن يحتاط المسلم عندتزينه وتجمله حتى لا يقع فى زينة محرمه أو إسراف فى المال وقدقال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة والمخيلة بفتح الميم وكسر الخاء الخيلاء والتكبر والمراد بالاسراف المذموم إطالة الثياب للرجال عن الكعبين فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما زاد عن الكعبين فى النار رواه البخارى . كما أن من الإسراف تطويل الأكمام وتوسعتها زيادة عن قدر الحاجة . ومن الزينة المحرمة لبس الحرير الطبيعى للرجال ولبس خاتم الذهب والدبلة المعروفه فإن عليا رضى الله عنه قال أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ حريراً فجعله فى يمينه وأخذ ذهباً فجعله فى شماله ثم قال : إن هذين حرام على ذكور أمتى أخرجه أحمد فى مسنده وأبو داود زاد ابن ماجه حل لأناثهم قال ابن المدينى حديث حسن ورجاله معروفون .

ثم بين الرسول الكبر المذموم بقوله الكبر بطر الحق أى دفعه وعدم قبوله وغمط الناس أى احتقارهم .

فائدة : قد يباح الخيلاء والكبر فى بعض المواطن كما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أبا دجانة وهو يختال فى مشيته بين الصفوف عند الحرب فقال : إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن وذلك ليحدث الحسرة فى قلوب الأعداء من الكافرين .

الإعراب واللغة

لا نافية ويدخل بالرفع لأن الكلام خبر كما قدمنا وإن كان يتضمن الإنشاء والنهى ومن اسم موصول فاعل . والمثقال المقدار قال فى الصحاح مثقال الشىء ميزانه من مثله ويقال أعطه ثقله أى وزنه . أما المثقال المعروف عند أهل الذهب فليس بمراد هنا . قال فى القاموس الثقل كعنب ضد الخفة والثقل محركة متاع المسافر وكل شىء نفيس ومنه الحديث إنى تارك فيكم ثقلين كتاب الله وعترتى والفعل من ثقل ككرم ثقلا فهو ثقيل ويقال ثقلت

المرأة استبان حملها . والذرة واحدة الذر وهو صغار النمل ومائة منها زنة حبة شعير . وفسره العلماء بما يكون فى شعاع الشمس عند دخوله مكانا مظلما فهو الهباء الذى تراه عند ذاك خفيفاً متحركا منبثاً .

والكبر . قال فى القاموس كبر ككرم كبرا كعنب وكبرا بالضم نقيض صغر فهو كبير وكبار وكبر تكبيراً بالتشديد أى قال الله أكبر وأكبره رآه كبيراً وعظم عنده وكبر كفرح كبرا كعنب أيضاً طعن فى السن وكبر بضم الباء عظم والكبر العظمة والتجبر .

والنعل ما وقيت به القدم من الأرض وهى مؤنثة الحذاء ونعل كفرح وانتعل وتنعل إذا لبسها . ونعل السيف ما يكون فى أسفل غمده من حديد أوفضة . والبطر الأشر وهو شدة المرح وبابه طرب قال ابن الأثير فى النهاية البطر الطغيان عند النعمة وبطر الحق أن يجعل ماجعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا أو أن يتجبر عن الحق فلا يراه حقا أولا يقبله . وقال النووى بطر الحق دفعه ورده على قائله .

قال فى القاموس البطر الأشر وقلة احتمال النعمة أو الطغيان بالنعمة والفعل منه كفرح والبيطر والبيطار معالج الدواب . وغمط الناس احتقارهم وذكره الترمذى بالصاد المهملة والغمط والغمص بمعنى واحد .

قال فى القاموس غمط الناس كضرب وسمع استحقرهم وغمط العافية لم يشكرها وغمط النعمة بطرها وحقرها والغمط المطمئن منه الأرض . وغمصه احتقره وتهاون بحقه وهو مغموص عليه مطعون فى دينه واليمين الغموص والغموس الكاذب .

وإليك سند الحديث : روى مسلم قال حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنى يحي بن حماد أخبرنا شعبة عن أبان بن تغلب عن فضيل الفقيمى عن إبراهيم النخعى عن علقمة عن عبدالله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم الحديث وهو صحيح الإسناد وقد التزم مسلم فى كتاب الصحيح .

أغراض الحديث

أولا : تحريم الكبر وحث الناس على التخلص منه .

ثانياً : بيان أن المظهر الحسن من الثياب والنظافة ليس من الكبر .

ثالثاً : حرم الكبر لأنه ينافى التعاون بين الأمة ويوجد البغضاء بين أفرادها .

رابعاً : حرص الصحابة على السؤال عن دينهم وخوفهم من الوقوع فى المحرمات .

نبذه عن راوى الحديث : هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود ينتهى نسبه إلى هذيل بن مدركه وقد أسلم عبد الله قديما قبل إسلام عمر بن الخطاب بزمن بعيد ورد عنه قال لقد رأيتنى سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا وقد هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد وهو الذى أجهز على أبى جهل يوم بدر كما شهد اليرموك وكان ملازما لرسول الله فى الصحيحين أن أبا موسى الأشعرى قال : قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينا لا نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه . ولتقدم إسلامه وملازمته وشغفه بالعلم عد من كبار الصحابة وفقهائهم حتى قال رسول الله خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وسالم مولى أبى حذيفة ومعاذ بن جبل . وكان يقول متحدثا بنعمة الله عليه : والذى لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا وأنا أعلم حيث أنزلت وما من آية إلا وأنا أعلم فيم نزلت . ولو علمت أن أحداً هو أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لركبت إليه : وله من رواية الحديث قريب من الألف وتوفى بالكوفة سنة ٣٢ ﻫ وقد اكتسب ابن مسعود من خلطته برسول الله صلى الله عليه وسلم وكثرة تردده عليه ماجعله أقرب الناس من رسول الله هديا ودلا وسمتا وأرفقهم تعليما وأحسنهم مجالسة وأشدهم ورعا وأزكاهم خلقا وأعلمهم بكتاب الله وأحفظهم لحديث

رسول الله . ولعظيم قدره كان موضع ثقة عمر وقد بعث به إلى أهل الكوفة معلما ووزيراً قائلا لهم قد آثرتكم بعبد الله على نفسى وهى شهادة لها قيمتها من مثل عمر . فرضى الله عنهم أجمعين .

(الآيات والأحاديث التى تؤيد حديث الباب)

لكى نزيد ثروتك الوعظية ودعوتك إلى الفضيلة نسرد لك بعض الآيات والأحاديث التى تحرم الكبر وتدعو إلى التواضع فنقول : قال الله تعالى ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور من سورة لقمان ومعنى لا تصعر خدك لا تمله ولا تعرض به عن الناس تكبراً عليهم والمرح التبختر وقال تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً متفق عليه .

وفى الحديث القدسى قال الله عز وجل العز إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فى واحد منهما فقد عذبته رواه مسلم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه مرجل رأسه يختال فى مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة متفق عليه . ومرجل رأسه أى ممشطه ويتجلجل أى يغوص وعن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : —

لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ما أصابهم رواه الترمذى وقال حديث حسن ومعنى يذهب بنفسه أى يتكبر . اللهم طهر قلوبنا من الكبر والحقد واجعلنا من المتواضعين .

الحديث الثالث

عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : —
يا عبد الرحمن لا تسأل الأمارة فإنك إن أعطيتها عن مسئلة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذى هو خير متفق عليه (رواه البخارى ومسلم) .

المعنى الإجمالى

تطلع بعض الصحابة إلى الرئاسة والولاية فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوليه بعض الجهات التى خضعت لحكم الإسلام أو يوليه عملا عاما من أعمال الدولة فنهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا وبين لهم وجه النهى وحكمته لتستريح قلوبهم وأخبرهم أن من سعى إلى الإمارة لاقى منها عناء وحرم التوفيق الإلهى . أما من صرف نظره عنها فمنحها الله له أعانه الله على أعبائها ووفقه وسدده ثم أبان الرسول صلى الله عليه وسلم حكما شرعيا يتعلق بالأيمان ومناسبة ذلك أن الرجل ربما تعرض عليه الإمارة أو القضاء فيحلف بالله أن لا يتولى ذلك لما سمع من ذم الرسول لها وذكره لأعبائها ثم يظهر له أن الإسلام يوجب عليه القبول لعدم وجود غيره ممن هو أهل للقيام بها فربما أحرج لوجود اليمين فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لا حرج عليه فى الحنث وأن الأفضل له وللمسلمين أن يفعل الخير حيث كان ثم يكفر عن يمينه سعيا وراء الصالح العام والله يقول : « ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم » البقرة آية ٢٢٤ .

المعنى التفصيلى

(لا تسأل الإمارة) لا تطلب الولاية على أمر كائنا ما كان فإن كل راع مسئول عما استرعاه الله فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : لا يسترعى الله تبارك وتعالى عبداً رعية قلت أو كثرت إلا سأله الله عنها يوم القيامة أقام فيهم أمر الله أم أضاعه ؟ وعن معقل بن يسار قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة متفق عليه .

ولهذا كنت ترى عزوف الصحابة رضوان الله عليهم عن كل ما فيه ولاية حتى قيادة الجيوش ورئاسة الثغور رغم ما فيها من خطر وتعرض للموت كانوا يحبون أن يكونوا جنوداً مجهولين ويرون ذلك خيراً من توليتهم رئاسة الجند وحراسة الرباط خوفا على أنفسهم من الطغيان البشرى وشفقة من سؤال الله وعذابه يدلك على هذا ما أخرجه مسلم فى صحيحه بسنده إلى أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله وفى رواية البخارى ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها قال عمر بن الخطاب ما أحببت الإمارة إلا يومئذ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها فقال أين على بن أبى طالب فقيل هو يارسول الله يشتكى عينيه قال فأرسلوا إليه فأتى به فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية وقال امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك قال : فسار على شيئاً ثم وقف ولم يلتفت فصرخ يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس ؟ قال قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله وفى رواية البخارى انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوا الله لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم . والشاهد فى هذا الحديث قول عمر ما أحببت الإمارة إلا يومئذ إشارة قوية إلى أن الصحابة رضوان الله عليهم ما كانوا يتمنون المناصب



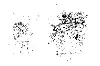
وما كانوا يسعون إليها إلا إذا كان فيها رضوان الله كما فى هذه الحادثة حيث أثبت الرسول للقائد حبه لله ولرسوله وحب الله ورسوله له فلم يرجها الناس إلا لما فيها من هذه المزية الدينية التى تنقطع دونها الرقاب . وتقف عندها الآمال وهذا هو الذى حمل مثل عمر أن يقول فتساورت لها رجاء أن أدعى لها أى تطاولت لها وحرصت عليها وأظهرت وجهى وتصديت للرسول ليتذكرنى .

أما حين تكون الولاية مسئولية صرفة وتبعة محضة فعمر وأمثاله أشد الناس عزوفا عنها وكراهية لها لما علمت من الآثار ولما ستعلم فقد ثبت الوعيد الشديد فى حق من فرط فى رعيته وأهمل شئونها ولم يجتهد فى كل ما يؤدى لعزتها وجلب الخير لها فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجتهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة رواه مسلم. من هذه الآثار النبوية الكريمة يعلم خطر شأن الولاية وعظم مسئوليتها ولذلك لما سأل أبو ذر رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم الولاية قال له يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن بتشديد الميم على اثنين ولا تولين بتشديد اللام مال يتيم رواه مسلم وفى رواية أخرى عن أبى ذر قال قلت يا رسول الله : ألا تستعملنى فضرب بيده على منكبى ثم قال يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها . رواه مسلم . ولذلك لما طعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلم أنه الموت أراد أن يستخلف الخليفة من بعده لئلا يقع الناس فى شر فرقه فأشار عليه بعض الناس باستخلاف ابنه عبد الله بن عمر وكان فى الحقيقة جديرا بها ولكن عمر نفسه أبى وقال كفى أن يسأل عنها من آل الخطاب واحد . ذلك لأنهم فهموا أن الامارة ليست أبهة ومظهرا وتكاثرا وافتخارا وإنما هى أمانة ومسئولية خطيرة فكانوا يتحرجون منها ولذلك ضرب أبو حنيفة وجلد كى يتولى القضاء فاعتذر وامتنع .

أما هؤلاء الذين يسعون إلى الولاية ويتنافسون على الرئاسة ويتقاتلون على مجلس الأمة ويبذلون نفائس أموالهم فى سبيل شراء الأصوات والذمم فإنهم جاهلون يريدون من الولاية مظهراً ومغنما لا ينظرون إلى الآخرة وإنما ينظرون إلى الدنيا وزخرفها وهؤلاء على خطر عظيم وفى الوقت الذى جنوا على أنفسهم فيه بتحملهم مسئولية ليسوا أهلا لها جنوا على الأمة أيضاً باستنزاف أموالها وتضييع حقوقها ولذلك ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من بنى عمى فقال أحدهما يا رسول الله أمرنا على بعض ماولاك الله عز وجل وقال الآخر مثل ذلك فقال أنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سأله أو أحداً حرص عليه . وذلك لأن من طلب الولاية وسعى لها وحرص عليها دل فعله هذا على أنه يريد من الولاية مظهراً وتكاثراً وجاها ومثل هذا يسعى إلى خير نفسه وزيادة ثروته ولا تهمه الرعية فى قليل أو كثير .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمره لا تسأل الامارة ، يحتمل أنه سأله أن يوليه عملا كما حدث من أبى ذر ووفد أبى موسى الأشعرى ويحتمل أن النبى صلى الله عليه وسلم علم أنه جاء لذلك إما بأمارة أو وحى . قال القرطبى وظاهر النهى أنه للتحريم ثم ذكر علة النهى بقوله (فإنك إن أعطيتها) بالبناء للمفعول وحذف الفاعل إما لتعيينه أى أعطاكها الله . وإما لأن ذكره لا يترتب عليه تغيير حكم ومعنى من غير مسئلة أى من غير طلب منك لها ولا استشراف وتطلع إلى مغانمها (أعنت عليها) أى أعانك الله بالسداد والتوفيق للصواب وأزال عن طريقك العقبات وسهل لك قيادة الرعية وما إلى ذلك من خفى اللطف وعظيم العون الإلهى . وقد صرح الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فى رواية أخرى فقال : من طلب القضاء واستعان عليه بالشفعاء وكل إلى نفسه ومن أكره عليه أنزل الله ملكا يسدده . أخرجه أبو داود والحاكم وصححه .



وفى معنى الإكراه أن يدعى إلى المنصب فلا يرى نفسه أهلا لذلك

هيبة له وهضما لنفسه وخوفا من الوقوع فى المحذور ، فإنه يعان عليه إذا وليه والأصل فى ذلك أن من تواضع لله رفعه . ومن يتوكل على الله فهو حسبه . وقوله صلى الله عليه وسلم (وإن أعطيتها عن مسئلة) أى طلب وتطلع واستشراف نفس (وكلت إليها) أى صرفت إليها وحرمت المعونة الإلهية . ومن وكل إلى نفسه هلك .

قال ابن حجر العسقلانى فى شرحه فتح البارى على البخارى :ـ

من المعلوم أن كل ولاية لا تخلو من المشقة فمن لم يكن له من الله إعانة تورط فيما دخل فيه وخسر دنياه وعقباه .والتعبير بأن الشرطية فى الموضعين لندرة الأمر وقلته فأصبح كأنه فى حكم المشكوك فيه المتردد فى وقوعه . أما فى الجملة الآتية وهى قوله . وإذا حلفت إلخ فلكون ذلك يقع كثيراً أصبح فى حكم المتوقع اليقينى . ومعنى وإذا حلفت على يمين أى أقسمت بالله أو بصفة من صفاته ، فإن اليمين لا تنعقد إلا بذلك . اما الحلف بغير الله فلا ينعقد وهو محرم شرعاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : من كان حالفاً فليحلف بالله . أو ليصمت ، وقد عقد البخارى باباً . فقال باب لا تحلفوا بآبائكم ثم ساق حديثاً بسنده إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير فى ركب يحلف بأبيه فقال ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . فالتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لو أن أحدكم حلف بالمسيح هلك والمسيح خير من آبائكم . وأخرج الترمذى عن ابن عمر أنه سمع رجلا يقول لا والكعبة فقال لا تحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك وحسنه الترمذى وصححه الحاكم .

قال العلماء السر فى النهى عن الحلف بغير الله أن الحلف بالشىء يقتضى تعظيمه والعظمة فى الحقيقة إنما هى لله وحده . وأقول أنا السر فى النهى أن

الحلف من قبيل العبادة وهى مختصة بالله تعالى لا يجوز أن يعبد سواه ويجب أن نسير فى العبادة على حسب ما أذن الشرع فيها . ولم يأذن لنا الشرع فى الحلف بغير الله من مخلوقاته . وقال بعض المالكية والشافعية أن الحلف بغير الله مكروه . ورأى بعضهم التفصيل فقال إن اعتقد فى غير الله من التعظيم ما يعتقده فى الله حرم الحلف به ، وكان بذلك الاعتقاد كافراً وعليه تنزل الأحاديث التى حكمت بالكفر ، أو بالإشراك . أما إذا اعتقد فيه عظمة تليق بالمخلوق فلا يكفر بذلك ولا تنعقد يمينه . قال الماوردى لا يجوز لأحد من الناس أن يحلف أحداً بغير الله ، لا بطلاق ولا عتاق ولا نذر . وإذا حلف الحاكم أحداً بشىء من ذلك وجب عزله لجهله . وأما ما ورد فى القرآن من القسم بغير الله فى ذلك أجوبه منها أن هناك حذفا تقديره ورب كذا أى ورب الشمس ورب الليل ، وهكذا ومنها أن لله أن يقسم بما شاء من خلقه لأنه لا تكليف عليه من أحد بخلاف المخلوقات فقد تعبدهم الله بالحلف به وحده . فإن قيل قد أقسم الرسول بقوله للصحابى وأبيك لتنبأن وأجيب عن ذلك بأن حلفه كان قبل النهى . قال ابن العربى كان صلى الله عليه وسلم يحلف بأبيه حتى نهى عن ذلك. قال السهيلى ولا يصح هذا الجواب لأنه لا يظن بالنبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يحلف بغير الله ، ولا يقسم بكافر تا لله إن ذلك لبعيد من شيمته . وقال المنذرى دعوى النسخ ضعيفة لا مكان الجمع ولعدم تحقق التاريخ حتى يعرف الناسخ من المنسوخ . وأنا أقول إن هذا الجواب أولى من الأجوبة التى ذكروها وليس ببعيد على الرسول أن يحلف كما كان يحلف قومه حتى يأتى النهى . وذلك كصلاته على المنافقين حتى نهاه الله عن ذلك بقوله ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره . وقوله كيف يقسم بكافر مردود لأن والد الأعرابى غير مقطوع بكفره فكم من شخص مؤمن وابنه كافر وبالعكس فالأمر مبنى على الظن فقط . وهناك أجوبة أخرى منها أن هذا الحلف كان لفظا جاريا على الألسنة لا يقصدون به القسم قلت مهمة الرسول الأساسية مخالفة ما اعتاده

المشركون من الآثام فكيف يظن أن يكون الرسول مثل قومه يجرى على لسانه ما يجرى على ألسنة الكافرين مع أنه مشرع . وقد نهى عن الحلف بغير الله .

ومنها أن ذلك خاص بالرسول دون أمته. ورد بأن الخصائص لا تثبت بالاحتمال وهناك من يقول إنه للتعجب لا للقسم . وهى أجوبة كما ترى من الضعف .

قال صاحب الفتح فى الحديث إن من حلف بغير الله مطلقاً لم تنعقد يمينه سواء كان المحلوف به نبياً أو ملكا مقربا أو عالما أو صالحا أو ملكا من الملوك أو الكعبة أو غير ذلك واستثنى بعض الحنابلة من ذلك الحلف بنبينا محمد فقالوا تنعقد به اليمين وتجب الكفارة بالحنث والمراد باليمين فى قوله وإذا حلفت على يمين المحلوف عليه وهو أظهر لقوله فرأيت غيرها خيراً منها أو أن على بمعنى الباء . أى إذا حلفت بقسم أى بالله أو بصفاته .

والمعنى الإجمالى لهذه العبارة أن الشخص لو حلف مثلا على قطع أرحامه ثم ظهر له بعد ذهاب الغضب أن صلة الرحم خير فالواجب شرعاً أن يحنث ويصل رحمه ويكفر عن يمينه. وذلك أولى من التمادى فى الشر واللجاجة فى الخصومة .

وقد روى البخارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والله لأن يلج أحدكم بيمينه فى أهله آثم له عند الله من أن يعطى كفارته التى افترض الله عليه. قال شراح الحديث أن من حلف يميناً تتعلق بأهله بحيث يتضررون بعدم حنثه فيه فينبغى أن يحنث فيفعل ذلك الشىء ويكفر عن يمينه ، فإن قال لا أحنث بل أتورع عن ارتكاب الحنث خشية الإثم فهو مخطىء بهذا القول بل استمراره على عدم الحنث وإقامة الضرر لأهله أكثر إثما من الحنث وقد أجاز العلماء التكفير بالعتق والإطعام قبل الحنث لأنه تقدم أحد السببين وهو اليمين . وقد ورد فى رواية أخرى : وإذا حلفت على يمين

فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك ثم ائت الذى هو خير . ومناسبة هذه الجملة لما قبلها أن الرجل قد يدعى إلى الولاية فيمتنع عنها ويحلف على عدم قبولها . ثم لا يوجد كفء غيره لها فتتعين عليه ويرى حينئذ أن القبول خير من الرفض فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لا تجعل يمينك حاجزاً بينك وبين الخير يشير إلى ذلك قول الله تعالى فى سورة البقرة ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم . كما سبق أن بينا .

قال صاحب الفتح فى ربط الجملتين إن الأولى تفيد أنه ربما أعطى الإمارة من غير مسألة ، فقد لا يكون له فيها أرب فيمتنع فيلزم من قبل الحاكم فيحلف على عدم تولى الولاية فأمر أن ينظر فيما هو خير ثم يفعل الذى هو أولى فإن كان فى الجانب الذى حلف على تركه فيحنث ويكفر . واستنبط العلماء أن الحنث فى اليمين إذا كان خيراً أرجح من التمادى كما سبق واستنبطوا أيضاً أن تعمد الحنث فى مثل ذلك يكون طاعة لا معصية . واختلف العلماء فى جواز الكفارة قبل الحنث فأجاز بعضهم ذلك مطلقاً ، ونسبه ابن المنذر إلى ربيعة والأوزاعى ومالك والليث وسائر فقهاء الأمصار غير أهل الرأى . إلا أن الشافعى استثنى الصيام فقال لا يجزىء إلا بعد الحنث . وقال أصحاب الرأى لا يجزىء الكفارة قبل الحنث ورأى الجمهور أولى وأقرب لظاهر الأحاديث .

وقد ظهر لك من سياق الحديث أنه لا بد من التكفير ، وعلى هذا المذهب الجمهور . وقد شذ عن هذا الرأى يحى بن عبيد الله فروى عن أبيه عن أبى هريرة رفعه من حلف فرأى غيرها خيراً منها فليدعها وليأت الذى هو خير فإن كفارتها تركها ، ولكن أبا داود أشار إلى ضعف هذه الرواية . وقال الأحاديث كلها فليكفر عن يمينه إلا شيئاً لا يعبأ به كأنه يشير إلى حديث يحى ويحى ضعيف جداً [illegible]

واعلم أن الله تعالى ذكر كفارة اليمين فى سورة المائدة فقال: لا يؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا آيمانكم . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون . آية ٨٩ .

اللغة والإعراب والأسرار الصناعية

لا ناهية والفاء فى قوله فإنك تعليلية ، ولما كان المسند إليه واحداً فى قوله أعطيتها وحلفت كان المقام للوصل ، وكذلك الوصل بين فأت وكفر لأن كلا منهما إنشائية ؛ وقوله على يمين ، إما أن على بمعنى الباء أو المراد باليمين المحلوف عليه لوجود الملابسة بينهما والإمارة بكسر الهمزة . ويقال لها الأمرة هى الولاية . قال فى الصحاح أمره بفتح الميم كثره ، ومن قول الرسول صلى الله عليه وسلم خير المال مهرة مأمورة ، أى كثيرة النتاج وآمره كثره وأمره تأميراً جعله أميراً ومنه قوله تعالى : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرنا تدميراً من سورة الإسراء قرىء أمرنا بالتشديد وتأمر عليهم تسلط فالمادة تدور على الكثرة والتسلط لأن الولاية لا تخلو منهما .

أما الإمر بالكسر فهو الأمر العظيم الشنيع ، وقيل العجب . ومنه قوله تعالى لقد جئت شيئاً إمراً بكسر الهمزة والأمر بالفتح ضد النهى ، وأولو الأمر الرؤساء والعلماء وسؤال الإمارة طلبهما يقال سأله الشيء وسأله عن الشيء سؤالا ومسئلة ، وقوله تعالى سأل سائل بعذاب واقع أى عن عذاب واقع فالباء بمعنى عن ، وقوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون أى يسأل بعضهم بعضاً . ويقال رجل سؤله بوزن همزة ، أى كثير السؤال قال فى النهاية لابن الأثير فى غريب الحديث السائل الطالب ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم للسائل حق وإن جاء على فرس . واليمين فى

الأصل اليد اليمنى وسمى بها القسم بفتح السين لأنهم كانوا يتصافحون باليمين عند القسم فسمى بها لمقارنته لها . والتكفير فى الأصل التغطية لأن مادة كفر تدور حول الستر ، ولذلك سمى الجاحد كافراً لأنه أخفى الإيمان وستر النعمة ولم يشكرها . والمراد بالتكفير عن اليمين أداء ما وجب بالحنث فيها من عتق أو إطعام أو كسوة وإلا فصيام حسب ما عرفت فى الآية السابقة.

الشبهة الواردة على الحديث

يقول قائل : إذا كان طلب الولاية مانعاً من عون الله تعالى فكيف يطلبها نبى الله يوسف بقوله للملك : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم آية ٥٥ من سورة يوسف أجيب بأنه تعين عليه إقامة العدل وعلم أنه لا كفء غيره لتلك الولاية سيما ما يطلب فى السنين السبع الخصبه والسنين السبع الشداد . أو أن كراهة طلب الولاية إنما هو بالنسبة للرعية أما بالنسبة للأنبياء فلا كراهة لأنهم يقدرون على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة سيما فى زمن الجور والكفر كزمن يوسف .

سند الحديث والحكم عليه

روى البخارى قال حدثنى محمد بن عبد الله حدثنا عثمان بن عمر بن فارس أخبرنا ابن عون عن الحسن عن عبد الرحمن بن سمره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث . وهو صحيح الإسناد ورجاله ثقات ضابطون ، وهو فى أعلى درجات القبول لأنه متفق عليه بين البخارى ومسلم . وإذا أردت أحاديث من هذا الصنف فقد كفاك مؤدنة البحث شيخنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى فى كتابه زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم فجزاه الله عن المسلمين وعنا خير الجزاء .

أما سند الحديث فى صحيح مسلم فهو حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا جرير بن حازم حدثنا الحسن حدثنا عبد الرحمن بن سمره قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الحديث . وقد علمت صحته .

أغراض الحديث

أولاً : النهى عن طلب الإمارة والسعى لها ، أو التطلع والاستشراف لمظاهرها .

ثانياً : تحذير الأمة عن التقاتل على المناصب والرياسات .

ثالثاً : بيان ما فى الولاية من أخطار ومسئوليات جسام فى الدنيا والآخرة .

رابعاً : تفويض الأمر لاختيار الله تعالى .

خامساً : الرجوع إلى ما فيه الخير دائماً وعدم التعصب للشر وكراهة التمادى فيه .

سادساً : تربية الأمة على الفضائل وغرس الأخلاق الفاضلة فى أفرادها .

نبذة عن الراوى : هو أبو سعيد عبد الرحمن بن سمره بفتح السين وضم الميم ابن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى المكى أسلم يوم الفتح وصحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان اسمه عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن ، وقد سكن البصرة فى آخر أيامه وغزا خراسان فى زمن عثمان بن عفان الخليفة الثالث رضى الله عنه . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم بضعة عشر حديثاً ، وتوفى سنة إحدى وخمسين بالبصرة وكانت له صفة يحرص عليها هى رفع الأذى عن طريق المسلمين فجزاه الله خير الجزاء .

تنبيه : هذا النهى عن سؤال الإمارة وإن كان موجها لعبد الرحمن بن سمرة إلا أنه عام للمسلمين جميعاً فينبغى لهم أن لا يتطلعوا إلى الرئاسات فإن عاقبتها خطيرة ومسئولياتها جسيمة كما سبق أن عرفت .

الآيات والآثار التي تؤيد هذا الحديث

قال الله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين من سورة القصص . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال اليتيم رواه مسلم .

وعن أبي ذر رضي الله عنه أيضاً قال قلت يا رسول الله ألا تستعملني فضرب بيده على منكبي ثم قال يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها رواه مسلم.

وروى البخاري بسنده الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة .

فائدة : إذا طلب الإنسان الولاية أو تحتم عليه قبولها بأن لم يوجد كفء غيره ، كما قدمنا فليحرص أول ما يحرص على اتخاذ بطانة خيره تحبه المصلحة العامة وتكره الفساد وترشد إلى الخير فقد ثبت عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصـــوم من عصم الله . رواه البخاري .

وتروى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال .

إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل الله له وزير صدق إن نسي ذكره ،

وإن ذكر أعانه وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكره وإن ذكر لم يعنه رواه أبو داود بإسناد حسن .

كذلك يحرص على عدم اتخاذ الحجاب فقد روى أبو داود والترمذى عن أبى مريم الأزدى رضى الله عنه أنه قال لمعاوية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة فجعل معاوية رجلا على حوائج الناس .

الحديث الرابع

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

بادروا بالأعمال سبعا : هل تنتظرون إلا فقراً منسيا أو غنى مطغيا أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفندا أو موتا مجهزاً أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر . رواه الترمذى وقال حديث حسن .

المعنى الإجمالى

يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أمته بأن تبادر إلى العمل الصالح وتستبق إليه خوفاً من آفات الحياة التى تصدعن طاعة الله وتصرف النفس عن العبادة وتشغلها عن ذكر الله ثم سرد رسول الله بعض الآفات كالفقر الذى ينسى صاحبه من شدة الهم فى طلب العيش والبحث عن أسبابه والتفكير فى عواقبه والألم الناتج عنه فى نفسه وولده وأهله وزوجته وكالغنى المؤدى إلى الطغيان والتكبر والترف والتنعم وفساد الخلق والنفس وظلم العباد والتسلط عليهم ، وما إلى ذلك من آفات الغنى وكالمرض الذى يضعف البدن ويعطل الجوارح ويفسد الأعضاء ويمنعها من أداء الخير وتنفيذ الطاعة ويصرف الإنسان إلى مدافعة المرض والبحث عن علاجه والهم القاتل من أجله والأوهام الكثيرة التى تنشأ عنه . وكالهرم المؤدى إلى الخرف وضياع العقل وعبث الجوارح وهذيان اللسان وأعظم الآفات الموت السريع المفاجىء الذى يقطع الآمال ويختم الأعمال كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم نبه إلى آفة دون القيامة ألا وهى الدجال الكذاب الذى يأتى بالفتنة ويغرى بالمال على الشرك وأن خلاص المرء من كل هذه الآفات فهناك الساعة وهى أشد موقفاً وأعظم هولا نسأل الله النجاة والتوفيق .

المعنى التفصيلى

يقول النبي صلى الله عليه وسلم بادروا أى سابقوا وأسرعوا بأداء الأعمال الصالحة والقيام بتكاليف الدين والإكثار من نوافله قبل أن تنزل بكم مصائب الدنيا وآفات الحياة فيحال بينكم وبين العمل الذى به نجاتكم فى الآخرة وليكن أمامكم هذا الموقف الأخير بين يدى الله حيث تسألون عن الفتيل والقطمير والكبير والصغير . قال الله تعالى : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين من سورة الأنبياء .

وقال تعالى من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً من سورة النساء . وقد روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه والرشح العرق . وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة متفق عليه .

والمبادرة مفاعلة ولكن ليست على حقيقتها من جانبين كما فى قولك شاركت وقاتلت بل هى هنا من جانب واحد هو المكلف مثل سافر وخادع . وقال بعض العلماء لا يمكن مراعاة الجانبين فى المبادرة إلا إذا لاحظنا أن الإنسان لا يعمل عملا صالحاً إلا بعد محاربة فى جهات متعدده فهو يحارب نفسه وشيطانه وأعراض الدنيا فكأن هذه المعوقات فى سباق معه تبادر من جانبها إلى صرفه عن الطاعة وهو من جانبه يبادر إلى العمل الصالح فيسبقها ويتغلب عليها ، ولذلك ورد أن الشخص إذا هم بخير أو خطر على باله عمل صالح فليسارع إلى فعله قبل ان يتنبه له الشيطان

فيسول له الترك والمعصية وقبل أن تطغى عليه شهوات المال أو شهوات النفس أو حب الولد فيكسل عن الطاعة أو يبخل عن الإنفاق والبذل .

ولم يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله سبعا الحصر وإنما أراد به التمثيل فهناك عقبات تحول بين المرء والعبادة كالخوف الشديد والإرهاب والاضطهاد والسجن والأفكار السيئة . والشبهات الزائفة وما شابه ذلك من المعوقات والمثبطات وقوله صلى الله عليه وسلم هل تنتظرون أى ما ترقبون وتتوقعون فى حياتكم إلا فقراً منسيا يضيع من الإنسان حفظه وذاكرته والفقر مشغله لأن أهم شىء فى الحياة الدنيا هو حفظ النفس والقوت سبب ذلك . وقد كان الإمام الشافعى رحمه الله يقول : لو احتجت بقلة ما فهمت مسألة . والاستفهام هنا بمعنى النفى وليس على حقيقته وهى طلب الفهم لمجهول . وإنما هو مجاز عن النفى كذلك إسناد الإنساء إلى الفقر مجازى لأن الفقر سبب النسيان . فهو من باب المجاز العقلى وإسناد الشىء إلى غير ما هو له لعلاقة وقرينة .

وأما قوله أو غنى مطغيا فالمراد بالغنى غنى المال لأنه الذى يعرض له الذم شرعاً إذا أدى إلى التكبر والترف المهلك والطغيان والظلم ، أما غنى النفس فممدوح لأنه يبعث على الرضا ومعنى كونه مطغيا أنه يحمل صاحبه على مجاوزة الحد بارتكاب المعاصى وترك أوامر الله وإلهاء النفس عن واجباتها الدينية والعادة والشأن أن حب المال إذا تمكن من النفس أرداها والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب رواه البخارى فى كتاب الرقاق ويقول تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصه تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش . رواه البخارى فى كتاب الجهاد .

وقد صرح القرآن بما يشير إليه الحديث فقال : كلا إن الإنسان ليطغى

أن رآه أستغنى . اللهم إلا من عصم الله وقليل ما هم ترى هذا القليل يسارع فى مرضات الله فيبذل المال يميناً وشمالا فى طاعة الله وابتغاء رضوانه فهؤلاء موضع الغبطة ومناط القدوة وفيهم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا حسد إلا فى إثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس . رواه البخارى فى كتاب العلم فليس كل الغنى مطغيا ، ولذا احتاج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى وصفه بذلك لأنه الذى يصد عن العمل . أما المال الذى يبذله صاحبه فى الخير فالرسول يقول فى شأنه نعم المال الصالح للرجل الصالح . أما من أحب الدنيا وعبد المال وكان همه الكنز فذلك الذى يطغيه المال والغنى وفتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ولذلك قال الصحابة رضى الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، ولذلك كان على رضى الله عنه يقول يا صفراء غرى غيرى ويا دنيا إليك عنى فقد طلقتك ثلاثا لا رجعة بعدها .

وقوله (أو مرضا مفسدا) متلفا لأجزاء البدن كلها أو بعضها بحيث لا تستطيع أداء وظيفتها التى خلقت لها بأن يصبح اللسان مثلا وقد حيل بينه وبين النطق فلا يستطيع ذكر الله وأن يصبح القلب ضعيفاً فلا يقوى على العبادة وأن يصبح القدم يابساً فلا يستطيع الذهاب إلى المسجد وهكذا فالواجب على العاقل أن يأخذ من صحته لمرضه ومن عافيته لسقمه كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك أخرجه الحاكم من حديث ابن عباس مرفوعا وأخرجه ابن المبارك فى الزهد بسند صحيح .

وقوله صلى الله عليه وسلم (أو هرما مفندا) الهرم كبر السن أى عجزا خلقيا بسبب توالى السنين والرد إلى أرذل العمر وذلك يوقع الإنسان فى الخرف وضعف الرأى ويعرضه للوم والتفنيد ، وفى هذه الحالة لا يستطيع

أداء عبادته على وجهها الصحيح وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر . وقد روى البخارى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : تعوذوا بكلمات كان النبى صلى الله عليه وسلم يتعوذ بهن اللهم إنى أعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من البخل وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر.

وقوله (أو موتا مجهزاً) سريعاً بدون مقدمات كمن يموت تحت هدم أو بغرق أو نحو ذلك من كل موت فجائى وفى ذلك خطر لأنه يمنع الإنسان من التوبة والرجوع إلى الله ولذلك استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من موت الفجاءة لأنه لا يجعل للإنسان فرصة للاستغفار والتوبة والوصية ورد الودائع فإن كان العبد محسنا فى سابق حياته مبادراً بالأعمال الصالحة نفعه ذلك وإن كان مهملا مسوفا للتوبة كان ذلك الموت السريع وبالا عليه ولذلك يقال فى الأثر : موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر .

(أو الدجال) أى الكذاب الذى يلبس الحق بالباطل والمراد به المسيح الدجال وهو من علامات الساعة . وقد ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة أكثر من مرة روى مسلم فى صحيحه أن الرسول ذكر يوما المسيح الدجال فقال : إن الله تبارك وتعالى ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية .

وقد أخرج البخارى عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال قال ولا الطاعون إن شاء الله .

والدجال رجل من بنى آدم يخرج إلى الناس فيدعى الصلاح ويدعو إلى الدين فتجتمع عليه الأمة فيدعو إلى استخلافه فيعطى الخلافة ثم يضل فيدعى النبوة ثم يضل أكثر فيدعى الألوهية . ويفتن كثيراً من الناس لأنه صاحب ثروة وطول وصولة وأكثر أتباعه من اليهود لأنه يرغبهم فى المال

وهم أشد الناس حرصاً عليه ، وقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم أمته منه
ومما قال فى شأنه أيضاً . تعلمون أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت .
وفى هذا تنبيه على أن دعوى الدجال الربوبية كذب لأن الله لا يرى إلا
فى الآخرة والدجال يدعى الألوهية ، ومع ذلك هو بين النـاس يرونه
ويسمعون منه .

وقد حدث الرسول أصحابه فى شأنه وذكر لهم من صفاته حتى ظنوا
خروجه فى عصرهم وهو من علامات الساعة وسيقتله عيسى بن مريم بعد
نزوله ، وكان الرسول يستعيذ بالله منه فى آخر صلاته ، وقد ثبت حديثه
فى البخارى ومسلم فلا مجال لإنكاره . وقد وصف الرسول صلى الله عليه
وسلم فتنته بأنها شر فتنة آتية قبل يوم القيامة .

ويرى بعض العلماء أنه كان موجوداً فى العهد النبوى وأنه محبوس فى
بعض الجزائر وأن تميما الدارى حدث أنه رآه وكلمه . ومن أراد المزيد فى
هذا الشأن فليطلع على قصة الجساسه فى صحيح مسلم فى كتاب الفتن .

وقد أشار القرآن إليه فى قوله تعالى : يوم يأتى بعض آيات ربك
لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل فقد أخرج الترمذى وصححه
عن أبى هريرة مرفوعا قال :

ثلاثة إذا خرجن لم ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل الدجال
والدابة وطلوع الشمس من مغربها . وقد وقع فى تفسير البغوى أن الدجال
هو المراد بقول الله تعالى لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس
وجعل المراد بالناس هو الدجال من إطلاق الكل على البعض وعلى كل
تقدير فهو لا يعدو أن يكون فتنة واختباراً لعقيدة المسلمين فمن كان متمكنا
من دينه ثابتا فى عقيدته لا يضره الدجال ولا صولته ومن كان منافقا أو
ضعيفا زلت قدمه وتبعه . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم يجىء
الدجال فترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومنافق .

ولا يدخل المدينة رعب المسيح لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان.

(أو الساعة) المراد بها يوم القيامة وسميت ساعة لأن الله قال فى شأنها وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب أو لأنها آخر ساعات الدنيا وأول ساعات الآخرة وعلى كل فلا يراد بها الساعة الزمنية المعروفة لأننا إن أردنا وقت حدوثها فهى كلمح البصر . وإن أردنا جميع وقتها فهى كما قال القرآن فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وللساعة أسماء كثيرة منها الحاقة والواقعة والصاخة والطامة الكبرى ويوم الحساب ويوم العرض ويوم الحشر والنشور ويوم يعض الظالم على يديه ويوم يكون الناس كالفراش المبثوث والعهن المنفوش يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . وغير ذلك مما يدل على هولها وشدتها وكثرة الفضائح فيها حيث ترى الذين كذبوا على الله فى أشد خزى وأبشع منظر . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (فالساعة أدهى وأمر) أى أشد داهية والداهية الأمر الشديد والنازلة العظيمه التى لا يهتدى لكشفها وهى أيضاً أشد مرارة وألما مما ينزل من مصائب الدنيا لأن الله يغضب فيها غضباً لم يغضب مثله كما فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يخطب وهو يقول : إنكم ملاقو الله مشاة حفاة عراة غرلا . وفى رواية عن عائشة لمسلم أيضاً قلت يا رسول الله يبعث الرجال والنساء عراة جميعا ينظر بعضهم إلى بعض فقال يا عائشة الامر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض والغرل بضم الغين وإسكان الراء معناه غير مختونين جمع أغرل بتقديم الغين على الراء وهو الذى لم تقطع جلدته فى الختان ويقال له الأغلف والأقلف .

وخلاصة هذه النصيحة النبوية أن الشخص الصحيح فى بدنه الذى يملك ما يقتاته يجب عليه المبادرة إلى العمل الصالح لأن هناك عقبات كثيرة تعترض الإنسان فى حياته فإن خلص من واحدة وقع فى أخرى فليأخذ الإنسان

من حياته لموته ومن صحته لمرضه ومن أمنه لخوفه ومن غناه لفقره. وهكذا جزى الله نبينا عنا خير الجزاء فكان خير ناصح وأعظم شفيق .

اللغويات

بادروا أى سابقوا وأسرعوا يقال بادر العاطش إلى الحد أسرع إليه قال فى الصحاح بدر إلى الشىء وبادر إليه أسرع وبابه دخل وتبادر القوم تسارعوا . والبادرة من الكلام الذى يسبق من الإنسان عند الغضب ومنه قول النابغة :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

قال فى القاموس بادره مبادرة وبداراً وابتدره عاجله ويقال البادرة لشباة السيف وتطلق البادرة على أول ما يتفطر من النبات وتطلق على اللحمة بين المنكب والعنق . ومادة مطغيا تدور حول البغى والزيادة ومجاوزة الحدود من طغى إذا جاوز الحد وكل مجاوز حده فى العصيان طاغ ويطلق الطاغوت على الشيطان وعلى الصنم وعلى المتكبر الباغى ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم إن للعلم طغيانا كطغيان المال يقال طغوت وطغيت ويقال أطغاه المال أى جعله طاغيا . قال فى القاموس طغى كرضى وطغا يطغو والطاغوت اللات والعزى وكل رأس ضلالة . وقال شارح القاموس طغا كسعى أيضاً .

(أو مرضا مفسداً) يقال فسد الشىء وفسد بفتح السين وضمها وأفسده فهو لازم ومتعد والمفسدة ضد المصلحة والمضارع منه مضموم السين ومكسورها وتفاسدوا إذا قطعوا أرحامهم .

(أو هرما) الهرم بفتح الهاء والراء كبر السن يقال هرم الرجل من باب طرب فهو هرم قال فى القاموس الهرم أقصى الكبر . والهرم بسكون الراء نبت .

وقوله (مفندا) الفند بفتحتين ضعف الرأى من الكبر وفعله أفند

والتفنيد اللوم وتضعيف الرأى . ومنه قوله تعالى حكاية عن يعقوب : إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . وقد وصفت أم معبد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولها لا عابس ولا مفند قال فى القاموس الفند بالتحريك الخرف وإنكار العقل لهرم أو مرض ولا تقل عجوز مفنده لأنها لم تكن ذات رأى أبداً وفنده تفنيدا كذبه وعجزه وخطأ رأيه كأفنده .

وقوله (مجهزاً) أى سريعاً يقال أجهز على الجريح إذا أسرع قتله وتممه قال فى القاموس جهز على الجريح كمنع وأجهز وموت مجهز سريع . واجتمع قوم يخطبون فى الصلح بين حيين فى دم كى يرضوا بالدية فبينما هم كذلك قالت جهيزة ظفر بالقاتل ولى للمقتول فقتله فقالوا قطعت جهيزة قول كل خطيب .

(والدجال) مأخوذ من الدجل بسكون الجيم ويقال دجل بالتشديد إذا لبس وموّه والدجال فعال من أبنية المبالغة أى أكثر من الكذب والتلبيس .

وأما إعراب قوله فقراً فهو منصوب على الاستثناء من أعم المفاعيل أى شيئاً من الأشياء المترقبة وقوله فشر خبر لمبتدأ محذوف تقديره فهو شر .

أغراض الحديث

أولا الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة خوف ضياع العمر وحلول العقاب .

ثانياً : التخويف والإنذار بمصائب الدنيا وهول الأخرى .

ثالثاً : وجوب مراقبة الله دائماً خوف نزول الموت فى حالة لهو ونسيان .

نبذة عن حياة الراوى

هو أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر وكنى بذلك لهرة كانت تلوذ به فيحملها فى كمه وهو دوسى يمانى فى نسبة إلى دوس بن عدنان من قبيلة الأزد

وهى من قبائل العرب المشهورة أسلم أبو هريرة فى السنة السابعة من الهجرة ولحق بالنبى صلى الله عليه وسلم وهاجر إليه فلقيه فى خيبر محاصراً لليهود ولزم رسول الله وأخذ عنه الشريعة ، وكان ممتازاً فى حفظه قوياً فى ذاكرته حتى كان من أكثر الصحابة حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد مكث بوافر صحته وعقله مدة طويلة بعد وفاة رسول الله حتى احتاج الناس إلى علمه فأخذ كثير من التابعين عنه الحديث وروى له الأئمة الحفاظ حتى إن الإمام أحمد فى مسنده أحصى له قريبا من أربعة آلاف حديث وله فى الصحيحين ما يزيد على ستمائة حديث وتوفى سنة ٥٨ هـ .

وإن أردت حياة مفصلة لأبى هريرة فعليك بكتاب الحديث والمحدثون للأستاذ أبى زهو أو الإصابة فى تاريخ الصحابة ، وإن أردت كتابا حديثا جداً عن أبى هريرة فقد أخرج الأستاذ محمد عجاج الخطيب كتابا عن أبى هريرة ضمن سلسلة أعلام العرب التى تصدر كل شهر . وقد أجاد فى رد الشبه التى أوردها المستشرقون وأمثالهم على أبى هريرة .

الآيات التى تشير إلى الحديث وتؤيده

قال تعالى : وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين من سورة آل عمران . وقال تعالى فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً من سورة البقرة . وقال تعالى : سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله من سورة الحديد .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافراً ويمسى مؤمنا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا . رواه مسلم عن أبى هريرة .

وعن عقبة بن الحارث رضى الله عنه قال صليت وراء النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة صلاة العصر فسلم ثم قام مسرعا فتخطى رقاب الناس إلى بعض

حجر نسائه ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته قال ذكرت شيئا من تبر عندنا فكرهت أن يحبسنى فأمرت بقسمته رواه البخارى وفى رواية كنت خلفت فى البيت تبرا من الصدقه فكرهت أن أبيته والتبر قطع من الذهب أو الفضة . وعن جابر رضى الله عنه قال قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد أرأيت إن قتلت فأين أنا قال فى الجنة فالقى تمرات كن فى يده . ثم قاتل حتى قتل متفق عليه .

وقال أبو هريرة جاء رجل إلى النبي فقال يارسول الله أى الصدقة أعظم أجرا قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقـــوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم : احفظ الله تجده تجاهك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة . واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك . واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً ، والله الموفق .

(الحديث الخامس)

عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ـ

إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ومنعا وهات ووأد البنات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال . متفق عليه .

المعنى الإجمالى

بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أمته أن الله حرم عليهم أشياء وذلك التحريم لحكمة بالغة فالله الحكيم العليم لايحرم على عباده إلا مايضرهم ولا ينفعهم كما قال تعالى ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ولو أمعنت النظر فى كل ماحرم الإسلام لوجدته مضرا إما بالعقل وإما بالنفس وإما بالعرض وإما بالمال وإما بالدين . فكل شىء حرمه الله فهو عديم الفائده وكل شىء أحله فهو نافع لأنه الخالق والعالم بطبيعة من خلق والعارف بما يسعدهم وما يشقيهم . وكفى بالمرء كفرا أن يقول إن ما أحله الله أو ماحرم أو ماشرعه لعباده لايلائم امة أو عصرا . فالله يقول فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما من سورة النساء .

حرم الله على عباده عقوق الوالدين وعدم طاعتهما وقطع أرحامهما كما حرم عليهم أن يمنعوا عن الناس حقوقهم ويطلبوا ماليس لهم بحق كما نهاهم عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن القتل المحرم وأد البنات وقتلهن أحياء أو دفنهن أحياء . كما حرم الله الغيبة وانتهاك أعراض الناس وفضح أستارهم وإفساد مابينهم . ونهاهم عن كثرة السؤال مع عدم الاحتياج ونهاهم عن إضاعة المال الذى جعله الله للناس قياما لمصالحهم وحفظا لنفوسهم وكل ماذكر من المحرمات لايخفى على العاقل وجه تحريمه فوجب إذا الامتثال لما شرع الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه حتى لو خفيت الحكمة

على عبد وجب أن يعتقد أن الله حكيم فيما شرع وإن لم يستطع الوصول إلى أسرار التشريع فذلك مقتضى الإيمان .

المعنى التفصيلى

(إن الله حرم عليكم أكد الرسول صلى الله عليه وسلم الجملة بإن للاهتمام بالأمر ولكثرة مخالفة الناس للحكم وعبر بلفظ الجلالة لتربية المهابة وليحمل السامع على الامتثال لأن عنوان الألوهية يحمل معانى الرهبة والبطش والعزة والقدرة ، فإذا تمثل العبد هذه المعانى فى قلبه حمله ذلك على المسارعة إلى الامتثال . وعقوق الوالدين عدم البر بهما وعدم طاعتهما وهو من كبائر الذنوب التى يعجل الله عذابها فى الدنيا قبل الآخرة روى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى بكرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن ذنب أحرى أن يعجل الله بصاحبه العقوبة مع مايؤخر له من بغى أو قطيعة رحم .

ولقد أوصى الله بالوالدين إحسانا حتى ولو كانا كافرين لقوله تعالى وصاحبهما فى الدنيا معروفا الآية من سورة لقمان . وقد ثبت عن أسماء أنها قالت قدمت على أمى وهى راغبة فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلتها فقال صلى أمك ومعنى راغبة أى عن الإسلام فهى مشركة كما صرحت بعض الروايات المتفق عليها والله يقول ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير . فانظر إلى تعبير القرآن حيث وجه الوصية لكل إنسان وأوصاه بوالديه ولم يقيدهما بوصف ليشمل كل الأحوال ثم علل الوصية بأنهما والداه وأصل وجوده وسبب كل خير يصل إليه ثم علل ذلك بأن الأم تحملت آلاما وأهوالا فى سبيل راحته وحملته وأرضعته ثم أنذره وهدده بأن المصير إليه والوقوف الأخير بين يديه . كل هذا عناية بأمر الوالدين وتحذير من عقوقهما .

وإنما خص هنا فى الحديث التحريم بعقوق الأمهات مع أن عقوق الآباء كذلك لأن الاستخفاف بهن أكثر لضعفهن وعجزهن وشفقتهن ، وللاشارة إلى أن بر الأم مقدم على بر الأب . ويؤيد ذلك أن رجلا جاء للرسول صلى الله عليه وسلم فقال : من أحق الناس بحسن صحابتى قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال ثم أبوك رواه مسلم فى كتاب البر وذلك يدل على عظم الاهتمام بحق الأمهات حيث تحملن آلام الحمل والولادة والارضاع مع الصبر وتحمل الهموم والمشاق فى ذلك . ولا يقف بر الوالدين على فترة حياتهما بل أوصى النبى صلى الله عليه وسلم ببرهما بعد وفاتهما وذلك يكون بالدعاء لهما والتصدق باسمهما وانفاذ وصيتهما وحب من كانا يحبان . يدل على ذلك ما أخرجه أبو داود عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى أن رجلا قال يارسول الله : هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما فقال نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما واكرام صديقهما وعن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى . أخرجه مسلم وقد أشار القرآن إلى الإحسان إلى الوالدين فى غير ماموضع فقال وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا الآيات من سورة الاسراء . وعن معاوية بن جاهمة أن أباه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك فقال هل لك من أم قال نعم قال فالزمها فان الجنة عند رجليها . أخرجه النسائى .

وفى بر الوالدين اعتراف بالجميل ونوع مكافأة لحسن الصنيع . وفيه أيضا رباط قوى بين أفراد الأسره وهو بالتالى تقوية لسائر الأمة لأنها

تكون من أسر ولهذا قرنه الله بتوحيده فى غير آية كما فى قوله تعالى : واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، الآية فى سورة النساء

وقوله صلى الله عليه وسلم (ومنعا وهات) أى حرم الله عليكم أيضا منع مايجب اداؤه من الحقوق سواء كانت حقوقا للعباد أو حقوقا لله خالصة وكذلك حرم عليكم طلب ماليس لكم حق فيه . ومنه الاستكثار من حق الغير بغير حق شرعى ومنه طلب وظيفة من حق غيره قال الحافظ ابن حجر حاصله النهى عن منع ما أمر باعطائه وطلب مالا يستحق وفى ذلك إشارة إلى وجوب اعطاء الحقوق لأصحابها وكل أمة تسير على هذا الهدى أمة محفوظة من الانقلابات سائرة إلى الأمام . أما إذا شاع فى الأمة الاستثناءات والمحاباة لبعض الأفراد على حساب البعض الآخر فهى معرضة للدمار أو التأخر . وقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يحرصون أشد الحرص على العدالة بل على الإيثار وهضم النفس فقد كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يفرض لابن عمر أقل من أقرانه فى الديوان ويمنع نفسه من الأدم فى الطعام أيام المجاعة ولو أعطى كل فرد ماوجب عليه ولم يطلب غير حقه لاستقامت الأمور . وأما وأد البنات فهو دفنهن أحياء وهو قتل للنفس التى حرم الله ومنه قوله تعالى واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت والوأد حرام للبنات والبنين لقوله تعالى . ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا الآية من سورة الإسراء والخطء بكسر الخاء الذنب والاملاق الفقر . وإنما خص البنات بالذكر لأنه الذى كان شائعا عند العرب . وأول من وأد ابنته قيس بن عاصم التميمى وسبب ذلك أنه أغار عليه بعض أعدائه فأخذ ابنته واصطفاها العدو لنفسه زوجة ثم اصطلحا فخيرت البنت فاختارت زوجها عدو أبيها فآلى قيس على نفسه أن لا تولد له بنت إلا دفنها حية فشاع ذلك فى العرب وقلدوه وكان أهل الجاهلية فى ذلك فريقين فريق يفعله خشية الفقر وفريق يفعله خشية العار . وكان الوأد غالبا عقب الولادة مباشرة فكان الرجل إذا أحس

بقرب ولادة المرأة حفر حفيرة فان وضعت ذكرا أبقاه وأن وضعت بنتا وأدها فيها . وبعض العرب كان يصبر على البنت حتى تصير سداسية أى بنت ست سنين ثم يأخذها وقد زينتها أمها فيلقيها فى حفرة أعدها لها والقرآن يشير إلى ذلك فى قوله : وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب الا ساء مايحكمون . والهون بضم الهاء الهوان والذلة .

ومن القبائل العربية التى اشتهرت بهذه المذمة قبيلة كنده .

ويدخل فى حكم الوأد إجهاض الحامل والقاء جنينها سواء كان حملا شرعيا أم حملا من زنا . أما تحديد النسل قبل أن تستقر النطفة فى الرحم فلا حرمة فيه إذا كان ذلك لغرض شرعى أو ضرورة طبية كالمحافظة على حياة المرأة التى يضيق حوضها ويضعف قلبها عن تحمل العمليات الجراحية أو استعمال المخدر . وكثير من النساء لايلدن إلا بمشقة تبلغ الموت أو تقرب منه أو بعملية جراحية لاتؤمن عواقبها . ومن الضرورات الشرعية شيوع الفتن فى الأمة وعدم استطاعة الآب تربية أولاده على الإسلام لوجود التيارات الالحادية والفتن التى لايمكن اتقاؤها فان قيل ماحكم العزل أى القاء المنى خارج الفرج ؟ قلنا إن الحق فى هذه المسألة هو التحريم لأن فى ذلك تهييجا لشهوة المرأة ثم تركها تغلى فى دمها ولهذا عواقب كثيرة سيئة منها فساد أعصاب المرأة ومنها فساد الزوجية وكراهية الزوج وربما لجأت المرأة للزنا لإشباع شهوتها .

وقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن العزل فقال ذلكم الوأد الخفى أوتلكم الموءودة الصغرى وقد رأى بعض العلماء جوازه مستدلا بقول جابر بن عبد الله الأنصارى كنا نعزل على عهد رسول الله والقرآن ينزل .

وقد فصل بعض آخرون فقالوا العزل جائز برضا الحرة لما رواه البيهقى

عن ابن عباس قال نهى عن عزل الحرة إلا بإذنها . وروى ابن أبى شيبة أن ابن عباس كان يعزل عن أمته . وكذلك روى مثله عن ابن عمر وجواب الرسول يشعر بالمنع فإنه سئل عن العزل فقال لا عليكم أن لا تفعلوا فإن الله قدر ما هو خالق إلى يوم القيامة .

وقد استطاع الأطباء اليوم أن يظهروا حبوبا توضع فى الرحم أو تؤخذ عن طريق الفم تمنع الحيوان المنوى من التلقيح فلا مانع من تعاطى ذلك قبل الاتصال . والله أعلم .

(وكره لكم قيل وقال) أى كره لكم الاشتغال بنقل الأخبار من غير تمييز بين صحيحها وسقيمها ولا بين نافعها وضارها فينطلق لسانه بقوله قيل لى كذا وكذا . وقال فلان كذا وكذا وهو إشارة إلى كراهة كثرة الكلام لأنها غالباً تؤول إلى الخطأ وتؤدى إلى المحرم ، وقد بين الرسول لأصحابه أن حفظ اللسان باب النجاه فقد روى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله ما النجاه قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك رواه الترمذى . وقال حديث حسن .

وبعد أن أوصى الرسول معاذ بن جبل كثيراً من وصاياه قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى يا رسول الله فأخذ بلسانه وقال كف عليك هذا . قلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال ثكلتك أمك وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

واعلم أنه لا يجوز إطلاق اللسان فى خوض أعراض الناس وهتك أستارهم وليذكر الإنسان دائماً قول الله تعالى : ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد الآية من سورة ق .

وقد كان أبو بكر رضى الله عنه يعالج من نفسه كثرة الكلام فكان يضع حصاة تحت لسانه لتمنعه عن الكلام حتى يتبين الخير فيه .

قال الإمام النووى ينبغى لكل مكلف أن يحفظ لسانه من جميع الكلام إلا كلاما ظهرت فيه المصلحة ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الإمساك عنه لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ،وذلك كثير فى العادة والسلامة لا يعدلها شىء . ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت متفق عليه وهذا صريح فى أنه ينبغى أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً وهو الذى ظهرت مصلحته ومتى شك فى ظهور المصلحة فلا يتكلم اهـ .

(وكثرة السؤال) يحتمل أن يراد به السؤال فى العلوم وهذا ينهى عنه إذا كان المقصود به امتحان العلماء والترفع والتفاخر بالعلم ، أو إذا كان السؤال عن ألغاز ومعميات كما يفعله بعض الجهلة . وقد قرأت فى بعض كتب الفقه بعض مسائل يقصد منها الألغاز فترى بعض مدعى العلم يأخذون هذه المسائل ويمتحنون بها العلماء مثال هذه المسائل قولهم ما رأيك فى رجل نوى ولا صلى وصلى ولا نوى ؟ وجواب هذه المسألة أن الرجل إذا لم يدرك من صلاة الجمعة إلا التشهد فإنه ينوى الجمعة . ولكن لا يصليها وإنما يصلى أربع ركعات بعد سلام الإمام ظهراً فقد صلى الظهر ولم ينوه ونوى الجمعة ولم يصلها .

ومن السؤال المكروه سؤال الناس عن أمور فرضية غير واقعة والأولى أن لا يسأل الإنسان إلا عن حادث وقع له بالفعل ، أو لغيره لا يعرف حكم الله فيه ولذلك كان كثير من السلف إذا سئل عن أمر يقول هل وقع فإن قيل نعم أجاب وإلا فلا . وقد ابتلى الله رجلا من الصحابة يسمى عويمرا العجلانى سأل الرسول قبل أن تقع له الحادثة فقال يا رسول الله ماذا أفعل لو وجدت على امرأتى رجلا أفأقتله فأقتل به أم أنطلق إلى شهود أربعة حتى يتم شهوته وينطلق فكره الرسول صلى الله عليه وسلم مسألته قبل وقوعها وابتلى الله الرجل بما سأل عنه فذهب إلى بيته فوجد على امرأته رجلا ، ثم نزلت آية اللعان . وهى قوله تعالى : والذين يرمون

أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين الآيات من سورة النور .

فلاعن الرجل امرأته على رءوس الأشهاد وفرق الرسول بينهما .

وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن كثرة الأسئلة لأنها تؤدى إلى كثرة تكاليفهم وإن أعظم الناس جرما من سأل سؤالا فحرم الله شيئا على الناس من أجل مسألته رواه مسلم. والله يقول : يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم عفا الله عنها والله غفور حليم قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين الآيات من سورة المائدة .

أما السؤال على وجه المعرفة والتعلم مما تمس الحاجة إليه فهو مشروع . وقد كان الرجل يأتى من البادية فيسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن أحكام دينه فيجيبه الرسول ويمدحه على حرصه وسؤاله عن دينه وكان معظم الصحابة يحب هذا النوع من الأعراب خوفا من الوقوع فى السؤال المحرم .

ويحتمل أن المراد بكثرة السؤال الإلحاح فى طلب الصدقة وهو محرم أيضاً ، وقد مدح الله قوما فقراء فقال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا . وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة من أهل الجنة : ذو سلطان مقسط ورجل رحيم القلب لكل ذى قربى ومسلم ، والثالث عفيف متعفف ذو عيال . واعلم أن اتخاذ السؤال حرفة يتكسب بها منهى عنه شرعاً ما دام قادراً على العمل بيده والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه . رواه البخارى .

وكذلك السؤال مع الغنى محرم لما فيه من ذلة المرء وبذل ماء الوجه

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : من سأل الناس تكثراً فإنما يستكثر من جمر جهنم رواه مسلم .

وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس فى وجهه مزعة لحم متفق عليه . والمزعة بضم الميم القطعه فلا يجوز سؤال الصدقة إلا عن ضرورة ملحه وبقدر ما يحفظ على الإنسان حياته .

(وإضاعة المال) بإنفاقه فى غير وجوهه المشروعة الدينية والدنيوية . وقد نهى الإسلام عن إضاعة المال لأن الله جعله قياما لمصالح العباد ، وفى تبذيره تفويت لتلك المصالح والله يقول فى سورة النساء ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما . واعلم أن الإنفاق فى المعصية حرام مطلقاً . والإنفاق فى الطاعات ، وفى سبيل الله وإغاثة الملهوف وقرى الضيف مطلوب شرعا ما لم يفوت حقا آخر أهم منه .

وأما الإنفاق فى الملاذ المباحة فجائز إن لم يسرف قال الله تعالى والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . وفى النهى عن إضاعة المال حفظ لثروة الأمة من الضياع وقد رأينا بأعيننا كيف كانت نتيجة الإسراف من الملوك والبغاه وكيف انتقلت الثروة من البلاد إلى يد الأجانب وأصبح المسلمون عالة يتكففون الأمم وأصبح العدو يتحكم فى مصائر المسلمين وفى اقتصادياتهم وكل ذلك من عدم الوقوف عند هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الإعراب واللغة

العقوق مأخوذ من العق وهو الشق والقطع لأنه قطع الرحم وقطع البر عن أهله يقال عق والده يعقه بضم العين عقوقا فهو عاق إذا آذاه وعصاه ولم يبره ، أما العقيقة فهى الشاة التى تذبح عن المولود يوم سابعه وسميت بذلك لأنه يشق حلقها عند ذبحها . ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

الغلام مرتهن بعقيقته قال فى النهاية لابن الأثير العقيقة تطلق على الشعر الذى يخرج على رأس المولود من بطن أمه لأنه يحلق غالباً . والعقيق خرز أحمر من اليمن .

والأمهات جمع أمه وهى خاصة بالعقلاء بخلاف الأم فإنه أعم وتطلق الأم على الأصل فيقال أم الشىء أى أصله أو معظمه . ومنه قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب قال فى القاموس أمه قصده والإمة بالكسر الشرعة والدين والأمة بالضم الرجل الجامع للخير ومنه قوله تعالى إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا من سورة النحل .

والأمة جماعة أرسل إليهم رسول والأم وقد تكسر الوالدة ويقال للأم الأمة والامهة جمعه أمات وأمهات أو أمهات لمن يعقل وأمات لما لا يعقل وأم القرآن الفاتحة أو كل آية محكمة وأمة الرأس الجلدة الرقيقة التى عليها وأم القرى مكة لأن الناس يؤمونها .

(ومنعا وهات) فى رواية بتنوين منعا عطف على المفعول الذى هو عقوق . وفى رواية بغير تنوين إشارة إلى مضاف إليه محذوف تقديره ومنع حق محذوف المضاف إليه وبقيت هيئة الإضافة . ومنعه يمنعه بفتح نونهما ضد أعطاه كمنعه بالتشديد ويقال فلان فى منعة أى معه من يحفظه ويمنعه من عشيرته وأما هات فهى فعل أمر على الأصح بدليل لحوق الضمائر بها فى التنزيل كقوله تعالى قل هاتوا برهانكم وبعض النحويين يجعلونها اسم فعل أمر ويجردونها من الضمائر فى جميع الحالات وأصله آت فعل أمر من الإيتاء وهو الإعطاء .

قال فى القاموس هوت به تهويتا صاح وهيت لك أى هلم وهات بكسر التاء أعطى والهيت الغامض من الأرض . والوأد من قولهم وأدبنته دفنها حية وبابه وعد وهى وئيد ووئيدة وموءودة والتؤدة الرزانة وقوله (قيل وقال قال الجوهرى من أهل اللغة إنهما إسمان يقال كثر القيل والقال أى القول

واستدل له بدخول أل عليهما وقيل إنهما فعلان محكيان ولو كانا اسمين لما كان لعطف أحدهما على الآخر فائدة ورد بأن التكرار مبالغة فى الزجر أو إشارة إلى الكثرة . وخص بعض اللغويين القول بالخير والقال والقيل بالشر ولكن يرد على هؤلاء بقول الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا . قال فى القاموس القول مصدر والقيل والقال اسمان له. وقوله وكثرة السؤال يقال سأله الشيء وسأله عن الشيء سؤالا ومسألة أى طلبه والسؤال ماسألته ومنه قوله تعالى أوتيت سؤلك يا موسى والسؤله كهمزة الكثير السؤال وأسأله سؤله قضى حاجته . روى هذا الحديث البخارى فى كتاب الرقاق وكتاب الزكاة بسنده قال حدثنا على بن مسلم حدثنا هشيم أنبأنا غير واحد منهم مغيرة عن الشعبي عن وراد كاتب المغيرة بن شعبة أن معاوية كتب إلى المغيرة أن أكتب إلى بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب إليه الحديث المذكور . ورجاله ثقات عدول ضابطون فهو صحيح الإسناد .

أغراض الحديث

أولا : تحريم عقوق الوالدين حفاظا على الأسرة وتقوية لروابطها .

ثانياً : وجوب أداء كل فرد ما عليه وتحريم طلبه حقاً ثابتاً لغيره .

ثالثاً : تحريم قتل الأولاد لأن فى هذا فناء للأمم وعدم وثوق بالله .

رابعاً : تحريم الخوض فى أعراض الناس والنهى عن تتبع الأخبار التى لا تعنينا والعمل على إشاعتها .

خامساً : الإلحاح فى طلب الصدقة منهى عنه . وكذا السؤال عن مسائل من العلم لا حاجة لها فى الدين أو لأجل التعنت أو قصد المباهاة .

سادساً : وجوب حفظ المال والنهى عن تبذيره فى غير ما أمر الله .

وبعد فقد بين الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فى هذا الحديث

كثيراً من الآفات الاجتماعية والخلقية فلعلنا معشر المسلمين نتأدب بآداب النبوة ونسير على صراطها المستقيم .

نبذه عن راوى الحديث : ـ

هو المغيرة بن شعبة الثقفى صحابى جليل أسلم عام الخندق وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم مائة وستة وثلاثين حديثاً وقد ولى البصرة فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم ولى الكوفة وله مواقف مشرفة فى الجهاد فقد شهد موقعة اليمامة وفتوح الشام وقد ذهبت عينه يوم اليرموك كما شهد القادسية ، وكان رضى الله عنه يرى اعتزال الفتنة وعدم الخوض فى الحروب بين المسلمين كرأى كثير من الصحابة أمثال سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأبى بكرة نفيع بن الحارث وفى زمن معاوية ولاه على الكوفة فلم يزل بها حتى توفى سنة ٥٠ هـ .

الآيات والأحاديث التى تؤيد حديث الباب

قال الله تعالى : فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم من سورة القتال .

وقال تعالى والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار . من سورة الرعد .

وقال صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يارسول الله قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء رواه مسلم والجلحاء التى لا قرن لها . وعن عائشة رضى الله عنها مرفوعا قالت من ظلم قيد شبر من الإرض طوقه من سبع أرضين متفق عليه وقيد

شبر أى قدر شبر وقد ضبطه العلماء بكسر القاف والياء الساكنة والدال.
وعن خولة بنت عامر الأنصارية قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن رجالا يتخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة رواه البخارى.

وفى حديث عن عبد الله بن مسعود أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى حليلة جارك
ويقول ابن عباس رضى الله عنه : لا يزال الرجل فى فسحة من دينه حتى يسفك دما حراما.

وقال تعالى ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد من سورة ق.

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يضمن لى مابين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة متفق عليه.

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم رواه أبو داود.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس فى وجهه مزعة لحم. وقال أيضا من سأل الناس تكثرا فإنما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر رواه مسلم.

الحديث السادس

عن أبي ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم في حرة بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال ياأبا ذر قلت لبيك يارسول الله قال مايسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا تمضى على ثلاثة وعندى منه دينار الا شىء أرصده لدين إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه رواه البخارى .

المعنى الإجمالى

ينبه الرسول صلى الله عليه وسلم صاحبه أبا ذر رضى الله عنه إلى فضيلة الانفاق فى وجوه الخير ويخبره أنه لو كان عنده مال كثير جدا لبذل منه فى جميع وجوه البر بحيث لا يمر عليه ثلاث إلا وقد أتى عليه جميعه ولم يستبق منه شيئا إلا مايحتاجه لمهمات كالدين ونفقة الأولاد وغير ذلك ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وذلك الترغيب النبوى فى الانفاق والبذل ليغرس صفة الكرم فى نفوس المسلمين ويحارب فيهم البخل والشح فإنهما باب كل شر . وصدق الرسول حيث يقول . اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم « رواه مسلم .

المعنى التفصيلى

قال أبو ذر (كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم) الظاهر أن القصد من هذا المشىء الرياضة والترويح عن النفس . وهو مطلوب شرعا لأن النفس إذا سئمت العبادة أدى ذلك إلى كراهيتها لطاعة الله وانقطاعها عن الفرائض يشير إلى ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم أن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة

والروحة وشيء من الدلجة رواه البخارى . والغدوة أول النهار والروحة آخر النهار والدلجة آخر الليل وقال عليكم بما تطيقون فوالله لايمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ماداوم صاحبه عليه متفق عليه . غير أنه من الواجب أن يتخير الإنسان لنفسه نوعا من أنواع الرياضة يلائم سنه وصحته ويكون حلالا لا اثم فيه ورياضة المشى من أعلى أنواع الرياضة وأنفعها للجسم سيما لكبير السن والرسول فى ذلك الوقت كان قد جاوز الخمسين فالمشى له أصح أنواع الرياضات واحذر من الرياضات المحرمة كرياضة الرقص مع النساء العاريات فى مجمع عام يختلط فيه الرجل بالمرأة الأجنبية ويخاصرها على أنغام الموسيقى ولا تغتر بأسماء مزيفة يضفونها على هذه الأمور فيسمونها فنا أو رقصا توقيعيا أو ما إلى ذلك من الأسماء ويحتمل أن يكون القصد من مشى الرسول صلى الله عليه وسلم الذهاب إلى مكان بعيد فى الصحراء لقضاء الحاجة لأن البيوت إذ ذاك لم يكن بها استعداد لهذا الأمر وعلى كل هذا يدل على تواضع الرسول صلى الله عليه حيث يمشي مع أصحابه من غير تكبر يحدثهم ويحدثونه وفى التعبير بالمعية دلالة على مساواة الرسول لصاحبه فى مشيته فلا تقدم لاحدهما ولا تأخر وقد كره الرسول للرؤساء اتخاذ الحجاب والبطانة والاتباع الذين يتابعون الرؤساء أو يتقدمونهم لافساح الطريق واظهار الكبرياء . والافتخار بكثرة الحاشية حتى إنه كان من أوصافه صلى الله عليه وسلم أن لايتصدر المجالس بل كان يجلس حيث ينتهى المجلس . وكان يمشى مع أصحابه كأحدهم بل كان يحب فى أكثر الأحيان أن يتأخر عنهم ليشرف عليهم ويطلع على تصرفاتهم . كان ذلك المشى فى حرة) وهى الأرض ذات الحجارة السوداء (بالمدينه) المنورة والمراد بها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم التى هاجر إليها . وأصبح يطلق عليها علما بالغلبة وكان اسمها فى الجاهلية يثرب إلا أن الرسول كره هذا الاسم لأن التثريب هو التعنيف واللوم ومنه قول يوسف عليه السلام لأخوته لاتثريب عليكم اليوم وسماها الرسول طيبة أوطابه

أو المدينة وذلك لأنه دعا لها بطيب هوائها فبعد أن كانت مباءة للحمى صفا هواؤها وانتقل وباؤها إلى الجحفة استجابة لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك من أكبر علامات النبوة . فان اعترض أحد فقال كيف تقول أن تسميتها يثرب مكروه مع أنه ذكر فى القرآن الكريم قلنا إن القرآن يحكى عن المنافقين قولهم ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا الآيه من سورة الأحزاب فلا دليل فى الآية على عدم الكراهة . وقد ثبت فى الحديث اطلاق المدينة عليها فقد روت عائشة أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال قالت فدخلت عليهما فقلت ياأبت كيف تجدك ويابلال كيف تجدك قالت فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرىء مصبح فى أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال اذا أقلع عنه يرفع عقيرته ويقول :

الا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بواد وحولى اذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لى شامه وطفيل

قالت عائشة فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا فى صاعها ومدها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد . وقد سميت فى القرآن بالمدينة فى غير موضع . أما تسميتها بطيبة وطابة فقد روى مسلم فى صحيحه بسنده إلى جابر ابن سمرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله تعالى سمى المدينة طابة وروى أيضا عن زيد بن ثابت رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال انها طيبة يعنى المدينة وانها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة

وللمدينة حرتان وهذه هى الحرة الشمالية التى تقع جهة الشام بدليل قوله فى بعض الروايات ونحن ننظر إلى أحد وهى التى وقعت فيها موقعة الحرة فى زمن يزيد بن معاوية واستباح فيها المدينة ثلاثا . (فاستقبلنا أحد) برفع أحد على أنه فاعل أى واجهنا وظهر لنا بعد خروجنا من أبنية المدينة وحوائطها وأحد جبل بالقرب من المدينة وقعت فيه غزوة مشهورة من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وقتل فيها أكثر من الصحابه وعلى رأسهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم . فخاف الرسول أن يحدث هذا عقدا نفسية للصحابه كلما رأوا أحدا فقال أحد جبل يحبنا ونحبه ليزيل من قلوبهم ونفوسهم آثار الهزيمة عنده ولكى لايقعوا فى التشاؤم المذموم قال الحافظ ابن حجر فى شرحه فتح البارى على البخارى أحد بضم الهمزة والمهملة جبل بينه وبين المدينة أقل من فرسخ وذكر بعض المؤرخين أن قبر هرون عليه السلام بأحد وأنه قدم مع موسى فى جماعة من بنى اسرائيل حجاجا فمات هناك إلا أن سند هذا الكلام ضعيف جدا (فقال ياأبا ذر) وهى كنية صحابى جليل يسمى جندب بن جنادة الغفارى وقد آثر الرسول صلى الله عليه وسلم نداء صاحبه بالكنية بدل الاسم تلطفا وايناسا له لتقع كلامه من قلبه أحسن موقع (قلت لبيك يارسول الله) آثر أبو ذر الاجابة بقوله لبيك على قوله نعم لأنها تفيد تكرار الإجابة وتأكيدها والإخلاص فيها ووصفه بالرسالة تأدبا بآداب القرآن حيث يقول الله تعالى « لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا وكأنها برهان ساقه أبو ذر على وجوب التلبية كأنه يقول أجبتك وأطعتك لأنك رسول من قبل الله ومن يطع الرسول فقد أطاع الله وقوله صلى الله عليه وسلم (مايسرنى) مانافيه يقال سره يسره اذا أدخل الفرح فى قلبه (أن لى أحدا ذهبا) خص هذا الجبل بالذكر دون سواه لأنه أقرب الجبال إلى المدينة ولأنه كان على مرأى منهما غالبا ولأن غزوة أحد تذكر برذيلة الجمع والانهماك على المال والحرص على كنزه حيث كانوا

منتصرين أول الأمر فلما ترك الرماة مراكزهم فوق الجبل وأقبلوا على جمع المال جاءهم العدو من ورائهم فانهزموا وخص الذهب بالذكر لأنه أنفس الجواهر ولأنه أساس المعاملة وقوله (تمضى على ثلاثة أيام وخص الايام بالثلاثة لأنها مدة يستطيع فيها بذل هذا المال الكثير وانفاقه فى وجوه الخير وفى بعض الروايات يوم وهو مبالغة فى عدم الحرص على كنز المال وأن الأفضل أن يسعى فى إنفاقه على وجوهه المشروعة فى أقرب فرصة ولو فى يوم واحد فالتقييد بالثلاثة جرى على الغالب من أن الإنسان لا يستطيع أن ينفق هذا المال إلا فى هذه المدة. وقد طبق الرسول صلى الله عليه وسلم هذا تطبيقا عمليا فى كثير من الأحيان فقد أقبلت عليه وعلى أصحابه الدنيا فى آخر حياته حتى كان المال يأتى من البحرين ومن غيرها من سائر الأمصار المفتوحه فيوضع كومة فى المسجد ولا يتركه الرسول حتى يفرقه فى جلسة واحدة. كما ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى العصر يوما فلما سلم خرج مسرعا يتخطى رقاب الناس حتى وصل إلى بيته ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم فرأى أنهم قد تعجبوا من سرعته فذكر لهم السبب فقال ذكرت مالا من تبر عندنا فكرهت أن يحبسنى فأمرت بقسمته. كما أن من عادته صلوات الله وسلامه عليه أنه كان يقسم الغنائم غالبا قبل وصوله إلى المدينة.

وقوله (الا شيء أرصده لدين) اشارة نبوية إلى الاهتمام بأمر سداد الدين وما شابهه من الواجبات وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم حذر من الدين وحث على الوفاء فقال: والذى نفس محمد بيده لو أن رجلا قتل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش وعليه دين مادخل الجنة حتى يقضى دينه رواه أحمد.

وقال أيضا نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه رواه الترمذى عن أبى هريرة وقال حديث حسن.

وقد امتنع الرسول صلى الله عليه وسلم عن صلاة الجنازة على ميت لم يترك لدينه وفاء فقد روى البخارى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل هل ترك لدينه قضاء فان حدث أنه ترك لدينه وفاء صلى . والا قال للمسلمين صلوا على صاحبكم فلما فتح الله عليه الفتوح قال أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى من المؤمنين فترك دينا فعلى قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته .

قال صاحب الفتح قال العلماء كان الذى فعله صلى الله عليه وسلم من ترك الصلاة على من عليه دين ليحرص الناس على قضاء الديون فى حياتهم والتوصل إلى البراءة منها لئلا تفوتهم صلاة النبى عليهم .

ومثل الدين سائر المهام الضرورية فصح الادخار لها كتمريض أولاده ونفقة مدارسهم فى عام وقوت عياله طول السنة وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعله ومعنى أرصده لدين أعده لقضاء دين . (إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا أى الا أن أنفق به ذات اليمين وذات الشمال ومن الخلف فهى إشارات ثلاث بينها أبو ذر بقوله عن يمينه وعن شماله ومن خلفه . وقدم اليمين لأن السنة أن يعطى المتصدق بيمينه كما فى حديث سبعة يظلهم الله فى ظله وفيهم رجل تصدق بيمينه حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ومعنى من خلفه أن يعطى الفقير الماشى وراءه أو أن يراد به الوصية من خلفه بعد الموت فانها من الشعائر الهامة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم . ماحق امرىء مسلم له شىء يوصى به يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده رواه مسلم .

وليس المقصود خصوص هذه الجهات بل المراد التعميم فى جميع الجهات وفى جميع الأحوال فهو كناية عن كثرة البذل كما فى قوله تعالى . الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانيه من سورة البقرة وقوله

إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . وفى بعض الروايات من بين يديه قال الحافظ ابن حجر فى الفتح والذى يظهر لى أن الاقتصار على بعض الجهات من تصرف الرواه وأن أصل الحديث مشتمل على الجهات الأربع . وقد أخرج البخارى هذا الحديث فى باب الاستئذان فاقتصر على جهتين ولم يذكر جهة الفوق والتحت لندرة الإعطاء فيهما فاقتصر على الغالب .

ثم أعلم أن الاسلام لايمنع المسلم من جمع المال بشرطين أن يكون اكتسابه من طريق حلال أذن الله فيه وشرعه لعباده بل هو يحث عليه ويحض على العمل للكسب والشرط الثانى أن يؤدى حق الله فى هذا المال من الزكاة وصلة الأرحام وقرى الضيف والجهاد فى سبيل الله . ولا يستطيع أداء هذه الحقوق إلا اذا تنزه عن الحرص والشح . فليس الزهد الممدوح كما فهم بعض الجهلاء هو الامتناع عن كسب المال وتحصيله والعزوف عن العمل والجد والتبتل والرهبنة وإنما هو الزهد فيه بعد جمعه بحيث يكون المال فى اليد لافى القلب وقد عبر عنه بعض المتصوفة فقال الزهد أن تزهد عما فى يدك من المال فتنفقه فى سبيل الله قال الإمام الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين الزهد الحقيقى كزهد عائشة إذ أتاها مائة ألف درهم من من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو تذكرت لفعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضره اذ هو يرى المال فى خزانة الله لافى يد نفسه وقد سئل الزهرى عن الزهد فقال . أما أنه ليس بشعث اللمة ولا قشف الهيئة ولكنه ظلف النفس عن كل شهوة وأن لايغلب الحرام صبرك ولا الحلال شكرك . وقال سفيان بن عيينة الزهد إنما هو فيما حرم الله فأما ما أحل الله فقد أباح الله لك فان النبيين قد نكحوا وركبوا وأكلوا ولكن الله نهاهم عن شيء فانتهوا عنه وكانوا به زهادا

أما مافهمه بعض الجهلاء فقد أدى إلى ضعف المسلمين وذهاب ثروتهم إلى أعدائهم وتحكم الصهيونية فى اقتصاد الأمة الإسلامية ردحا من الزمن فاجمع ماتشاء من الحلال ولكن لا يستعبدك الدرهم فان الرسول صلى الله عليه وسلم : قال تعس عبدالدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش أى إذا أصابته شوكة فلا وجد من يخرجها دعاء عليه من الرسول ، واذا جمعت الحلال فأنفق منه فى وجوه البر وحقوق العباد وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسيرون على هذا الهدى فهذا سعد بن أبى وقاص كان يذهب إلى ضيعته ويعمل فيها حتى أثرى وكان انشغاله بها سببا من أسباب نجاته من الفتنة التى حدثت بين على ومعاوية فقد روى عامر بن سعد قال كان سعد بن أبى وقاص فى ابله فجاءه ابنه عمر فلما رآه سعد قال أعوذ بالله من شر هذا الراكب فنزل فقال له : أنزلت فى ابلك وغنمك وتركت الناس يتنازعون الملك بينهم فضرب سعد فى صدره فقال اسكت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى رواه مسلم ، وهذا عبد الرحمن بن عوف كان يضرب فى الأسواق حتى أصبح من الأغنياء وهذا عثمان بن عفان الذى استطاع أن يجهز جيش العسرة من ماله الخاص وغير هؤلاء كثيرون .

اللغة والإعراب

الحرة أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار وجمعها حرار وحرات والحر ضد البرد والحر بضم الحاء خلاف العبد وخيار كل شىء ويطلق على الفرس العتيق الحر وهو حرورى نسبة إلى حرورة بلدة بالكوفة كانت مقرا لطائفة الخوارج ورئيسهم نجدة وشبيب الخارجيان وتحرير الكتاب تقويمه واستحر القتل اشتد ويطلق على العطشان حران لأن غالب من يمشى فى الحرة يظمأ لشدة حرها وتعرضها للشمس ويقال لما بدا من الوجه حر الوجه بضم الحاء وأما الحرور فهى الريح الحارة وغالبا ماتكون بالليل وضدها السموم وكبد حرى أى يابسة من شدة العطش فالمادة تدور

على المشقة والشدة وسميت هذه الأرض بالحرة . إما لشدة حرها ، وإما لظهورها وتعرضها للشمس .

(أحد) جبل بالقرب من المدينة وإسناد الاستقبال إليه مجاز لأن الذى يستقبل هو المدرك فكأنه شبه الجبل بإنسان مدرك بجامع المواجهة والمقابلة فى كل ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الاستقبال على سبيل الاستعارة بالكناية ، وموقع أحد فى الجملة الرفع على أنه الفاعل ويطلق الأحد بمعنى الواحد ولا يوصف به إلا الله سبحانه لاختصاص هذا الاسم الشريف به وجاءوا أحاد أحاد ممنوعين من الصرف للعدل أى واحداً واحداً .

(لبيك) إجابة بعد إجابة وهو مصدر منصوب كقولك حمداً وشكراً وفعله ثلاثى ورباعى يقال ألب بالمكان أقام به ولزمه ولب لغة فيه ، وجاء على لفظ التثنية تأكيداً أى إقامة بعد إقامة ولزوما لطاعتك بعد لزوم . قال الخليل هو من قولهم دار فلان تلب دارى أى تحاذيها وتواجهها وعليه يكون معناه أنا مواجهك بما تحب واللباب الخالص ، ولذلك قال بعضهم معنى لبيك إخلاصى لك مأخوذ من قولهم حب لباب إذا كان خالصاً قال فى القاموس لبى من الطعام كرضى لبيا أكثر منه وقيل معنى لبيك محبتى لك من قولهم امرأة لبه محبة لزوجها واللب العقل جمعه ألباب واللبب المنحر كاللبة وموضع القلادة من الصدر وما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا مانافيه . وجملة أن عندى فى محل رفع فاعل يسر ومثل اسم أن والظرف خبره وذهبا تمييز وجملة تمضى على ثلاثة حال من ياء المتكلم ، وكذلك عندى منه دينار جمله من مبتدأ مؤخر والظرف خبره تقدم عليه وهى حاليه . (ألا شىء) روى بالرفع والنصب وكلاهما جائزان لأن النفى تقدم فى قوله ما يسرنى والاتباع فى حالة النفى هو المختار لقول ابن مالك :

وبعد نفى أو كنفى انتخب اتباع ما تصل وانصب ماانقطع

(والدينار) معرب أصله دنار بالتشديد فأبدل من إحداهما ياء لئلا يلتبس بالمصادر كاب ودنر وجهه بالتشديد تدنيراً تلألأ ودينار مدنر أى مضروب .

وجملة أرصده لدين صفه لشيء لأنه نكره والجملة بعد النكرة صفه يقال أرصده لكذا أعده له قال بعض الشراح يجوز فتح الهمزة فتكون من رصد الثلاثى ، ولكن الذى يفيده القاموس أن أرصد بمعنى أعد رباعى فيكون المضارع منه بضم الهمزة وكسر الصاد . أما رصد الثلاثى فبمعنى راقب ومنه الترصد أى الترقب ومنه الرصد بفتحتين القوم يرصدون العدو ويرقبونه كالحرس قال فى القاموس رصده رصداً بالسكون ورصداً بالتحريك رقبه وأرصدت له أعددت وكافأته بالخير أو بالشر والمرصاد الطريق والمكان يرصد فيه العدو وأرض مرصده كمحسنه بها شيء من رصد أو التى مطرت وترجى لأن تنبت . والدين بسكون الياء وتشديد الدال قبلها مع فتحها ما له أجل . وأما القرض فلا أجل له ويسمى الموت دينا لأنه ليس بحاضر ويقال دنته بكسر الدال وأدنته أعطيته إلى أجل والدين بكسر الدال الجزاء والإسلام والعادة والعبادة والديان القهار الذى لا يضيع جزاء عمل إلا أن أقول به ، استثناء بعد استثناء وأقول بمعنى افعل قال فى النهاية لابن الأثير العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام ونطق اللسان فنقول قال بيده أى أخذ وقال بثوبه أى رفعه ، وقال برجله أى مشى ومنه قول الشاعر :

• وقالت له العينان سمعاً وطاعة •

أى أومأت وكل ذلك على المجاز والتوسع .

قال ابن الأنبارى قال يجيء بمعنى تكلم وضرب وغلب ومات ومال واستراح وأقبل ويعبر بها عن التهيؤ للأفعال والاستعداد لها يقال قال فأكل وقال فضرب وقال فتكلم واليمين ضد اليسار واليمن البركة كالميمنة وفعله يمن

كعلم وعنى وجعل وكرم فهو ميمون ، ومعنى وكنتم تأتوننا عن اليمين ، أى تخدعوننا بأقوى الأسباب ، أو من قبل الشهوة لأن اليمين موضع الكبد والكبد مظنة الشهوة والإرادة وتطلق اليمين على القسم لأنهم كانوا يتماسكون بأيمانهم . واليسار جهة ضد اليمين ، وقد تكون ياؤه مكسورة والميسر اللعب بالقداح أو هو الجزور التى كانوا يتقامرون عليها ويسار اسم غلام للنبى صلى الله عليه وسلم . واستيسر له الأمر تهيأ وخلفه أى وراءه قال فى القاموس الخلف نقيض قدام والخلف القرن بعد القرن والأخلف الأحمق والخلف بضم الخاء أن تعد عدة ولا تنجزها والخوالف النساء والخليفة السلطان الأعظم وخلف فم الصائم خلوفا بضم الخاء تغيرت رائحته . وفصل بين جملة قال ما يسرنى وبين سابقتها لأن بينهما شبه كمال الاتصال لأن الثانية جواب لسؤال اقتضة الأولى كان قائلا سأل ماذا قال الرسول لأبى ذر حينما أعلن استعداده ولبى نداءه فكان جوابه قال ما يسرنى إلى آخره وعطف الخلف والشمال على اليمين عطف مفردات والجامع بين هذه المفردات أنها جهات فالتناسب بينهما ثابت .

أغراض الحديث

أولا : انتهاز الرسول صلى الله عليه وسلم الفرص لبيان شريعته ومحاسن دعوته .

ثانياً : الحث على الإنفاق فى سبيل الله والنهى عن الحرص والشح .

ثالثاً : وجوب سداد الدين وما شابهه من الواجبات .

رابعاً . لا ضرر من جمع المال الحلال وإنفاقه فى مشروع بل فيه الثواب العظيم والرضوان المقيم لأنه حفظ لثروة الأمة .

خامساً : وجوب العمل بالخبر الذى يأتى عن صحابى واحد لأن أبا ذر كان وحده فى ذلك الوقت مع النبى صلى الله عليه وسلم ومع ذلك صح إخباره ووجب العمل بما أخبر عنه .

تاريخ الراوى

أبو ذر راوى الحديث هو جندب بن جنادة الغفارى وهو من السابقين إلى الإسلام إذ أنه لما علم بخبر الرسول وظهوره فى مكة بعث أخاله فى مكة يستطلع الخبر . ولما لم يأت أخوه بما يشفى غلته ركب هو إلى مكة فوجد الرسول مستخفياً فى بيت الأرقم بن أبى الأرقم والمشركون عليه أشداء يضطهدون أصحابه فمكث قريباً من أربعين يوماً ينتهز الفرصة للدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم أمره ولم يكن له طعام غير ماء زمزم ، ومع ذلك تقدمت صحته وتكسرت عكن بطنه من السمنة فلما تهيأت له الفرصه بلقاء على رضى الله عنه دخل على الرسول وآمن به . وقد كان زاهداً ورعا يدعو إلى بذل كل ما فضل عن ضروريات الحياة وتبعه على مذهبه كثيرون حتى خاف معاوية منه على النظام العام فأرسله إلى عثمان بن عفان الخليفة الثالث فأشار عليه بالخروج إلى الربذة خوفا من فتنة الناس به وتجمعهم حوله ومكث بها إلى آخر حياته وكنى أبى ذر لأنه كان يقول فى وعظه كثيراً للناس إن ميزان الدنيا لا يتأثر بمائة ذرة ولكن واحدة منها تطيح بميزان الآخرة لقوله تعالى ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . والذرة كما عرفت سابقاً هى النملة الصغيرة أو هى ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء وقد روى أبو ذر مائتين وثمانين حديثاً .

الآيات والأحاديث التى تؤيد حديث الباب

قال تعالى : لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله الآية من سورة الطلاق . وقال تعالى : وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين من سورة سبأ .

وقال تعالى : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دينار أنفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة ودينار تصدقت به على

مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك رواه مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : ما من يوم يصبح العبد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم اعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا متفق عليه .

وعن أنس رضى الله عنه قال كان أبو طلحة رضى الله عنه أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحا وكانت مستقبلة المسجد . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها فجاء أبو طلحة فقال يا رسول الله إن أحب مالى إلى بيرحاء وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح . متفق عليه .

الحديث السابع

عن عمران بن حصين رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال:
خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . قال عمران فما أدرى قال النبي صلى الله عليه وسلم مرتين أو ثلاثا . قال النبي صلى الله عليه وسلم ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن رواه البخارى .

المعنى الإجمالى

يخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن أفضل الناس من عهده إلى يوم القيامة هم أهل عصره الذين شربوا من معين النبوة الصافى ونهلوا منه عن كثب . وكان ذلك ببركته صلى الله عليه وسلم وروحانيته الخالصة وإشراقته الصافية وقدوته الحسنة فكان الرجل منهم بمجرد جلوسه مع النبي وإسلامه على يديه تنطبع فى نفسه معانى الخير و تفيض سجاياه رحمة ومعرفة وتتبدل صفاته وأخلاقه واعتبر ذلك بعمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى كان فى الجاهلية فظاً غليظ القلب قاسى الخلق يدفن البنات أحياء فى غير رحمة ولا شفقه فلا تدمع له عين ولا تهتز له عاطفة فإذا هو بعد الإسلام بكاء العين خاشع القلب يسمع طفلا يبكى فيرحمه ويبكى لبكائه ويضع قوانين الرحمة من أجله فقد ثبت أنه كان يتفقد رعيته ليلا فسمع بكاء طفل فنادى يا أم الغلام ارحمى الغلام وبعد ساعة وجد الطفل نفسه يبكى فاشتد على أمه فرفعت المرأة صوتها وهى لا تعرفه فقالت جزى الله عمر فإنه الذى أبكى هذا الغلام . قال ولم . قالت لأنه لا يعطى عطاء المولود إلا إذا تم فصاله لذلك نسارع إلى فطام الأولاد قبل الأوان لنستعجل العطاء لهم فرجع عمر حزيناً يقول كم قتلت يا عمر من أبناء المسلمين . ثم جمع الناس وأخبرهم أنه غير قانون الدولة وفرض العطاء لكل مولود فى الإسلام منذ ولادته.

ثم أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن طبقة التابعين تلى طبقة الصحابة فى الفضل ثم تابع التابعين بإحسان . ثم يخلف من بعدهم خلف يشهدون الزور ويخونون الأمانة ولا يوفون بالنذر ويملأون بطونهم من المحرمات .

المعنى التفصيلى

(خيركم) أى أفضلكم عملا وأكثركم ثواباً عند الله (قرنى) المراد به الصحابة رضوان الله عليهم . ولذلك يقول القاضى عياض وقرنه صحابته والذين يلونهم أبناؤهم . ثم أبناء أبنائهم .

وقال سهل قرنه ما بقيت عين رأته والثانى ما بقيت عين رأت أصحابه والثالث ما بقيت عين رأت التابعين . والمشهور بين الناس أن القرن مائة سنه ويؤيده ما ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم مسح على رأس غلام ، وقال عش قرنا فعاش مائة سنة . وآخر الصحابة موتا هو أبو الطفيل . واختلف العلماء فقال بعضهم هذا التفضيل للمجموع لا لكل فرد فقرن الصحابة بمجموعه أفضل من قرن التابعين وهكذا من حيث إعزاز الإسلام ونشر الدين ونصرة الحق والخلو عن البدع . ولذلك قال السيوطى ظهرت البدع بعد أتباع التابعين سنة ٢٢٠ هـ وظهرت شبه الفلاسفة وظهرت محنة القول بخلق القرآن ولا يزال الإسلام فى محنة من يومها للآن .

ويقرب من هذا الرأى قول صاحب الفتح ناقلا عن العلماء اتفقوا على أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش حدود العشرين ومائتين وبعد هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشيا وأطلقت المعتزلة ألسنتها ورفعت الفلاسفة رءوسها وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ، ولم يزل الأمر فى نقص إلى الآن وظهر قوله صلى الله عليه وسلم . ثم يفشو الكذب ظهوراً بينا حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات .

وهذا لا ينافى أن يوجد فرد من غير الصحابه أفضل من بعض أفراد

الصحابة هكذا قال أصحاب هذا الرأى واستدلوا على رأيهم بآثار منها : ـ

أولا : ما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره .

ثانياً : ما رواه ابن أبى شيبة بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليدركن المسيح أقواما إنهم لمثلكم أو خير ثلاثا ولن يخزى الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها .

ثالثاً : ما رواه أبو داود والترمذى من حديث أبى ثعلبة مرفوعاً يأتى أيام للعامل فيهن أجر خمسين قيل منهم أو منا يا رسول الله قال بل منكم .

رابعاً : ما روى عن عمر مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : أفضل الخلق إيمانا قوم فى أصلاب الرجال يؤمنون بى ولم يرونى .

خامساً : ما رواه أحمد بسنده إلى أبى عبيدة قال : يا رسول الله أأحد خير منا أسلمنا معك وجاهدنا معك . قال قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى .

سادساً : ما روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مدح رجلا من التابعين يسمى أويسا القرنى . وقال لعمر إن لقيته فاطلب منه أن يستغفر لك . وقد حرص عمر على ذلك حتى لقيه واستغفر له أويس .

قال ابن عبد البر إن السبب فى كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء فى إيمانهم لكثرة الكفار حينئذ وصبرهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم قال فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصى والفتن كانوا أيضاً عند ذلك غرباء وزكت أعمالهم عند ذلك كما زكت أعمال أولئك ويشهد له ما رواه مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء .

وقال الجمهور إن فضيلة الصحبة لا يعدلها شىء لمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم سيما إذا ضم إلى الصحبة سبق الإسلام وقدم الهجرة والدفاع عن

الإسلام وتلقى القرآن والسنة من المشرع الحكيم فإن أمثال هؤلاء لا يعدلهم أحد ممن بعدهم فإنه ما من خصلة من الخصال المذكوره إلا وللذى سبق بها مثل أجر من عمل بها من بعده . وأجاب الجمهور عن الرأى الأول بأن الأحاديث التى ذكروها لذلك بعضها ضعيف وبعضها مختلف الألفاظ . وبعضها مؤول حتى يتلاقى مع الأحاديث القوية التى اتفق عليها البخارى ومسلم . واستدلوا أيضاً بقول الله تعالى مخاطبا الصحابة كنتم خير أمة أخرجت للناس . الآية من سورة آل عمران . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا أصحابى فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . رواه البخارى فى الفضائل .

وكان القرن الأول أفضل القرون لحكمة بالغة حيث اختار الله لأفضل الأنبياء أفضل القرون من الصحابة رضوان الله عليهم ليحملوا الرسالة ويبلغوها للناس نقية بيضاء ليلها كنهارها فجزاهم الله عنا خير الجزاء . وقد بين الله سبب أفضليتهم فى الآية السابقة فقال : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . وكذلك كان أهل الصدر الأول لا يسكتون على منكر ، ولذلك كان إجماعهم على أمر حجة شرعية بل كان سكوتهم عن أمر دليلا على إباحته فرضى الله عنهم ورضوا عنه .

واعلم أن الصحبة تثبت لكل من لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به ومات على إيمانه وهم كثيرون جداً ولا يعرف عددهم على اليقين ومن ذكر عددهم من العلماء فإنما أراد التقريب . قال أبو زرعة الرازى المتوفى سنة ٢٦٤ ﻫ وهو شيخ الإمام أحمد : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة

وقد وصفهم الله فى كتابه بأوصاف كثيرة كقوله تعالى محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً .

واجماع الأمة على أن سائر الصحابة عدول . والواجب على كل مسلم أن يرعى لهم حرمتهم وأن يقدر جهودهم فى نشر الدعوة والدفاع عنها . ويجب أن لا تستثنى أحداً من هذا الحكم سواء منهم من أسلم قبل الفتح ، ومن أسلم بعده .

قال أبو زرعه : إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق . وقد تنبأ الرسول قبل موته بأن أحداً من أصحابه لن يمكث أكثر من مائة سنة بعد مقالته فروى ابن عمر قال صلى بنا النبى صلى الله عليه وسلم العشاء فى آخر حياته فلما سلم قام فقال أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد . رواه البخارى فى كتاب العلم .

ونختم هذا البحث بكلمة قيمة لأستاذنا الجليل الشيخ محمد أحمدين فى كتابه الوجيز فى شرح الحديث .

قال أطال الله حياته فى نفع خاص وعام : والحق مع الجمهور لأن المشاهدة لا يفضلها ولا يساويها عمل وهى مفقودة فى غير الصحابة . وذلك لأنها تفيد الإيمان عن عين اليقين وهو أقوى من علم اليقين أو أصل اليقين كمشاهدته صلى الله عليه وسلم وسماع القرآن من فمه الشريف ورؤية المعجزات منه وأحواله فى القيام بأعباء النبوة وجهاده ووعظه وتعليمه كل هذه الأمور تجعل الإيمان أرسخ من الجبال الراسيات وهل الولاية الحقة إلا كشف ورؤية فى عالم المثال لذاته صلى الله عليه وسلم وأيضاً فإن المشاهدة للرسول صلى الله عليه وسلم دليل مادى على إثبات الرسالة والقرآن الكريم ووجود الرسول العظيم وإثبات شخصه ومعجزاته إذ أن كل فرد من الصحابة عنصر من عناصر التواتر وهو إحدى طرق العلم وأسبابه للخلق يثبت وجود الرسول الكريم ويثبت دعواه الرسالة من الله ويثبت أن القرآن كلام الله المنزل عليه فهل يضاهى أو يقارب إثبات الرسول وإثبات رسالته وإثبات القرآن وإثبات الإسلام فى أصله وتفصيله هل يضاهى ذلك علم العلماء

وعمل العاملين وجهاد المجاهدين وبذل المنفقين اللهم إلا أن يريد ابن عبد البر أن كثرة العبادة وكثرة ثوابها من المتعبدين من غير الصحابة لا يقابلها عبادة بعض الصحابة ممن قل تعبدهم وهذا لا يستلزم الأفضلية فكم من نائم وهو أفضل من القائم وإن الذهب وإن غاب عليه التراب فهو أكرم من باقى المعادن البراقة ، وعنصر الصحبة والمشاهدة لا يعدله عمل ولا علم ولا عبادة ولا إنفاق . فالصحابة أفضل ممن جاء بعدهم لا فرق بين المشاهير منهم وغيرهم وليس فى التابعين ولا فيمن يجيء بعدهم من يساوى الصحابة أو يزيد عليهم ولله در الإمام أحمد بن حنبل حين أجاب عن سؤال هل الأفضل هو عمر ابن عبد العزيز أو معاوية رضى الله عنه فقال : إن ساعة من معاوية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أن غبار معاوية فى ساعة مع الرسول أفضل من مائة مثل عمر بن عبد العزيز . اه

قال صلى الله عليه وسلم بعد أن أثبت الخيرية للقرون الثلاثة (ثم يكون بعدهم) أى بعد القرون الثلاثة (قوم يشهدون ولا يستشهدون) أى تكثر فيهم هذه الصفات المذمومة فليس معنى ثم يكون بعدهم أن هذه الصفات أو بعضها لا يوجد لها مثيل فى قرن التابعين أو أتباع التابعين بل كانت موجودة بقلة وندرة وكان شيوع الخير يغطى عليها . والمراد بهذه الصفة المذمومة شهادة الزور لأنهم يشهدون بها ولم يحضروا وقائعها بل هى افتراء منهم ومحض اختلاق يؤدى إلى ضياع الحقوق وظلم العباد . وشهادة الزور محرمة بالإجماع ومن كبائر الذنوب فقد ثبت عن أبى بكرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال ألا وقول الزور وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت . أخرجه البخارى .

وإذا كان الإسلام يحرم على الإنسان أن يتقول فى منامه ما لم يره

فى منامه فقال من تحلم بما لم يحلم كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يعقد بينهما كما ثبت عن الرسول أنه قال : من أفرى الفرى أن يرى الرجل عينيه مالم تريا وقد حمل بعض العلماء الحديث على من ينصب نفسه شاهداً وليس هو من أهل الشهادة كالفساق الذين يعرضون أنفسهم للشهادة على أبواب المحاكم استهانة بأمرها أو تملقا للحكام والأمراء وأضرابهم . وقال آخرون إنهم الذين يؤدون الشهادة ويسارعون إليها قبل أن يطلب منهم تأديتها أو يتحملونها قبل أن يطلب منهم تحملها . قال الإمام النووى : هذا الحديث فى ظاهره يخالف الحديث الآخر : خير الشهود الذى يأتى بالشهادة قبل أن يسألها وجمع بينهما العلماء بأن الذم فى ذلك لمن بادر بالشهادة ولم تتعين عليه فإن المسرع فى ذلك كثيرا ما يخطىء والمدح فى شهادة الحسبة وهى الشهادة بحقوق الله تعالى فى غير الحدود وكذلك لمن توقف ثبوت الحق عليه وتعينت عليه الشهادة . ويدخل تحت الذم من يشهد لغيره بالجنة أو عليه بالنار جازما فإن ذلك أمر موكول إلى الله ولا يدرك خواتم الخلق إلا الله وقد ثبت أن أم العلاء شهدت لعثمان بن مظعون بالجنة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم فقال لها إنى وأنا رسول الله لا أدرى ما يفعل بى رواه البخارى ومن ذلك تدرك خطورة الشهادة التى تعودها المسلمون حينما يصلون على الميت فيقول أحدهم بعد الصلاة ماتشهدون للميت فيقولون إنه من أهل الجنة أو من الصالحين . وربما لا يعرفه كثيرون فضلا عن معرفة أعماله وصلاحه وقوله (ويخونون ولا يؤتمنون) أى يخونون خيانة ظاهرة بحيث لا يبقى معها أمانة وقيل معناه أن الخيانة تظهر منهم وتتكرر حتى يشتهروا بين الناس بذلك فلا يأتمنهم أحد ولا يثق فيهم فيصبحون ولا حظ لهم إلا العزم السيىء على الخيانة والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لا إيمان لمن لا أمانة له . وكذلك جعل الرسول من أشراط الساعة أن تصبح الأمانة مغنما والزكاة مغرما وقد روى مسلم عن حذيفة رضى الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت حذيفة أحدهما وأنا أنتظر

الآخر حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال أى فى أصلها ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت (وهو الأثر اليسير) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل (وهو الانتفاخ عن علة) ثم قال فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أمينا . وقوله صلى الله عليه وسلم (وينذرون ولا يفون) النذر فى الشرع التزام مسلم مكلف قربة وهو مناسب للمعنى اللغوى يقال نذر على نفسه ينذر بكسر الذال وبضمها نذرا أوجبه فإن أقدم الإنسان على نذر طاعة غير واجبة كمن نذر أن يصوم من شعبان عشرة أيام فهذا قربة لله ويجب الوفاء بالنذر عندئذ .

واعلم أن النذر لا ينعقد فى معصية . فإن قيل كيف توفق بين النصوص التى تمدح الوفاء بالنذر مثل قوله تعالى يوفون بالنذر فى سورة الدهر ومثل حديث الباب الذى ينعى على قوم أنهم لا يوفون بما نذروا وبين نصوص أخرى تنهى عن النذر كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تنذروا فإن النذر لا يقدم شيئا ولا يؤخره وإنما يستخرج به من البخيل رواه مسلم . قلنا إن النذر الممدوح الذى هو قربة لله ويجب الوفاء به ما كان فى طاعة غير واجبة ولم يكن معلقا على شىء وعليه تتنزل النصوص التى تمدح الوفاء بالنذر وأما النذر المذموم فهو ما كان فى معصية ويقرب منه ما كان معلقا وعلى هذا النوع المذموم تتنزل نصوص النهى قال الإمام البيضاوى عادة الناس تعليق النذر على تحصيل منفعة أو دفع مضرة فنهى عنه لأنه فعل البخلاء إذ السخى إذا أراد أن يتقرب إلى الله بادر إليه والبخيل لا تطاوعه نفسه بإخراج شىء من يده إلا فى مقابلة عوض يستوفيه أولا والحكمة فى النهى عن النذر أنه ألزم نفسه بأشياء ربما عجز عن الوفاء بها أو لأنه يعتقد أن النذر يغير من القضاء أو لأن النذر المعلق على نجاح أو على ربح أو على صحة إنما يشبه التجارة مع الله المنعم كأن الناذر يقول لربه إن قدمت لى هذا

الخير قدمت لك طاعة كذا وإن لم تقدم فلست بفاعل وهذا فيه معنى المساومة والمعاوضة وعدم الامتثال فمعنى قول الرسول هنا فى حديث الباب ينذرون ولا يوفون أى ينذرون طاعات غير واجبة ثم لا يؤدون مانذروا فيوجبون على أنفسهم ثم لا ينفذون وهذا ذم من الرسول لهم وبيان أنهم قوم يتلاعبون بدينهم واعلم أيها القارىء الكريم أن من النذور المحرمة ما ينذر للموتى ويقدم للأضرحة والمقابر ومنه أيضا الشموع التى تنذر لتضاء بها المقابر مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج قال الترمذى هذا الحديث مروى عن ابن عباس وهو حديث حسن . والسرج جمع سراج قال فى الفتح الربانى للشيخ البنا الساعاتى نهى عن الإسراج لأنه تضييع مال بلا نفع أو احتراز عن تعظيم القبور لاتخاذها مساجد . والإسلام يذم الذى ينذر ولا يوفى لأنه يدل على وهن العزيمة والمسلم يجب أن يكون عند وعده ويربى فى نفسه قوة الحزم .

وقوله صلى الله عليه وسلم (ويظهر فيهن السمن) كناية عن ترفهم وتنعمهم وتكثرهم من أموال الناس وقيل معناه يدعون ما ليس لهم من الشرف والمعنى الأول أظهر كأنه يصفهم بكثرة التوسع فى المآكل والمشارب فيظهر عليهم السمن وهو انصرافهم إلى الدنيا وعدم تفكيرهم فى الآخرة سيما إن كانوا قادة أو علماء فالتوراة تقول إن الله ليبغض الحبر السمين .

واعلم أن الشره فى الأكل والحرص على الاستزادة من أمر مذموم شرعا وعرفا فالرسول يقول بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . فإن كان لابد آكلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ويقول ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه رواه الحاكم وصححه . والمذموم من يأتيه السمن باكتساب منه بأن يسرف فى المآكل والملذات لأن ذلك ربما يؤدى إلى عدم الاحتياط فى جمع الأموال فلا يبالى من أى باب اكتسب الأموال أما من يعرض له السمن خلقة بدون تكسب وتعاطى الأسباب فلا يدخل تحت الذم .

خيركم قرنى مبتدأ وخبر والقرن فى اللغة الروق من الحيوان وهو موضعه أو الجانب الأعلى من رأسنا ويطلق على الذؤابة وقرن القوم سيدهم والمراد به هنا أهل الزمان الواحد المتقارب الذين اشتركوا فى أمر من الأمور المقصوده قال السيوطى فى كتابه التوشيح الأصح أن لا يضبط بمده وقد ضبطه بعض العلماء فقال القرن مائة سنة وقيل ثمانون وقيل ثلاثون والقرن أيضا المماثل فى السن تقول هو على قرنى أى على سنى وعمرى كالقرين والأصح فى معنى القرن هو الأول وعليه قول الشاعر .

إذا ذهب القرن الذى أنت فيهم   وخلفت فى قرن فأنت غريب

أما القرن بفتح الراء والقاف فهو موضع أو هو قرن بن ردهان ابن ناجيه بن مراد الذى ينسب إليه أويس القرنى بفتح الراء قال صاحب النهاية القرن مأخوذ من الاقتران وكأنه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم . أما القرن بكسر القاف فهو الكفء والنظير فى الشجاعة والحروب (يلونهم) يأتون عقبهم مباشرة يقال ولى القوم يليهم إذا تبعهم عن قرب ودنو ومنه تباعد بعد ولى بسكون اللام أى قرب ويقرب منه فى الاشتقاق والى بين الشيئين ولاء بكسر الواو أى تابع . والتعبير بالجملة الاسمية يفيد الثبوت والدوام لأن أفضلية الصحابة على من سواهم ثابت لهم فى جميع الأوقات وعبر بثم ليفيد تفاوت ما بين الرتبتين فوق تراخى الزمن الثانى عن الأول . وأما قوله تعالى أولى لك فأولى فهو تهديد ووعيد ولكنه متصل بالمادة لأنه يفيد القرب أيضا أى قاربه مايهلكه . وقوله (يشهدون ولا يستشهدون) الشهادة خبر قاطع وافق القلب فيه اللسان ولذلك كذب الله المنافقين فى قولهم نشهد إنك لرسول الله مع أنهم قالوا الحق ولكنهم لما كانت قلوبهم على غير مانطقوا كذبهم الله فى تسميتها شهادة ، وإن أردت المزيد فى هذا فاطلع على كتاب السعد التفتازانى وشروح التلخيص فى تعريف الصدق والكذب . تقول

شهد على كذا من باب سلم وقولهم أشهد بكذا أى أحلف فإن كانت الشهادة كما علم فهى شهادة حق وإن كانت على خلافه فهى شهادة زور وكذب وبهتان ويقال شهدت الحادثة شهودا أى حضرتها وأما يستشهدون فيقال استشهده سأله أن يشهد وشهد لفلان بكذا شهادة أدى ماعنده من الشهادة ، والشهيد القتيل فى سبيل الله وسمى بذلك لأنه حى حاضر كما تشير الآيات من سورة آل عمران ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون وقيل مسمى شهيدا لأن ملائكة الرحمة تشهده أو لأن الله وملائكته شهدوا له بالجنة . ويقال شاهد الأمر عاينه والشاهد من أسماء النبى صلى الله عليه وسلم والنجم والجمعة والمشهود يوم الجمعة أيضا أو يوم القيامة أو يوم عرفة وعبر بالمضارع إشارة إلى أن هذه صفتهم التى تتجدد معهم دائما فهى تفيد الاستمرار التجددى كما يقول علماء البلاغة (ويخونون) خان الأمانة لم يؤدها على وجهها والتخون التنقص وخائنة الأعين نظرها خفية ومسارقة إلى مالا يحل أو هى ماإذا كف لسانه وأومأ بعينه يريد شراً والخيانة ضد الأمانة ووصل بين جملة يخونون وما قبلها لاتفاقها فى الخبرية ولاتحاد المسند إليه فبينها التوسط بين الكمالين . وموقع لايؤتمنون النصب على الحالية من الضمير المرفوع فى يخونون قال ابن الأثير فى النهاية يقال أؤتمن الرجل فهو مؤتمن ومنه الحديث المؤذن مؤتمن القوم أى أمين الناس على صلاتهم وصيامهم يثقون به ويتخذونه أمينا حافظا . قال فى القاموس أمنه كهمزة يأمنه كل أحد فى كل شىء وتطلق الأمانة على التكاليف الشرعية ومنه قوله تعالى إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض الآية من سورة الأحزاب . (وينذرون) قال فى المختار النذر واحد النذور وقد نذر لله كذا من باب ضرب ونصر . أما النذر بضم النون المشددة والذال فهو الانذار ومنه قوله تعالى فكيف كان عذابى ونذر الآية من سورة القمر . قال صاحب النهاية نذرت نذرا إذا أوجبت على نفسك شيئاً من عبادة أو صدقه أو غير ذلك (ولا يوفون) وفى بالعهد كأوفى به ضد غدر ووفى الشىء تم

وكثر فهو واف وأوفى عليه أشرف وأوفى فلانا حقه أعطاه له وافيا والوفاة الموت وتوفاه الله قبض روحه (السمن) سمن من باب طرب فهو سمين وهو ضد المهزول قال فى القاموس سمن كسمع سمانة وسمنا كعنب فهو سمين وسامن وإن أردنا بقوله صلى الله عليه وسلم ويظهر فيهم السمن أنهم يدعون الشرف من غير حقيقة ففى التعبير استعارة شبه المظهر المعنوى بالسمن الحسى واستعار السمن للمظهر على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية وإن أردنا به أنهم يستكثرون من المآكل والمشارب ويتنعمون ويترفون كانت كناية عن صفة .

(سند الحديث)

روى البخارى قال حدثنا مسدد عن يحيى عن شعبة حدثنى أبو جمرة حدثنا زهدم بن مضرب قال سمعت عمران بن حصين يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم قال خيركم قرنى الحديث ذكره البخارى فى كتاب الأيمان والنذور وذكره فى كتاب الشهادات وسنده فى أعلى درجات الصحة وأبو جمرة المذكور فى السند هو بالجيم والراء نصر بن عمران .

ما يستنبط من الحديث

أولا : فضل الصحابة على سائر الأمة ثم التابعين ثم تابع التابعين لهم بإحسان .

ثانياً : ذم شهادة الزور وذم من يسارع إلى الشهادة قبل التأكد منها .

ثالثاً : ذم الخيانة ومدح الأمانة .

رابعاً : ذم عدم الوفاء بالنذر المباح وقد عرفت أثناء الشرح ذم النذر المحرم والمعلق .

خامساً : الاقتصاد فى المأكل والمشرب حتى لا يظهر السمن على الشخص

(راوى الحديث)

هو أبو نجيدة عمران بن حصين بن خلف الخزاعى البصرى أسلم عام خيبر سنة سبع من الهجرة وغزا مع النبى صلى الله عليه وسلم عدة غزوات

وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح بعثه عمر بن الخطاب إلى البصره ليفقه أهلها . كان من فضلاء الصحابة وفقهائهم وكان مجاب الدعوة مات بالبصرة سنة ٥٢ هـ .

الآيات والأحاديث التي تؤيد حديث الباب

قال الله تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . الآية من سورة آل عمران .

وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم الآية من سورة المائدة .

وقال تعالى محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود الآية من سورة الفتح وقال صلى الله عليه وسلم يأتي على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقال لهم أفيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم هل فيكم من رأى من صحب رسول الله فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم هل فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون نعم فيفتح لهم . رواه مسلم .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال صلينا المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قلنا لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء قال فجلسنا فخرج علينا فقال ما زلتم ههنا قلنا نعم قال أحسنتم ورفع رأسه إلى السماء وقال النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدن وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون . رواه مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي فوالذي

نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه . رواه البخارى ومسلم .

وعن أسير بن جابر أن أهل الكوفة وفدوا إلى عمر فقال هل ههنا أحد من القرنيين فجاء رجل فقال عمر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال إن رجلا يأتيكم من اليمن يقال له أويس لا يدع باليمن غير أم له قد كان به بياض فدعا الله فأذهبه عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم فمن لقيه منكم فليستغفر لكم رواه مسلم .

وقال تعالى فى مدح عباد الرحمن والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما .

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الكبائر قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور .

وروى البخاى عن عائشة رضى الله عنها قالت قال النبى صلى الله عليه وسلم من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه .

الحديث الثامن

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . وفر من المجذوم فرارك من الأسد فقام أعرابى فقال : أرأيت الإبل تكون فى الرمال أمثال الظباء فيأتيها البعير الأجرب فيجربها قال النبى صلى الله عليه وسلم فمن أعدى الأول ؟ رواه البخارى .

المعنى الإجمالى

يريد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبطل خرافات الجاهليين ويظهر فساد عقائدهم فبين أن العدوى لا تؤثر بذاتها وإنما هى خاضعة لإرادة الله تعالى كما نهى عن التشاؤم والتطير وبين أن الأمور تسير على وفق القدرة والإرادة الإلهية وأبطل زعم العرب فى أن المقتول تظهر له هامة تطالب بثأره وبعد أن صحح عقائدهم وأزال عنهم خرافات كانت تسيطر على عقولهم أرشدهم إلى الاحتياط الواجب فقال وفر من المجذوم كما تفر من الأسد فإن العدوى تنتقل من المريض إلى السليم إذا أراد الله لها الانتقال فأمرنا أن نحتاط لصحتنا فنبتعد عن المرضى الخطرين مع اعتقادنا أن كل شىء بيد الله فكم من شخص خالط المرضى فلم يصبه شىء وكم من شخص مرض من غير اختلاط بأحد فجزى الله عنا نبيه محمدا خير الجزاء .

المعنى التفصيلى

قال الرسول (لا عدوى) مؤثرة بذاتها والعدوى مجاوزة المرض صاحبه لغيره فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم ان يطهر عقيدة أمته من رجس الجاهلية وعقائدها الزائفة وخرافاتها الباطلة فنفى ما كان يعتقده الجاهليون من أن المرض ينتقل بنفسه من غير إرادة الله تعالى فيصيب الصحيح والعقيدة السليمة أن انتقال المرض لا يكون إلا بإذن الله فمن أراد الله له

استمرار صحته بقى سليما معافى ولو اختلط بالمرضى مهما اختلط ومن أراد له المرض نفذت إرادته ولو تباعد عن المرض مهما تباعد . غاية مافى الأمر أن المسلم يجب أن يحتاط لصحته ولا يلقى بنفسه إلى التهلكة لأن فى ذلك الاحتياط حفظا لدينه ومنعا لوسوسة الشيطان له . وبهذا البيان يجمع بين نفى الرسول العدوى وبين أمره بالفرار من المجذوم .

وقد جمع بعض العلماء بينهما من وجه آخر فقالوا : الناس قسمان قسم شديد التوكل على الله قوى الثقة به عنده من الروح المعنوية والقوة النفسية ما يحصنه ضد الأمراض ويدفع عن نفسه وساوس الشيطان وهذا القسم هو الذى يقال له لاعدوى ولا بأس من مخالطة أفراد هذا الفريق للمريض لأن له من نفسه مناعة ومن قوة يقينه عصمة ولذلك ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل مع مجذوم ثقة بالله وتوكلا عليه والقسم الثانى ضعيف النفس ضعيف الثقة بالله وهذا القسم هو الذى أمره الرسول بالفرار من المجذوم .

وجمع آخرون بين قوله لا عدوى وبين أمره بالفرار من المجذوم بأن حمل الأمر بالفرار على الاستحباب والاحتياط فقط لأن الحقيقة لا عدوى وأيد كلامه بأكل الرسول مع المجذوم فظهر جواز ذلك بفعله صلى الله عليه وسلم وسلك فريق آخر طريق الترجيح فنهم من رجح الأحاديث التى تدل على نفى العدوى وزيف الأخبار التى تدل على عكس ذلك فقالوا إن حديث الفرار من المجذوم شاذ وقد أنكرته عائشة فأخرج الطبرى أن امرأة سألتها عنه فقالت ما قال الرسول ذلك ولكنه قال لا عدوى وقال فمن أعدى الأول ؟ قالت عائشة وكان لى مولى به هذا الداء فكان يأكل فى صحافى ويشرب فى أقداحى وينام فى فراشى وأيدوا رأيهم كذلك بأن أبا هريرة تردد فى الحكم مع أن الحديث من روايته قال أبو سلمة فما رأيته نسى حديثا غيره وبأن أحاديث نفى العدوى أكثر وأرجح من أحاديث الفرار من المجذوم وفريق آخر رجح وجود العدوى وأثبت أحاديث الفرار من

المجذوم وروى فى ذلك حديث الباب وقد أخرج ابن ماجه حديثاً عن الرسول قال فيه لا تديموا النظر إلى المجذومين وقد أخرج أبو نعيم عن عبدالله ابن أبى أوفى مرفوعا كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمحين وأخرج الطبرى عن الزهرى أن عمر قال لمعيقيب وقد كان مجذوما اجلس منى قيد رمح . وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا قد بايعناك فارجع ورد هذا الفريق حديث، لاعدوى وأيد ذلك بما تقدم وبأن أباهريرة شك فى الحديث بعد كبره والأصح فى هذا المعترك الجمع بين الأحاديث بما سبق بيانه ما دام كل من الحديثين ثابتاً قال صاحب الفتح بعد أن أورد الحديثين : وفى طريق الجمع مسالك أخرى أحدها نفى العدوى جملة وحمل الأمر بالفرار من المجذوم على التخفيف عنه لأنه إذا رأى الصحيح البدن السليم من الآفة تعظم مصيبته وتزداد حسرته وثانيها حمل الخطاب بالنفى والإثبات على حالتين مختلفتين فحيث جاء لاعدوى كان المخاطب بذلك من قوى يقينه وصح توكله بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى كما يستطيع أن يدفع التطير الذى يقع فى نفس كل أحد لكن القوى اليقين لا يتأثر به وهذا مثل ما تدفع قوة الطبيعة العلة فتبطلها وحيث جاء فر من المجذوم كان المخاطب بذلك من ضعف يقينه ولم يتمكن من تمام التوكل فلا يكون له قوة على دفع اعتقاد العدوى فأريد بذلك سد باب اعتقاد العدوى عنه بأن لا يباشر ما يكون سبباً لإثباتها وقريب من هذا كراهية النبى صلى الله عليه وسلم الـكى مع إذنه فيه وقد فعل هو صلى الله عليه وسلم كلا الأمرين لتيأسى به أفراد كل من الطائفتين انتهى كلام ابن حجر . وقد ذهب عمر وجماعة من السلف إلى جواز الأكل مع المجذوم ورأوا أن الأمر باجتنابه منسوخ وتابعهم على هذا الرأى عيسى بن دينار من المالكيه . ولكن لا يصح القول بالنسخ مع إمكان الجمع وعدم معرفة المتقدم منها والمتأخر . وقال القاضى أبو بكر الباقلانى لاعدوى فى أى مرض إلا مرض الجذام وهو

معارض بالواقع المشاهد فإن هناك أمراضا تنتقل إلى الغير كالحمى والإنفلوانزا وغير ذلك من الأمراض المعدية المشهورة فتخصيص العدوى بالجذام دعوى يناقضها الواقع وتحتاج إلى الدليل ولا دليل بل هناك دليل فى غير الجذام هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم لا يوردن ممرض على مصح أى لا يصح لصاحب إبل مريضة أن يأتى بها لورود الماء على إبل صحيحه لئلا ينتقل الجرب من الأولى إلى الثانية بدليل قوله فى الأحاديث الأخرى فيأتيها البعير الاجرب فيجربها ومن هذا نشأ الحجر الصحى المعروف قال القرطبى إنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إيراد الممرض على المصح مخافة الوقوع فيما وقع فيه أهل الجاهلية من اعتقاد العدوى أو مخافة تشويش النفس وتأثير الوهم وهو نحو قوله فر من المجذوم لأننا وإن كنا نعتقد أن الجذام وغيره لا يعدى بنفسه لكنا نجد فى أنفسنا نفرة وكراهية لمخالطته حتى لو أكره إنسان نفسه على القرب منه وعلى مجالسته لتأذت نفسه بذلك فالأولى للمؤمن أن لا يتعرض إلى ما يحتاج فيه إلى مجاهدة فيجتنب طرق الأوهام ويباعد أسباب الآلام مع أنه يعتقد أن لا ينجى حذر من قدر والله أعلم انتهى كلام القرطبى .

(ولا طيرة) الطيرة التشاؤم كما ستعرفه وسمى بذلك لأن العرب فى الجاهلية كانوا يزجرون الطير فإن مر على اليمين تفاءلوا به خيرا وإن مر على الشمال تشاءموا منه ورجعوا عن مقاصدهم من تجارة وسفر وغيرهما فنهى الرسول عنه وأبطله وأخبر أنه ليس له تأثير فى جلب نفع أو دفع ضر أو تغيير قدر وقد أدرك هذا بعض العرب قبل الإسلام فقال شاعر : —

الزجر والطير والكهان كلهم   مضللون ودون الغيب أقفال

وقال آخر هو لبيد :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى   ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ولكن أكثر العرب كانوا يتطيرون ويعتمدون على ذلك وقد يأتى التطير فى كثير من الأحيان حسب الهوى وصالح الناس لتزيين الشيطان لهم ولتتمكن الخرافة فى نفوسهم وبقيت من هذه الخرافة بقايا عند كثير من

المسلمين وإن كانت ذات ألوان مختلفة فكل مايدعى فيه معرفة المستقبل باطل وضلالة كالودع المعروف الذى يضربه الناس وسيما النساء والرمل الذى يخطونه خطوطاً وقراءة الكف والورق وغير ذلك من الأمور المنهى عنها شرعاً . وكان العرب يسمون الطير السانح والبارح فالسانح ما ولاك ميامنه بأن يمر من يسارك إلى يمينك وكانوا يتيمنون بهذا والبارح ما ولاك مياسره بأن يمر من يمينك إلى يسارك وكانوا يتشاءمون به والحقيقة أنه لا ضرر فى ميامن الطير ولا مياسره لأنه لا نطق للطير ولا تمييز حتى يستدل بفعله على خير أو شر وإنما هو تكلف بتعاطى ما لا أصل له ولا دليل على حقيقته وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله .

والتطير قد يأتى عفوا من غير قصد ويهجم على القلب من غير مقدمات وهذا لا حرمة فيه لأنه لا يقع تحت الاختيار إنما المنهى عنه فى هذه الحالة ما يترتب عليه من أفعال العبد بأن يرجع عن سفر أنشأه لأجل التشاؤم أو يقع فى قلبه اعتقاد فى غير الله وتأثيره . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد قيل فما المخرج منها يا رسول الله قال فإذا تطيرت فلا ترجع وإذا حسدت فلا تبغ وإذا ظننت فلا تحقق . أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن اسماعيل بن أمية ويؤيده ماروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

إذا تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا . وأخرج أبو داود والترمذى وصححه عن ابن مسعود قال الطيرة شرك وما منا إلا تطير . ولكن الله يذهبه بالتوكل . وإنما حكم عليه ابن مسعود بأنه شرك لأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع ضراً . وفى قوله ولكن الله يذهبه بالتوكل إشارة إلى أن من وقع له ذلك فسلم لله ولم يعبأ بالطيره أنه لا يؤاخذ بما عرض له .

فالعلاج الوحيد الذى يذهب عن النفس داء التشاؤم هو التوكل على الله تعالى واعتقاد أنه مالك الملك إليه يرجع الأمر كله فهو النافع الضار وحده لا شريك له .

وقد أخرج البيهقي فى الشعب من حديث عبد الله بن عمرو قال من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك .

ولا يزال بعض ضعاف الإيمان وجهلة المسلمين يتطيرون فتراهم يتشاءمون بصوت الغراب ورؤية الكلب الأسود ذى العيون الأربعة وصوت البومة وغير ذلك مما لا تأثير له أصلا ولا علاقة له بنفع أو ضر .

أما الفأل الحسن فقد روى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لا عدوى ولا طيره ويعجبنى الفأل الصالح : الكلمة الحسنة . وقد أخرج أبو داود عن عروة بن عامر . قال ذكرت الطير عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال خيرها الفأل ولا ترد مسلما فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله قال صاحب الفتح ناقلا عن غيره من العلماء : جعل الله فى فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافى وشرط الفأل أن لا يقصد إليه بل يأتى عفوا ويقع فى الأذن من غير قصد .

وأخرج الترمذى وصححه من حديث أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج لحاجته يعجبه أن يسمع يانجيح يا راشد . واعلم أن التشاؤم موجود فى كل الإمم عربها وعجمها غاية ما فى الأمر أن الذى يتشاءم منه مختلف باختلاف البيئات والحوادث التى مرت فى تاريخ الأمم والأفراد . كما يتشاءم بعض الغربيين من العدد ١٣ وغير ذلك من الخرافات التى لا حقيقة لها .

(ولا هامه) بتخفيف الميم وقد رواها بعض الشراح بتشديدها ولكن المعنى لا يستقيم عليها لأن الهامة بالتشديد إحدى الهوام ، ولا معنى لنفى الهوام والحشرات مع وجودها حسا وواقعاً .

فالصحيح أنها مخففة . وقد كان العرب فى الجاهلية يقولون : إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثاره خرجت من رأسه هامة وهى دودة تدور حول قبره تقول اسقونى اسقونى اسقونى . فإن أدرك ثأره ذهبت وإلا بقيت . وفى ذلك يقول شاعرهم :

ياعمرو وألا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

وقال ابن الأعرابى الهامة طائر ليـــلى وكانوا يتشاءمون بالبومة وإذا وقفت على بيت أحدهم يقول هى تخبر عن موتى أو موت أحد من أهلى .

وقال أبو عبيد كانوا يزعمون أن روح الميت أو عظامه تصير طائراً ويسمونه الهامة وبعضهم يسميه بالصدى فنفى الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك كله وقوله ولا صفر . قال البخارى الصفر بفتحتين داء يأخذ البطن . وقد سأل يونس بن عبيد رؤبه بن العجاج عنها فقال هى حية تكون فى البطن تصيب الماشيه والناس وهى عند العرب أعدى من الجرب .

والمراد بنفيها على هذا المعنى ما كانوا يعتقدونه فيه من العدوى المؤثرة بذاتها . وقد رجح البخارى تفسير الصفر بهذا لكونه قرن بالعدوى فى الحديث ورجح الطبرى هذا القول واستشهد له بقول الأعشى :

* ولا يعض على شرسوفه الصفر *

والشرسوف بضم المعجمة وسكون الراء ثم سين مهملة الضلع .

والصفر دود يكون فى الجوف فربما عض الضلع أو الكبد فقتل صاحبه وقيل الصفر جوع شديد يتبعه ألم وربما أدى إلى مرض الاستسقاء واجتماع الماء فى البطن من غير تصريف له فكان العرب يتوهمون أن هذا الداء من دودة باطنيه مؤثرة بذاتها من غير إرادة الله تعالى فنفى الرسول ذلك . ومن هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم صفرة فى سبيل الله خير من حمر النعم أى جوعة فى الجهاد .

(١) وقال ابن الأثير فى النهاية الصفر اجتماع الماء فى البطن كما يعرض للمستسق يقال له صفر بضم الصاد فهو مصفور . ومنه حديث ابن مسعود أن رجلا أصابه الصفر فوصف له النبيذ .

وهناك رأى آخر هو أن المراد بقوله ولا صفر هو الشهر المعروف بذلك بعد المحرم لأن العرب كانت لحبها فى القتال لا تستطيع أن تترك ثلاثة شهور متوالية ذى القعدة وذى الحجة والمحرم فكانت تحتال فى ذلك فتحل القتال فى المحرم وتحرم بدله صفرا فنهى الله عن ذلك بقوله : إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً الآية من سورة التوبة . والنسىء فى الآية هو تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر . ونهى الرسول كذلك عنه فى الحديث .

وهذا القول مروى عن الإمام مالك كما نقله ابن بطال .

وقوله صلى الله عليه وسلم (وفر من المجذوم) أى المريض بداء الجذام عافانا الله وإياكم منه (فرارك من الأسد) هو مصدر تشبيهى أى كفرارك من الأسد وإنما خص الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحيوان لأنه أشد الحيوان افتراساً . وقد أبدى بعض الشراح حكمة أخرى نقلها عن الأطباء فقال خص الأسد لأن ميكروب الجذام شبيه بالأسد فى صورته فإن صح ذلك كان علامة من علامات النبوة إذ المعروف أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتلقن أية معلومات على معلم من أى باب كان من أبواب التعليم ولم يكن عند العرب أدوات دقيقة فى الطب حتى يعرف شكل الميكروب وصورته .

والجذام علة رديئة تحدث من انتشار المرارة السوداء فى البدن كله فتفسد الأعضاء وربما أدت إلى تآكل الأطراف . ولذلك قال ابن سيده سمى الداء بذلك لتجذم الأصابع وتقطعها نسأل الله العافية لنا وللمسلمين ولما نفى الرسول العدوى قام أعرابى فقال (أرأيت) أى أخبرنى عن حقيقة الأمر فإن الذى أشاهده خلاف ما تقول يا رسول الله فإن الإبل تكون

فى الرمال أمثال الظباء قوة ونشاطاً ورشاقة وجمالا (فيأتيها) ويخالطها (البعير الأجرب) الذى به الجرب وهو عبارة عن ميكروب يسمى قرادة الجرب يدخل الجسم من المسام ويخرقه ويستقر تحت الجلد ويحدث ألماً يزيد بالحك وملامسة الثياب الخشنة . ولذلك رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير بن العوام لبس الحرير من حكة كانت به .

قال (فيجربها) أى ينقل لها العدوى فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم بجواب مقنع فقال (فمن أعدى الأول) أى إذا كانت العدوى تنتقل بنفسها من غير إرادة الله كما تزعمون فمن الذى أمرض الأول . وهذا جواب فى غاية الإقناع والبلاغة .

ثم اعلم أن هناك روايات زادت على نفى العدوى والطيرة والهامة والصفر فقالت لا نوء ولا غول . أما النوء فهو اسم للنجم أو اسم لطلوعه أوغروبه.

قال أهل اللغة : النوء سقوط نجم فى المغرب من منازله مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته ، وإنما سمى نوءا لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق مأخوذ من ناء ينوء نوءا إذا نهض وطلع أو سقط أو غرب وفى هذا يقول ابن عباس فى امرأة طلقت زوجها خطأ الله نوءها أى أنها لم يقع طلاقها حيث طلقت زوجها وكان الأولى أن تطلق نفسها ما دامت العصمة فى يدها فشبه ابن عباس أمرها بمن ظن المطر فى النوء فأخطأه كخطأ من قالوا هذا عارض ممطرنا فإذا به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى النجوم ولذلك ورد فى الحديث القدسى أصبح من عبادى مؤمن وكافر فأما من قال مطرنا بنوء كذا فهو كافر بى مؤمن بالكواكب . وأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب رواه البخارى .

وقد جعلها الرسول من سمات الجاهليين فقال ثلاث من أمر الجاهلية الطعن فى الأنساب والنياحة والأنواء . فمن اعتقد أن للنجم طلوعا أوغروبا

أثراً فى المطر أو فى غيره من سائر الحوادث الأرضية أو العلوية كان كافراً لأن الله وحده هو الخالق لكل شىء المؤثر فى كل شىء وأما من قال إن هذه لا تعدو أن تكون علامات عادية على وجود المطر وقد يتخلف فهذا لا ضرر فيه على الإيمان .

لهذا جاء الإسلام فأبطل ما كان يعتقده أهل الجاهلية من تأثير النوء فى الأمطار والرياح بغير إرادة الله تعالى . أما إن جعل الإنسان الهواء علامة عادية على المطر أو جعل نجما دلالة على المطر بمعنى أن يعتقد أن العادة جرت بخلق الله المطر فى مثل هذه الحالة فلا بأس بذلك ما دام التأثير فى الكون راجعاً إلى الله تعالى .

وأما الغول فهو بضم الغين أحد الغيلان وهى جنس من الجن والشياطين وكانت العرب تزعم أن الغول تظهر فى الفلا . وتتراءى للناس وتتلون لهم على أشكال مختلفة وتتغول تغولا أى تتلون تلونا فى صور شتى وتضلهم عن الطريق وتغولهم وتهلكهم فنفى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وأبطله وهذا ليس نفياً لوجود الغول وإنما هو نفى لزعم العرب فيه ويؤيد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

إذا تغولت الغيلان فنادوا بالأذان أى ادفعوا شرها بذكر الله ويؤيد وجود الغول حديث أبى أيوب قال كانت لى سهوة فيها تمر فكانت الغول تجىء فتأكل منه . والمغول بكسر الميم الخنجر وهو أشبه بسيف قصير يشتمل به الشخص تحت ثيابه فيغطيه . ومن ذلك حديث أم سليم قالت : رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيدى مغول فقال ما هذا قلت مغول أبعج به بطون الكفار أى أشقها .

وقد نفى الرسول هذه الأشياء كلها وأبطل تأثيرها ليطهر عقيدة المسلم من الزيغ والخرافات الباطلة ويوجه المسلم إلى ربه حنيفياً مخلصاً لا يدعو إلا ربه ولا يخاف إلا ذنبه فجزاه الله عن أمته خير ما جازى نبياً عن أمته .

لا نافية للجنس تعمل عمل إن وعدوى اسمها فى محل نصب وخبرها محذوف والتقدير لا عدوى مؤثرة بذاتها وكذلك الإعراب فى أخواتها المذكورات وقوله وفر فعل أمر والفاعل أنت ويقصد به كل من يصلح للخطاب من الأمة وقوله فمن أعدى الأول الفاء واقعة فى جواب شرط مقدر حاصله إذا كان المرض لا يأتى إلا من العدوى فمن الذى أمرض الأول ومن اسم استفهام مبنى على السكون فى محل رفع مبتدأ والجملة خبره والأول مفعول به وهو فى الحقيقة وصف لموصوف محذوف تقديره فمن أعدى البعير الأول وجملة لا عدوى ولا طيرة إلى آخره جملة خبرية فكيف وصل بينها وبين قوله وفر مع أنها إنشائية وكان الواجب الفصل لاختلافهما خبراً وإنشاء فبينهما كال الانقطاع إلا أنه لما تضمنت جملة لا عدوى النهى الإنشائى كأنه قال لا تفر لأنه لا عدوى صح الوصل لأنهما أصبحتا إنشائيتين.

وأما الوصل بين الجمل الأولى لا عدوى ولا طيرة إلخ فلأن بينها التوسط بين الكمالين فهى متفقة فى كون كل منها خبرية لفظا والتناسب بين الجمل ظاهر لأن الجميع يدخل تحت كلمة خرافة أو عقيدة باطلة والهمزة فى قول الأعرابى أرأيت للاستفهام والرؤية بصرية فتحتاج إلى مفعول واحد هو الإبل ثم نقل الكلام من الاستفهام إلى الأمر فكأن المعنى أخبرنى ففيها مجازان وضع الرؤية وإرادة الإخبار لأن الشىء العجيب إذا رئى كان من العادة أن يخبر عنه فوضع السبب وأراد المسبب من باب المجاز المرسل التبعى وكذلك وضع الاستفهام وهو طلب الفهم وإرادة الأمر مجاز آخر علاقته التقييد ثم الإطلاق لأنه أراد مطلق الطلب ففى الكلمة مجازان.

قال أهل اللغة: العدوى ما يعدى من جرب أو غيره وهى مجاوزة المرض وانتقاله من صاحبه إلى غيره يقال فى المرض أعدى فلان فلانا من علة به ويقال فى الخلق أعدى فلان فلانا من خلقه والعدوى تطلق ويراد بها

لجوؤك إلى رئيس ليعديك على من ظلمك أى ينتقم منه يقال منه استعديت الأمر على فلان فأعدانى أى استعنت به عليه فأعانى ولكنه غير مراد فى الحديث قال فى القاموس العدوى الفساد وعدا اللص على البيت عداء سرقه والعدوة شاطىء الوادى وتعادى القوم عادى بعضهم بعضاً والطيرة بوزن العنبة ما يتشاءم به من الفأل الردىء ومنه قوله تعالى قالوا اطيرنا بك بتشديد الطاء أى تشاءمنا برسالتك يقال تطير من الشىء وبالشىء إذا تشاءم منه وقد تأتى الطيرة مصـــدر تطير تطيراً وطيرة مثل تخير خيرة واستطار الفجر انتشر واستطير الفرس أسرع فى الجرى وطار طائره غضب ويقال كأن على رءوسهم الطير أى ساكنون هيبة .

والهامة الرأس وتطلق على طائر الليل وجمع الهامة هام ويعبر به عن الأشراف وليس مراداً هنا وقلب مستهام هائم والهم بكسر الهاء الشيخ الفانى والأهوم العظيم الهامة والهيم الإبل العطاش ورجل هائم أى متحير .

والصفرة . قال فى القاموس الصفرة بفتح الصاد الجوعة والجائع مصفور والصفراء الذهب والصفر بالتحريك داء فى البطن يصفر الوجه وتأخير المحرم إلى صفر وحية فى البطن تلزق بالضلوع فتعضها والصفر بضم الصاد النحاس والذهب وآنية صفر خالية ويقال للشهر بعد المحرم صفر لخلو مناسك الحج وأماكنه من العابدين .

(والمجذوم) الذى به داء الجذام يقال منه جذم الرجل بكسر الذال صار أجذم وهو المقطوع اليد وبابه طرب ومنه الحديث من تعلم القرآن ثم نسيه لقى الله وهو أجذم . والجذم بالكسر الأصل قال فى القاموس الأجذم المقطوع اليد أو الذاهب الأنامل .

(والأسد) الحيوان المفترس المعروف جمعه آساد وأسود وأسد الرجل كفرح صار كالأسد وأسد كضرب أفسد بين القوم واستأسد صار كالأسد والعرب بالتحريك وبالضم خلاف العجم وهم سكان الأمصار والأعراب

منهم سكان البادية لا واحد له والإعراب الإبانة والإفصاح عن الشيء والإعراب أن لا تلحن فى كلامك ويعرب بن قحطان أبو اليمن قيل هو أول من تكلم بالعربية .

والإبل كما عرفت من اسماء الجموع لا واحد لها من لفظها وهى مؤنثة لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم كذا فى الصحاح وفى القاموس الإبل بكسرتين وتسكن الباء معروف واحد يقع على الجمع وليس بجمع وتأبل إبلا اتخذها وأبابيل فرق بكسر الفاء جمع بلا واحد .

(والظباء) جمع ظبي والظبه حد سيف أو سنان وكثيراً ما يشبه الجميل بالظبي لرشاقته وخفته ونشاطه فهنا شبه الإبل القوية النشيطة السريعة الحركة بالظباء . وفى إسناد يجرب إلى البعير إسناد مجازى عقلي لأنه أسند الفعل إلى غير ما هو له ومن راعى اعتقاد المتكلم من البلغاء جعله حقيقة لأن العربى كان فى اعتقاده أن البعير يؤثر فى الآخر فيحدث له الجرب ولكن الحق أن المريض سبب فقط وهو سبب عادي . وأما الذى يحدث الجرب ويؤثر بل ويخلق جميع الأشياء هو الله سبحانه .

سند الحديث

روى البخارى فى صحيحه قال حدثنا سليم بن حيان حدثنا سعيد بن ميناء قال سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عدوى الحديث .

وأما زيادة النوء والغول فمن رواية مسلم وكل الروايات صحيحة لأن البخارى اشترط لصحة الحديث أن يروى عن عدل تام الضبط مع اتصال السند وعدم الشذوذ وعدم العلة واشترط المعاصرة وثبوت التلقى بين كل راو وشيخه وكذلك مسلم ماعدا ثبوت اللقى فأحاديث البخارى ومسلم صحيحه لاشك فى ذلك إلا عند سقيم الرأى أو مدخول العقيدة .

أغراض الحديث وأحكامه

أولا : نفي تأثير الأمراض بذاتها وبيان أن الأمر كله لله .

ثانياً : وجوب الاحتياط في مخالطة المرضى .

ثالثاً : إصلاح العقيدة وتطهيرها من خرافات الجاهلية .

رابعاً : الأفضل لمن به مرض منفر أو مؤذ أن يعتكف عن الناس ولا يخالطهم وليس عليه جمعه ولا جماعة .

خامساً . إثبات حق الفسخ لكل من الزوجين إذا وجد بصاحبه جذاما.

نبذة عن حياة أبي هريرة

تقدم لك كثير منها في الحديث الرابع فارجع إليه إن شئت . ونزيد على ما تقدم بأن أبا هريرة كان له قصب السبق في تدوين الحديث فقد شاع بين الناس أن أول من جمع الحديث هو محمد بن شهاب الزهري بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي على رأس القرن الأول الهجري ولكن الباحث المدقق يرى أن أول من أملى الحديث وسعى إلى تدوينه بعد عبد الله بن عمرو بن العاص هو صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم أبو هريرة .

وذلك أنه ثبت عند البخاري أن أبا هـــريرة أملى صحيفته التي سماها الصحيفة الصحيحة على همام التابعي وفيها ما يقرب من أربعين ومائة حديث وقد كان أبو هريرة موضع نقد من المتطرفين والمدخولين قديماً وحديثاً وهو من كل شبههم براء ولولا ما كان يقرأه من كتاب الله تعالى في حق كاتم العلم لم يحدث بحديث واحد فالله يقول إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم. الآيات من سورة البقرة ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم من كتم علما عن أهله ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة .

الآيات والأحاديث التي تؤيد حديث الباب

قال الله تعالى : ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون . الآية آخر سورة هود .

وقال تعالى : ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم . الآية من سورة التغابن .

وقال تعالى : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين الآية من سورة البقرة . وقال تعالى ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما الآية من سورة النساء .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق بشيء وكل إليه . أخرجه النسائي . وقال صلى الله عليه وسلم : من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً . أخرجه مسلم . ونقلته من كتاب تيسير الوصول .

وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب قيل من هم يارسول الله قال الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة رضى الله عنه فقال ادع الله تعالى أن يجعلني منهم قال أنت منهم فقام آخر فقال يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة . أخرجه مسلم .

وعن أسامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها أخرجه الترمذي .

(الحديث التاسع)

روى أبو داود بسنده قال خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر رضى الله عنهم فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير فقال معاوية لابن عامر اجلس فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

من سره أن يمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار .

المعنى الإجمالى

ينهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن حب المؤمن قيام الناس له تعظيماً لأن ذلك ينبىء عن كبره فى نفسه . واعتقاده أنه يستحق القيام له إجلالا وإكباراً لما يراه فى نفسه من عظمة فى جاه أو كثرة فى مال أو علو فى نسب أو ما شابه ذلك من زخرف الحياة وغرورها . وقد هدد الرسول أرباب هذه الأهواء التى تحملهم على التعالى والتكبر وحب قيام الناس لهم بدخول النار والاستقرار فيها كما يستقر الإنسان فى مقعده نعوذ بالله من عذابه وسطوة عقابه .

المعنى التفصيلى

خرج معاوية وهو الخليفة الأموى المعروف على ابن الزبير وهو عبدالله ابن الزبير بن العوام ابن اسماء بنت أبى بكر وهو أول مولود فى المدينة بعد الهجرة وقد بويع بالخلافة مدة حتى غلبه الحجاج بن يوسف فى مكة وقتله وصلبه وكان من فقهاء الصحابة . وكان مع ابن الزبير ابن عامر رضى الله عن الجميع فلما دخل عليهم معاوية قام ابن عامر وجلس ابن الزبير فقال معاوية لابن عامر يبين له الحكم الشرعى ويبلغه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى سمعه بنفسه منه فقال سمعت رسول الله يقول (من سره) أى من أدخل السرور فى قلبه (أن يمثل) أن يقوم له الرجال من مجالسهم تعظيما له واحتراماً (فليتبوأ) فليتخذ مكانه الذى يستقر فيه فى النار .

والعلماء مختلفون فى حكم القيام للناس مع اتفاقهم فى أن من أحب ذلك من نفسه وسره أن يقوم الناس إعظاماً له فهو فى النار ولما كان هذا داء وبيلا من أدواء المجامع أحببت أن أفصل القول فيه لأنى وجدت مشاكل تقع بين الناس من جراء جهلهم بحكم القيام شرعاً وقد تنبت الضغينة بين شخصين لمجرد أن أحدهما لم يقم للآخر وربما كان الجالس أشد تقديراً وأكثر حباً للقادم من الذى هلل وكبر وقام وقعد . فالعبرة بالقلوب لا بالصور وبالنيات لا بالأشكال .

ذهب بعض العلماء إلى حرمة القيام مطلقاً عملا بظاهر هذا الحديث الذى ساقه معاوية لابن عامر وأخبره أنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن معاوية أنكر على من قام له وذكر له الحديث فدل ذلك على أن القيام ممنوع ومحرم لأن فيه تهديداً بدخول النار ولم يراجعه فى ذلك أحد من الحاضرين فدل ذلك على إقرارهم له وإجماع الحاضرين عليه . وناقش العلماء الذين يرون جواز القيام هذا الاستدلال فقالوا إن الحديث لا يدل إلا على أن القادم يحرم عليه أن يفرح لقيام الناس له وأن يقصده فى نفسه ويوطنها على حبه . ولم يتعرض الحديث لحكم القائم . ولذلك قال الطبرى إن هذا الحديث إنما فيه نهى من يقام له عن السرور بذلك لا نهى من يقوم له إكراماً وتعظيما . ورجح الإمام النووى جواب الطبرى . وقال إنه الذى لا حاجة لما سواه فإن معنى الحديث زجر المكلف أن يحب من قلبه قيام الناس له وليس فيه تعرض للقيام بنهى ولا بغيره بل المنهى عنه فيه محبة القادم للقيام فلو لم يخطر بباله فقاموا له فلا لوم عليه وإن أحب ارتكب الحرمة سواء قاموا أو لم يقوموا اهـ .

كذلك استدل المانعون بما روى عن أنس رضى الله عنه قال :

لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته لذلك . أخرجه الترمذى فلو كان القيام جائزاً للتكريم لما تركه الصحابة عند رؤيتهم للرسول وأجاب المجيزون

القيام عن هذا الحديث بأنه منعهم من القيام خوف الفتنة لهم إذا أفرطوا فى تعظيمه وربما أدى الإفراط فى التعظيم إلى المغالاة فى قدر النبوة فرفعوه فوق النبوة إلى الألوهية كما فعل النصارى نحو عيسى بن مريم . ولأجل هذا الخوف عليهم منعهم من المبالغة فى مدحه فقال :

لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم أخرجه الزبيدى فى تيسير الوصول .

أو أنهم لم يكونوا يقومون له لأنه كان بينه وبين أصحابه من الأنس وكمال الود والصفاء ما لا يحتمل زيادة الإكرام بالقيام . كما يحدث بين الأصحاب الصادقين حيث ترفع بينهم الكلفة وتختفى بينهم المظاهر .

كذلك استدل العلماء الذين يرون حرمة القيام بما روى عن أبى أمامة رضى الله عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على عصا فقمنا إليه فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضاً . أخرجه ابو داود وأجاب المجيزون بأن القيام المنهى عنه هو القيام المشبه لقيام الأعاجم وهو قيام الناس على رأس الحاكم أو بين يديه كما يفعل الحجاب وخدام الملوك إظهاراً للعظمــــة والكبرياء وهى حال لا تتناسب مع المساواة التى قررها الإسلام والإسلام يدعو إلى التواضع وإهمال المظاهر الكاذبة ودواعى الكبرياء الممقوت وطعن بعضهم فى سند حديث أبى أمامة وفى متنه فقالوا إن الحديث ضعيف مضطرب السند فيه مجهول لا يعرف فلا يجوز الاحتجاج به على تحريم القيام .

وبعد أن ناقش المجيزون أدلة المانعين أوردوا أدلة للجواز أيضاً فقالوا ثبت من حديث أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار فى غزوة بنى قريظة حينما رأى سعد بن معاذ سيد الأوس مقبلا على ناقته قال لهم قوموا إلى سيدكم .

قال الإمام مسلم لا أعلم فى قيام الرجل للرجل حديثاً أصح من هذا .

وناقشه المانعون فقالوا إنما أمرهم الرسول بالقيام فى هذه الحالة لأن سعدا كان مريضاً يحتاج إلى من يعاونه على النزول بدليل الرواية الأخرى قوموا إلى خيركم فأنزلوه. ورد عليهم المجيزون بقولهم لو كان الأمر بالقيام لأجل المرض لما خص به الرسول الأنصار دون سواهم من الصحابة فإن عمل البر لا يختص به قوم دون قوم ورد على هذا بأن سعدا كان رئيس الأوس فأصحابه أولى بإنزاله لكى لا يتضرر غيرهم أو يتكلف .

واستدل المجيزون أيضاً بحادثة كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما تاب الله عليه أقبل كعب إلى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم فى المسجد فلما رآه طلحة بن عبيد الله قام فاستقبله وهنأه ولم ينكر الرسول على القائم وصار كعب يذكرها لطلحة طول حياته ويعرفها له .

وكذلك استدلوا بما أخرجه النسائى عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى فاطمة ابنته قد أقبلت رحب بها ثم قام فقبلها ثم أخذ بيدها حتى يجلسها فى مكانه . وناقشه المانعون فقالوا إنما قام لها الرسول لضيق المكان ليجلسها مكانها كما عرف عن السلف الأول من ضيق البيوت وقلة الفراش فيها فكانت إرادة إجلاسه لها فى موضعه وتكريمها بفراشه مستلزمة لقيامه .

وقد استدل المجيزون بعمومات الأحاديث التى تأمر بإنزال الناس منازلهم وإكرام ذى الشيبة وتوقير الكبير .

وها أنت ذا أيها القارىء قد سمعت أدلة الفريقين فوقعت فى حيرة ولم تدر ما حكم الإسلام فى القيام وهأنذا أدلك على طريق أوضح فأقول :ـ

القيام أنواع. قيام كقيام الأعاجم على رءوس ملوكهم من غير ضرورة وهذا لا أشك فى تحريمه لظاهر الحديث الذى سمعته عن أبى أمامه وهو يوافق القاعدة التى وضعها الإسلام فى وجوب مخالفة الوثنيين والكتابيين من

اليهود والنصارى فى كل مظاهرهم وشعاراتهم التى يتميزون بها .

النوع الثانى قيام لضرورة كمعاونة لمريض أو لقاء مسافر قدم من سفره وهذا النوع لا أشك فى جوازه عملا بالقاعدة المعروفة وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان فإن القرآن يحث على التعاون فى كثير من آياته .

النوع الثالث : القيام لاحترام القادم وهذا النوع إن كان مبعثه القلب واحترام القادم ولا كلفة فى القيام وأمنت فيه الفتنة على القادم فالأظهر جوازه .

أما إن كان القائم يقوم مداهنة أو رياء أو كان يقوم لفاسق أو صاحب جاه تملقا أو تكلفاً أو أدى قيامه إلى غرور فى القادم فالأظهر تحريمه لما يجر معه من فساد .

بهذا التفصيل يمكن الجمع بين الأحاديث الواردة فى النهى عن القيام وبين الأدلة التى تدل على الجواز . وإنى أرجو من كل قلبى أن تزول هذه المظاهر من مجالس المسلمين فقد أصبح القيام فى هذا العصر متكلفا يحمل على النفاق ويفعل إكراماً للفساق والمترفين .

اللغة والإعراب

فى عطف جملة جلس ابن الزبير على جملة قام ابن عامر مطابقة وهى من أنواع البديع الحسنة لأن الجلوس ضد القيام والفاء فى قوله فإنى سمعت إلخ تعليلية. ومن فى قوله من سره شرطيه وسره فعل الشرط وقوله فليتبوأ مقعده جواب الشرط وقرن بالفاء لأنه أصبح طلبيا بدخول لام الأمر على المضارع وقياما حال من الرجال، أو مفعول مطلق ، لأن يمثل بمعنى يقوم . ومقعد اسم مكان .

قال فى القاموس سره سروراً وسرا بالضم وسرى كبشرى ومسرة أى أفرحه والسر ما يكتم كالسريرة جمعه أسرار وسرائر ومثل بالفتح قام منتصبا كمثل بالضم مثولا وقال فى الصحاح مثل بين يديه انتصب قائماً وبابه دخل ومثل به نكل به ومثل بالقتيل قطع أطرافه ومثل له كذا تمثيلا إذا صور له مثاله بالكتابة وهؤلاء أماثل القوم أى خيارهم. وأما قوله صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا الممثلون فمعناه المصورون والمثال عند أهل اللغة المقدار والأمثل الأفضل وأمثلهم طريقة أعدلهم والمثلة بضم الثاء العقوبة والماثل من الرسوم ما ذهب أثره .

(فليتبوأ) باء إليه رجع أو انقطع وباء بذنبه أقر به وبوأه منزلا أنزله والمباءة المنزل وبوأه منزلا هيأه ومكن له فيه وباءوا بغضب من الله رجعوا به والباءة النكاح وأما قوله صلى الله عليه وسلم الجراحات بواء أى سواء فى القصاص لا يؤخذ إلا ما يساويها فى الجرح .

أغراض الحديث

أولا : تمسك الصحابة رضوان الله عليهم بشريعتهم .

ثانياً : النهى عن المنكر عند وقوعه وعدم المداهنة فى دين الله .

ثالثاً : علو منزلة معاوية بصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسماعه منه وتبليغه لما سمع وعدم قبوله لاحترام ينافى ما علم من الشرع .

رابعاً : فضيلة عبد الله بن الزبير حيث لم يقم عند قدوم الخليفة اتباعاً للشرع .

خامساً : بث العزة فى نفوس المسلمين وتطهيرهم من الملق والنفاق .

سادساً : حرمة التشبه بالأعاجم الكفار فيما يضر دينا ودنيا .

الآيات والآثار التي تؤيد الحديث

قال الله تعالى قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد متفق عليه .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نهينا عن التكلف رواه البخارى .

وعن بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل . رواه أبو داود بإسناد صحيح وإذا كان مجرد تعظيم الفاسق بالقول محرما فما بالك بالقيام له وتعظيمه وإجلاسه فى صدور المجالس .

الحديث العاشر

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين . رواه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء باب المناقب .

المعنى الإجمالى

يفصح الرسول عن منزلته من الأنبياء السابقين وعن مركز شريعته بين الشرائع المتقدمة فيبين أن الشرائع لم تكمل إلا بشريعته الغراء وأن الأنبياء لم يختموا إلا به وأن النبوات قد ختمت بنبوته وأن عقلاء الأمم كانوا يشعرون ويدركون هذا النقص قبل بعثة محمد فلما أرسل الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم سد هذا النقص وأكمل حاجات الأمم بدين سماوى كامل شمل قوانين السعادة الدنيوية والأخروية وصلح لكل زمان ومكان ولكل أمة ولكل جنس ولون فنعم الإسلام ونعم نبى الإسلام ونعم الله رب العالمين .

المعنى التفصيلى

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : إن مثلى ومثل الأنبياء المراد بالمثل الصفة العجيبة الشأن التى يوردها البليغ فى كلامه تقريباً للأفهام وليس المراد بالمثل هنا المثل السائر الذى يشبه مضربه بمورده وأل فى الأنبياء للعهد والمراد بهم المرسلون بشريعة خاصة لأنهم هم الذين أسسوا البنيان ورفعوا قواعده أما الأنبياء الذين أوحى إليهم لخاصة نفوسهم ولم يؤمروا بالتبليغ فلم يكن لهم دخل فى تأسيس بنيان الشرائع فالفضل كل الفضل للمرسلين الذين أرسلوا بكتب وشرائع ظهرت للأمم وتداولت أخبارها فيما بينهم كموسى وداود وعيسى وإبراهيم وأمثالهم ممن ظهرت شرائعهم وكثرت أتباعهم

فيصح لمن فى عصر الأمة العربية الأخيرة أن يقولوا ما أجمل هذا وما أحسنه ومن العلماء من يرى أن أل فى الأنبياء للاستغراق فيشمل كل نبى سابق ويوجه كلامه بأن كل نبى أوحى إليه كان لبنة فى بناء التوحيد وإقامة صرح الأخلاص فهم على الأقل قدوة صالحة فعليه ومثل حى وتطبيق عملى للوحى وإن لم يشعر الناس به إلا أن المعنى على العهد به أظهر بدليل قوله صلى الله عليه وسلم (من قبلى) فهى تشعر بقرب العهد وإلا فما فائدتها مع أن الجميع يعرفون أنهم قبله وذلك كما فى قوله تعالى وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس (كمثل رجل) شبه الأنبياء وما بعثوا به من الشرائع ببيت أسست قواعده ورفع بنيانه وبقى منه موضع ناقص به يتم كمال هذا البنيان وجعل المشبه به واحداً مع أن المشبه متعدد أشارة إلى أن الشرائع وإن تعددت فهى واحدة فى أساسها فقد اتفقت جميع الشرائع على الإيمان بالله وحده والإيمان باليوم الآخر وأصول الأخلاق الكريمة وتحريم ما يضر العقل أو يضيع النسب وما شابه ذلك وفى هذا يقول الله تعالى . شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب الآية من سورة الشورى . وقال تعالى إن الدين عند الله الإسلام من سورة آل عمران فسرها كثير من العلماء بإنها شهادة إن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله قال قتادة الإسلام هو دين الله الذى شرعه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره ولا يجزى سواه قال الإمام ابن كثير فى تفسيره إن الدين عند الله الإسلام أخبار « منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام وهو إتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم فمن لقى الله بعد بعثة محمد بدين على غير شريعته فليس بمتقبل وفى رواية ابتنى بيوتا وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فابتنى أبلغ من بنى وهى تشعر بأن

صاحب البناء معنى به أشد العناية وجمع بيوتا للاشارة إلى أن كل شريعة وإن اتفقت مع الشرائع الأخرى فى الأصول إلا أن لها ميزات وفروعا خاصة بها تلائم العصر الذى شرعت فيه كما فى قوله تعالى :

لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الآية من سورة المائدة .

فلكل تعبير هدف يقصد إلية فاجمله وأحسنه) يشير بذلك إلى أن كل شريعة جميلة فى ذاتها مناسبة لعصرها فجعل الناس يطوفون به التعبير بجعل يدل على التكرار وأنهم طافوا بالبيت مرات ومرات متعجبين من حسنه وفى رواية يطيفون من أطاف الرباعى يقال أطاف بالشىء ألم به وقاربه وأحاط بمحاسنه . (يقولون) جملة حالية إن كانت بغير واو العطف ومعطوفه إن كانت بالواو (هلا وضعت) أداة تحضيض وفى رواية لولا (وضعت اللبنه) الناقصه حتى يتم البنيان . واللبنة بفتح اللام وكسر الباء ويجوز فيها كسر اللام وسكون الباء وهى قطعة طين تعجن وتترك حتى تيبس ويبنى بها من غير إحراق فإن أحرقت سميت آجره قال الرسول صلى الله عليه وسلم فأنا اللبنة التى تم بها بنيان الشرائع وفى رواية إن الناس إذا طافوا بالبيت تعجبوا من حسنه وقالوا ما رأينا بنيانا أحسن من هذا وذلك إشارة إلى أن الشرائع التى وضعها الله لعباده لا يمكن أن يساويها ولا يدانيها وضع من أوضاع البشر أو قانون من قوانين الناس وفى هذا رد على من يزعم أن القوانين الوضعية التى أخذوها عن فرنسا وبلجيكا وانجلترا وغيرها أصلح لعصرنا من القانون السماوى قانون القرآن الكريم والسنة المحمدية الطاهرة . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا الآية من سورة الكهف . فإن القانون السماوى الذى يعلم واضعه خائنة الأعين وما تخفى الصدور أصلح للناس فى كل عصورهم لأن الله الذى شرعه إنما شرعه عن علم شامل وحكمة بالغة أما البشر فمهما أوتوا من العلم فهم قاصرون عن معرفة غرائز الناس وخفايا طبائعهم ولا يعلم ذلك إلا الخالق سبحانه وأيضاً

فالناس أمام القوانين الوضعيه يخافونها فى الظاهر فقط ولا يحترمونها فى الباطن . ولذلك ينتهز المجرم منهم فرصة الإفلات من العقوبة أو غفلة الحراس لينتهك الدساتير ويعبث بالقوانين أما الناس بالنسبة لقانون القرآن فهم يخافون ربهم ويعظمونه ويؤمنون به ويعلمون أن الله يراقبهم فى خلوتهم وسرهم وعلانيتهم ولذلك تجد العاصى منهم لا يقع فى معصية احتقاراً للشرع أو تهاونا به وإنما يخالف القوانين تحت تأثير الشهوة وغلبة الهوى وذلك الوضع يجعل كل ضمير حارساً على صاحبه فالبنيان الذى أسس على تقوى من الله ورضوان حقيق بأن يقال فيه ما أحسنه وما أجمله .

واختلف العلماء فى موضع اللبنة هل كان فى الأساس أم فى الشرفات أو فى الأركان والزوايا فقال القاضى محيى الدين بن العربى هى فى الأساس ولولاها لتهدمت الدار كلها وهذه عاطفة صوفية حمله عليها الحب القوى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا دليل على ذلك وهذا الرأى فوق أنه دعوى من غير دليل هــــو أيضاً مردود لأنه يطعن على شريعة الأنبياء والمرسلين السابقين ويتهمها بالنقص فى الأساس مع أننا نؤمن بأن كل شريعة كاملة فى ذاتها وبالنسبة لعصرها من غير نظر إلى شرائع أخرى سبقتها أو لحقت بها . ولذلك رأى الجمهور أن موضع اللبنة ليس فى الأساس وإنما هو للجمال والكمال وقال أخرون إنها فى أعلى البيت كما هو مقتضى البناء إلا أنها فى شرفاته المواجهة بحيث يحدث نقصها تشويها فى منظر البناء وأنا أرى أنها كانت فى ركن من أركانه كما تدل عليه بعض الروايات حيث قالت إنها فى زاوية من زواياه والعادة فى البناء أن قوته فى قوة زواياه فإذا كان النقص فى إحــــدى هذه الزوايا كانت قوته ضعيفة حتى تقوى زواياه كلها .

قال صلى الله عليه وسلم (وأنا خاتم النبيين) وقد ورد مثل ذلك فى القرآن الكريم . قال تعالى : ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن

رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما. ولذلك قال أنس رضى الله عنه كان إبراهيم يعنى به ابن النبى صلى الله عليه وسلم قد ملأ المهد ولو بقى لـكان نبياً لـكن لم يبق لأن نبيكم آخر الأنبياء عليهم السلام ذكره الشيخ الألوسى فى تفسيره روح المعانى وروى أيضاً عن اسماعيل بن أبى خالد قال قلت لعبد الله بن أبى أوفى أرأيت ابراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم قال نعم مات صغيراً ولو قضى بعد محمد بنى عاش ابنه ابراهيم ولـكن لا بنى بعده وأخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس لما مات ابراهيم ابن النبى صلى عليه صلاة الجنازة وقال إن له مرضعا فى الجنة ولو عاش لـكان صديقا نبيا ولو عاش لأعتقت أخواله من القبط وما استرق قبطى إلا أن فى سندهذه الرواية رجلا يسمى إبراهيم بن عثمان الوسطى وهو ضعيف عند المحدثين. وأنا بعد بحثى عن هذه الأحاديث التى وردت فى شأن ابراهيم أقطع بضعفها لأنه لا يلزم من كون ابراهيم ابنا لنبى أن يكون نبيا ولو كان النبى لا يلد إلا نبيا لـكان جميع الناس أنبياء فإنهم من نسل آدم ونوح. ولذلك قال النووى وهو المحدث الفقيه المشهور ما روى عن بعض المتقدمين لو عاش ابراهيم لـكان نبيا باطل وجسارة على الـكلام فى المغيبات وقد صرح الرسول صلى الله عليه وسلم فى كثير من المواضع بأنه خاتم النبيين من ذلك قوله لعلى رضى الله عنه أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا بنى بعدى ومن الـكلام الذى لا يقبل ما رآه ابن حجر الهيتمى وهو ابن حجر شارح البخارى قال لا بعد فى إثبات النبوة لابراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم فى صغره وقد ثبتت فى الصغر لعيسى ويحيى عليهما السلام ثم نقل عن السبكى كلاما فى حديث كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد حاصله أن حقيقة محمد كانت قبل آدم وقد آتاها الله النبوة ثم قال وبه يعلم تحقيق نبوة سيدنا إبراهيم فى حال صغره انتهى وأنت تدرك بفطرتك أن هذا كلام لا يحتاج إلى رد فهو منهار من أساسه لا يساوى المداد الذى كتب به. والمراد بكونه خاتم النبيين أنه آخرهم ويثبت من ذلك انقطاع حدوث وصف النبوة لأحد من الثقلين

بعد تحليه صلى الله عليه وسلم بها فى هذه النشأة الأولى وكما ورد فى القرآن كونه خاتم النبيين ورد فى السنة كثير من هذا كقوله صلى الله عليه وسلم إن لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى رواه البخارى عن جبير بن مطعم ومعنى كون الناس يحشرون على قدمه صلى الله عليه وسلم أنه يحشر قبل الناس وهم يحشرون على أثره وهو يوافق قوله أنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة . ومن دلائل السنة أيضاً على كونه خاتم النبيين قوله صلى الله عليه وسلم . فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الناس كافة وختم بى النبيون . وعلى هذا أجمعت الأمة سلفا وخلفا على أنه لا نبى بعده وإذا انتفت النبوة انتفت الرسالة من باب أولى والحكمة فى إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم أمته بذلك أن يتنبهوا لذلك فلا يصدقوا كل أفاك كذاب دجال حتى ولو شعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم وخوارق العادات سيما وأن الرسول قد أخبر بأن هناك دجالين سيظهرون بعده قريباً من ثلاثين آخرهم المسيح الدجال وأعظمهم فتنة وقد ظهر منهم مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة والأسود العنسى وغيرهما من البهائيين والقديانيين فكان اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم أمته بذلك عاصما لهم من الوقوع فى حبائل الكذابين .

والحق أن الرسول لا يستطيع كتمان فضائله لأنها من قبيل الوحى الذى أمر بتبليغه لأمته ليعرفوا قدر نبيهم فقدروه حق قدره فصلوات الله وسلامه عليه فى الأولين والآخرين .

الشبه التى وردت على هذا المبحث وردها

الشبهة الأولى : ثبت فى الحديث الصحيح أن عيسى بن مريم عليه السلام سينزل فى آخر الزمان حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية

أى يرفعها عن الناس اجتهاداً منه فى نصوص الوحى فكيف يكون نبى بعد محمد مع أنه خاتم النبيين كما ثبت فيما تقدم .

والجواب عن هذه الشبهة أن عيسى سيكون منفذا لشريعة محمد عليه الصلاة والسلام فكأنه عالم مجتهد من علماء الأمة الإسلامية والممنوع أن ينبأ أحد من جديد ويأتى بشرع جديد ينسخ الشريعة المحمدية يشير إلى هذا ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمامكم منكم .

فسرها راوى الحديث بقوله أمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم أو أن الممنوع أن تحدث لأحد نبوة بعد محمد أما نبوة عيسى فقد ثبتت قبله . وقد تكلم الشيخ الألوسى عن هـــذه الشبهة فى تفسيره فقال ولا يقدح فى ذلك ما أجمعت عليه الأمة واشتهرت به الأخبار ولعلها بلغت مبلغ التواتر المعنوى ونطق به الكتاب على قول ووجب الإيمان به وأكفر منكره كالفلاسفة من نزول عيسى بن مريم آخر الزمان لأنه كان نبيا قبل تحلى نبينا محمد بالنبوة فى هذه النشأة وهو مكلف عند نزوله بشريعة محمد أصلا وفرعا وسيكون خليفة لرسول الله محمد عليهم السلام وحاكما من حكام ملته بين أمته باجتهاد منه فى النظر إلى نصوص القرآن والسنة ، قال الشيخ الألوسى بعد نهاية المطاف والبحث الطويل . وكونه خاتم النبيين مما نطق به الكتاب وصدعت به السنة وأجمعت عليه الأمة فيكفر مدعى خلافه ويقتل إن أصر .

الشبهة الثانية : قالوا إن الخضر صاحب موسى سيظهر فى عهد الدجال وسيكون بينهما مصاولة ومقاولة والجمهور على أنه نبى .

قال المفسرون فى قوله تعالى فوجدا عبداً من عبادنا : الجمهور على أنه الخضر .

قال الله فى شأنه (آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) الجمهور على أنها الوحى والنبوة واستدلوا على نبوته بقوله تعالى وما فعلته عن أمرى فإنه ينبىء بأن ذلك وحى أمر به . والجواب من وجهين :

الأول : أن نبوته إذا ثبتت كنبوة عيسى فليست نبوة مستحدثه بعد نبوة محمد وإنما هى نبوة قديمة ولا مانع من ذلك كما قلنا إنما الممنوع أن ينبىء الله نبيا جديداً بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

الرد الثانى : أننا ننكر القول بحياة الخضر الآن وبقائه إلى زمن الدجال وتطالب أصحاب هذا الرأى بالدليل : وهاك أدلتهم الواهية التى زعموها .

الأول : اتفاق الجمهور على أنه حى موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه عند الصوفية .

الثانى : نقل عن الثعلبى المفسر أن الخضر نبىمعمر محجوب عن أبصار أكثر الرجال .

الثالث : ما روى عن ابن عباس أن الخضر ابن آدم لصلبه وقد نسىء له فى أجله حتى يكذب الدجال .

الرابع : ما رواه ابن إسحاق قال حدثنا أصحابنا أن آدم عليه السلام لما حضره الموت جمع بنيه فقال يا بنى ادفنونى بأرض الشام ثم دعا لمن ينفذ وصيته أن يطيل عمره إلى يوم القيامة فتولى الخضر دفنه فاستجاب الله دعاء آدم له وأبقاه حيا إلى ما شاء .

الخامس : أنه كان مع ذى القرنين فشرب من ماء الحياة فهو باق إلى قيام الساعة .

السادس : ما روى عن على رضى الله عنه قال : بينما أنا أطوف بالبيت إذا رجل متعلق بأستار الكعبة يقول يا من لا يشغله سمع عن سمع ويا من لا تغلطه المسائل ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين أذقنى برد عفوك وحلاوة

رحمتك قلت يا عبد الله أعد الكلام قال أسمعته قلت نعم قال والذى نفس الخضر بيده وكان هو الخضر — لا يقولهن عبد دبر كل صلاة مكتوبة إلا غفرت ذنوبه وإن كانت عدد المطر وورق الشجر .

السابع : ما روى عن ابن عباس قال : قال على كرم الله وجهه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفى وأخذنا فى جهازه خرج الناس وخلا الموضع فلما وضعته على المغتسل إذا بصوت يهتف لا تغسلوا محمداً فإنه طاهر مطهر فقلت ويلك من أنت فإن هـــذه سنة النبى وشريعته وبهذا أمرنا . وإذا بهاتف آخر يهتف بى من زاوية البيت يقول غسلوا محمداً فإن الهاتف الأول كان إبليس الملعون حسد محمداً أن يدخل قبره مغسولا وأراد أن يصرفكم عن دينكم فقلت له جزاك الله عنا خيراً فمن أنت قال أنا الخضر جئت لأحضر جنازة محمد صلى الله عليه وسلم .

الثامن : أخرج ابن عساكر أن إلياس والخضر حيان يصومان شهر رمضان فى بيت المقدس ويحجان فى كل سنة ويشربان من زمزم المباركة شربه تكفيهما إلى مثلها من قابل وهكذا من ذلك كثير ولكنها آثار واهية مكذوبة لا تقوم على ساق . فاضرب بها عرض الحائط ولا يقف عجبك عند هؤلاء الجاهلين فهناك ما هو أعجب منه هناك قوم يدعون أنهم أخذوا الأحاديث عن الخضر وتلقوها عنه بلا واسطة مع أن المحدثين أجمعوا على أنه ليس للخضر رواية عن النبى صلى الله عليه وسلم كما صرح به العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء ومع هذا التصريح من الإمام العراقى المحدث المشهور يتبجح كثير من الصوفية ويقول قائلهم لقد حدثنا الخضر بثلثمائة حديث سمعها من النبى صلى الله عليه وسلم شفاها . وبعد أن أوردت لك الأدلة الواهية التى ذكرها من قال بحياة الخضر أذكر لك أدلة الفريق الثانى القائل بوفاته وسترى فيها الحق واضحا .

أدلة موت الخضر :

الأول : سئل البخارى عن الخضر وإلياس هل هما حيان كما يزعم بعض الناس فقال كيف يكون هذا وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال قبل وفاته بقليل لا يبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد وفى صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته :

ما من نفس منفوسة يأتى عليها مائة سنة وهى يومئذ حية .

الثانى : قال تعالى : وما جعلنـــا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون الآية من سورة الأنبياء .

الثالث : لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ويجاهد بين يديه ويتعلم منه . ولم يثبت شىء من ذلك .

الرابع : قال الرسول يوم بدر اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض وكان أهل بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم فأين كان الخضر حينئذ .

وقد سئل بعض المحدثين عن حياة الخضر وبقائه إلى اليوم فقال ما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان .

الخامس : كيف يعقل وجود الخضر ولا يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة والجماعة ولا يشهد معه الجهاد مع قوله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى .

السادس : قال تعالى وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم — والجمهور على أنه محمد — لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين الآية من سورة آل عمران .

السابع : لو عاش الخضر إلى زمن الدجال لبلغ عمره إذ ذاك ستة آلاف سنة ومثل هذا بعيد فى العادات فى حق البشر .

الثامن : لو صح بقاء بشر من لدن آدم أو نوح إلى قرب قيام الساعة لكان ذلك من أعظم الآيات والعجائب ولتحدث عنه القرآن لأنه من آيات الله العظيمة . وقد ذكر القرآن من استحياه ألف سنة إلا خمسين عاما وجعله آية فكيف لا يذكر من استحياه أضعاف ذلك .

التاسع : القول بحياة الخضر إلى زمن الدجال قول على الله بغير علم وهو حرام بنص القرآن .

وأظنك توهمت أننا أطلنا عليك فى بحث غير مهم ولكن الواقع خلاف ذلك فالعوام فى الأرياف يعتقدون عقيدة جازمة أن الخضر حى بل أغرب من هذا أنهم يقولون إنه إذا ذكر الخضر على لسان أى إنسان فيجب عليه أن يرد السلام على الخضر لأنه يحضر إذ ذاك ويسلم وواجب النشء المتدين المثقف أن يسعى فى تطهير عقائد العوام ما استطاع من هذه الأرجاس ولا أراك إلا وقد اقتنعت بأن الشبهة الثانية القائلة بوجود الخضر وهو نبى بعد محمد قد انهارت من أساسها .

الشبهة الثالثة : قال صلى الله عليه وسلم : لا نبوة بعدى إلا ما شاء الله وقال لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات قال رؤيا المسلم جزء من أجزاء النبوة . وهذا يدل على أن هناك نبوة بعد محمد بدليل قوله إلا ما شاء الله وبدليل جعله الرؤيا الصالحة المبشرة من النبوة والجواب أن قوله إلا ما شاء الله للتبرك لا غير وأن كون الرؤيا جزءا من النبوة لا يقتضى وجود نبى بعد محمد لأن وجود الجزء لا يستلزم وجود الكل ولأن الكلام على التشبيه كأنه يشبه الرؤيا الصالحة بالنبوة باعتبار الصدق وخلاصة القول بعد طول التطواف أن كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين قد ثبت بالأدلة الصحيحة والإجماع وأصبح معلوما من الدين بالضرورة فيكفر منكر ذلك ويقتل مرتداً إن أصر .

وقد توهم بعض العلماء من ثبوت كون الرسول خاتم الرسل وانتهاء عهد النبوات بمحمد توهم عدم نزول جبريل إلى الأرض بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا التوهم باطل دل الدليل على خلافه فالملك جبريل ينزل كل عام فى ليلة القدر لأنه المراد بالروح فى قوله تعالى ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر وأيضاً ليس مهمة جبريل السفارة بين الله وأنبيائه فحسب بل له مهمات أخرى ينزل كانزال العقوبة بالعاصين وغير ذلك .

(البلاغة)

وفى الحديث تشبيه تمثيلى حيث شبه الأنبياء وما بعثوا به من هداية الناس وإرشادهم بحال بيت أسست قواعده ورفعت دعائمه وبقى فيه نقص لو تم هذا النقص تم البنيان بجامع عدم التمام فى كل فكما أن البنيان لا يكمل إلا بوضع اللبنة فى مكانها كذلك الشرائع السابقة لا تكمل إلا بشريعة خاتم الانبياء سيدنا محمد . والأنبياء لا تتم مهمتهم إلا به صلى الله عليه وسلم فالبيت فى التشبيه يقابل الشرائع السابقة وموضع اللبنة يقابل الشريعة المحمدية والرجل يقابل الأنبياء ووصل بين جملة يعجبون ويطوفون ويقولون للتوسط بين الكمالين مع الجامع وهو الاتحاد فى المسند إليه .

وأكد الخبر كله بإن إما لأن هناك منكراهم اليهود والنصارى وأما للاهتمام بالخبر وغرابته وفى قوله صلى الله عليه وسلم فانا اللبنه تشبيه بليغ لحذف الأداة والتقدير فأنا كاللبنة .

« اللغة والإعراب »

المثل الصفة ومنه قوله تعالى مثل الجنة التى وعد المتقون والتمثال الصورة وامتثل طريقته اتبعها فلم يعدها ونمائل العليل قارب البرء والأمثل الأفضل جمعه أماثل والمثال المقدار والقصاص . (طاف) حول الشيء من باب قال وتطوف واستطاف بمعنى واحد والطوفان المطر الكثير والماء الغالب يغشى

كل شيء وطاف به ألم به وقاربه والطائف الخادم الذى يخدمك برفق وكانت المرأة فى الجاهلية تطوف بالبيت عريانة تقول من يعيرنى تطوافا أى ثوبا تستر به عورتها والطواف بالبيت الدوران حوله والمطاف موضع الطواف والطائف العسس والطائفة من الشيء القطعة منه . (واللبنة) بكسر الباء التى يبنى بها وجمعها لبن مثل كلمة وكلم واللبانة الحاجة . وقال فى القاموس اللبن ككتف المضروب من الطين مربعا للبناء وابن اللبون ولد الناقة إذا كان فى العام الثانى واستكمله أو إذا دخل فى الثالث .

والخاتم بفتح التاء وكسرها الآخر وخاتمة الشيء آخره وختم من باب ضرب وختم القرآن بلغ آخره وتختم لبس الخاتم وختامه مسك أى آخره لأن آخر ما يجدونه رائحة المسك والخاتم أيضا بفتح التاء الطابع ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين أى طابعه وعلامته التى ترفع الأمراض والعاهات .

والنبى المخبر عن الله يقال نبأ وأنبأ أى أخبر والنبأ الخبر والنبى فعيل بمعنى فاعل تركوا همزته كالذرية والبرية وأهل مكة يهمزونه ويقولون النبيء . وبعض اللغويين يأخذون النبى من النبوة وهى ما ارتفع من الأرض وفعله نبا المعتل يقال نبا عن الشيء تباعد عنه وتجافى وبابه سما يسمو فإن جعلت النبى مأخوذا من نبا المعتل فمعناه إنه شرف على سائر الخلق فأصله غير مهموز وهو فعيل بمعنى مفعول وقد قابل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة فقال يا نبيء الله يشير إلى أنه خرج مهاجراً من بلد إلى بلد فقال له رسول الله ، لا تنبر اسمى إنما أنا نبى الله فأنكر عليه الهمزة لأنه ليس من لغة قريش كذا قال بعض أهل اللغة ولكنى أنكر هذه الحادثة لأنه ثبت الهمز عن أهل مكة فكيف لا يكون لغة قريش وإن ثبتت الحادثة فالظاهر أن الرسول صلى الله عليه وسلم أنكر عليه لكونه قالها بصيغة السخرية يريد أن يجعل الهجرة ضربا من الهرب . والرسول أخص من النبى لأن كل رسول نبى ولا عكس . وقد خص العلماء الرسول بمن

أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه والنبى لم يؤمر بالتبليغ وبعضهم خص الرسول
ن له كتاب وشريعة خاصة به . أما من لا كتاب له وقد أمر بشريعة غيره
فهو بنى ما دام قد أوحى إليه . قال فى القاموس نبا بصره نبوا بتشديد الواو
ونبا السيف واختار القاموس ترك الهمز فى النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى الكلام حذف والتقدير مثلى مع شريعتى ومثل الأنبياء مع شرائعهم وقوله من قبلى متعلق بمحذوف صفة للأنبياء والتقدير الكائنين من قبلى ويصلح أن يكون حالا من المضاف إليه هو الأنبياء والشرط موجود وهو أن المضاف كالجزء فى صحة الاستغناء عنه (إلا موضع لبنه) منصوب على الاستثناء من مفعول أحسنه وجملة يطوفون فى محل نصب مفعول جعل التى هى من أفعال الشروع وهلا أداة تحضيض ومثلها ألا ومثلها لولا فى الروايات المختلفة والتحضيض هنا للتنديم لأن مدخولها ماض والفاء فى قوله فأنا اللبنة فاء الفصيحة والتقدير إذا علم المؤمن هذا فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين .

الحكم البالغة فى جعل محمد خاتم النبيين

أولا : لأن شريعته تصلح لكل زمان ومكان بخلاف غيرها من الشرائع وإليك أمثلة تدل على ذلك .

شريعة موسى عليه السلام كانت تحتوى على أحكام شديدة قاسية كقوله تعالى فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم . فلا تقبل توبتهم إلا بجز الرقبة أو قتل النفس . وفى الآثار أن النجاسة فى شريعة موسى لا تزال إلا بالقطع وكانت تلك الأحكام الشديدة ملائمة لقوم غلاظ الأكباد صعاب القياد يدلك على شدتهم أنهم لم يؤمنوا ولم يخضعوا إلا بعد أن نتق الله الجبل فوق رءوسهم وأيقنوا هلاكهم . وفى ذلك يقول الله تعالى :

وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة .

هذه الأحكام الشديدة لا تصلح لكل زمان . ولكل قوم.وإنما تصلح لليهود الذين اشتهروا بالغدر والغلظة .

ومن ذلك أن شريعة عيسى عليه السلام كانت روحانية تبيح الرهبانية والخلوة والانقطاع للعبادة . وهذا لا يصلح لكل زمان ومكان . كما أنها كانت تأمر بالتسامح دائماً وعدم الأخذ بالقصاص . وقد اشتهر فيها قولهم : من ضربك على خدك الأيمن فاعطه خدك الأيسر . وهذا التشريع أيضاً لو فرض ثبوته فى شريعة عيسى لا يصلح لكل أمة ولا لكل زمان . أما شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد جمعت بين الصفح والعفو والأخذ بالحق والقصاص فقال الله تعالى : وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله الآية من سورة الشورى كما أنها جمعت بين الشدة فى الأحكام والسهولة فيها فتجد فيها الرجم للزانى الثيب وقطع اليد للسارق ليمحو الله بهذه الشدة آثار الجريمة ويطهر المجتمع منها . كما جمع إلى ذلك سهولة التوبة فيكفيك أيها المسلم أن ترجع إلى ربك لحظة من الوقت وتندم على مافعلت وتعزم على مداومة الطاعه وأداء الحقوق والواجب . عند ذلك يتجلى الله عليك بالتوبة والمغفرة .

قال تعالى ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما الآية من سورة النساء .

وفى الحديث القدسى قال الله تعالى يا ابن آدم أنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك وقد أشار إلى هذه الميزات إشارة إجمالية قول الله تعالى (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) قال المفسرون معنى الإصر الثقل الذى يأصر صاحبه عن الحركة ومعناه يخفف عن الأمة الإسلامية ويرفع عنها التكاليف الشاقة ثم مثل المفسرون لبعض هذه التكاليف فقالوا كقطع موضع النجاسة

من الثوب أو منه ومن البدن وكإحراق الغنائم وتحريم السبت فينقطعون فيه للعبادة ولا يصطادون السمك وقطع الأعضاء الخاطئة وتعين القصاص فى العمد والخطأ من غير تشريع الدية قال الشيخ الآلوسى بعد ذكر هذه الآية وهذا مأثور من كثير من السلف قال عطاء كانت بنو إسرائيل إذا قاموا يصلون لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها على السارية يحبس نفسه على العبادة.

فأين هذا كله من سماحة الإسلام ونهيه عن الرهبنة والانقطاع للعبادة وجعله سعى المرء على عيشه واكتسابه من حلال فى درجة الجهاد فى سبيل الله ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : بعثت بالحنيفية السمحة وقال لمعاذ وأبى موسى الأشعرى لما بعثهما إلى اليمن : بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا . وقال أيضاً رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . وكان من دعاء الصحابة ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين من آخر سورة البقرة وقد ثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال ودعاء من هذه الأدعية قد فعلت قد فعلت .

وقد جعل الله من يسر الإسلام وسهولته كثيراً من الأحكام فرخص التيمم وقصر الصلاة فى السفر حتى تصبح الرباعية ركعتين وجمع الصلاتين حتى يصبح وقت الظهر والعصر ووقت المغرب والعشاء وقتا واحداً لكلتا الصلاتين وصحة الصلاة فى أى مكان فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل فى حين أن اليهود والنصارى ما كانت تقبل صلاتهم إلا فى معابدهم الخاصة . ولو أردت أن أتتبع سهولة الإسلام وسماحة أحكامه لطال بنا المقام ولم يتسع صدرك أيها القارىء لهذا الاستقصاء وإن كان أمراً ذا بال يجب أن

تعطيه عنايتك وتستوفى بحثه لنفسك ولدينك . فلا شك أن الإسلام اليوم فى حاجة قصوى إلى عالم يعرف فضله ويسره وسماحته وصدقه ثم يبلغ ذلك ما استطاع فإن الله قبل أن يأخذ على الجاهل أن يتعلم أخذ على العلماء أن يعلموا والرسول صلى الله عليه وسلم يقول من كتم علما عن أهله ألجمه الله بلجام من النار يوم القيامة . رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن بهذه السماحة وذلك اليسر صح أن يكون الإسلام خاتم الأديان ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ورسالته خاتم الرسالات .

أغراض الحديث

أولا : ضرب الأمثال تقريباً للأفهام لما فيه من تشبيه المعنوى بالمحسوس .

ثانياً : ختم الله النبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم تشريفاً له .

ثالثاً : إظهار الرسول قدره لأمته وإظهار قدر شريعته حتى يتمسك بها المسلمون ويعضوا عليها بالنواجذ .

الآيات والآثار التى تؤيد حديث الباب

قال الله تعالى : ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل الآية من الإعراف .

وقال صلى الله عليه وسلم : كانت بنوا اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى وأنه لا نبى بعدى وسيكون بعدى خلفاء فيكثرون قالوا يا رسول الله فما تأمرنا قال أوفوا ببيعه الأول فالأول اعطوهم حقهم واسألوا الله الذى لكم فإن الله سائلهم عما استرعاهم . متفق عليه .

الحديث الحادى عشر

عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين . أنت عبدى ورسولى . سميتك المتوكل . ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا . أخرجه البخارى .

المعنى الإجمالى

يريد عبد الله بن عمرو بن العاص أن يشرح مصداق قول الله تعالى : الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون الآية من سورة الأعراف فحينما سئل عن أوصاف الرسول فى التوراة التى يشير إليها قوله مكتوباً عندهم فى التوراة . قال مؤكداً بالقسم وغيره إن أوصاف التوراة ما هى إلا نبع من فيض من أوصافه فى القرآن فقد وصفته التوراة بأنه نبى ورسول وشاهد ومبشر ونذير وحصن لأمته وهو مع هذه الأوصاف العالية والرتبة السامية عبد لله متوكل عليه جامع للأخلاق الحسنة فهو رحيم رقيق القلب لا يرفع صوته إلا عند اقتضاء الضرورة كوقت الإنذار وتبليغ الرسالة . أما عند الدنيا والتجارة فى الأسواق فهو خفيض الصوت سمح فى البيع والشراء وهو كذلك يؤثر العفو على الانتقام وقد بشره الله بأنه متم عليه نعمته وناشر له دينه حتى تستقيم الملة المعوجة التى انحرفت وعبد الناس

الأصنام باسمها ووعده بأن يجمع عليه قلوباً كانت غافلة ويهدى به نفوساً كانت سادرة حتى تبصر الهدى بعد عمى الضلالة . وتسمع النداء بعد أن كانت صما، وتمتلىء حكمة ورشداً بعد أن كانت خاوية الوفاض عديمة الرشاد .

المعنى التفصيلى

يسأل عطاء بن يسار وهو من التابعين أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عبد الله بن عمرو بن العاص وهو صحابى وابن صحابى رضى الله عنهما فيقول له عقب لقائه به مباشرة حرصاً منه على طلب العلم والاستزادة من المعرفه وهذا شأن السلف الصالح يقول له : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة . والمراد برسول الله هنا نبينا محمد العظيم والمراد بالتوراة كتاب موسى الذى أنزل عليه جملة واحدة فى ألواح ونحن نؤمن بالتوراة ونؤمن بموسى الذى نزلت عليه إلا أننا نقول إن التوراة التى فى أيدى اليهود الآن محرفة قد أثبت القرآن تحريفها فى قوله تعالى من سورة المائدة يحرفون الكلم عن مواضعه .

وفى قوله من سورة البقرة ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعده ما عقلوه وهم يعلمون .

وفى قوله فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون فقال عبد الله بن عمرو (والله إنه) أى محمداً نبى الإسلام (لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن) وأكد كلامه بالقسم وإن والجملة الاسمية ودخول لام الابتداء على الخبر لأن هناك من ينكر ذلك من اليهود والمنافقين فأتى التأكيد على حسب الانكار . وأنت تعلم أن القرآن كتاب الله الذى أنزله على نبينا محمد وهو أكبر معجزاته وأخلدها وقد نزل منجما مفرقا على حسب الوقائع والحوادث والحكم التشريعية وهو دستور الأمة الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ولا يزال هاديها

ومنارها حتى تقوم الساعة يدرك نوره القلوب المؤمنة والفطر السليمه ويعمى عن إرشاده كل من طمست بصيرته وخبثت سريرته . والقرآن حكم الله الصالح لكل زمان ومكان ، ولا ضلالة ولا كفر أشد ممن يقول إنه نزل لبيئة خاصة وأمة بدويه فلا يصلح لعصرنا الحاضر المتمدن . كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا .

والحق كما قال عبد الله بن عمرو إن القرآن قد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوصاف كثيرة لا يمكن للتوراة أن تحيط بها وإليك نموذجا من هذه الآيات : قال الله تعالى : فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك من سورة آل عمران ويقول فى سورة المائدة قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم . لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم من سورة التوبة .

ويقول يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً من سورة الأحزاب .

ويقول يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم . ويقول وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً . من سورة سبأ .

ولو أردت أن أحصى لك ما أحفظه من أوصاف رسول الله فى كتاب الله لطال بنا المقام . وإن كنت تستطيع أن تجعله بحثاً من أبحاثك المستقبله فاسترشد بكتاب الشفا للقاضى عياض . فإنه أوفى على الذروه ومعنى قوله تعالى يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً إلخ) النبى أعم من الرسول فكل رسول نبى ولا عكس . وعدد الأنبياء كثير لا يحصى وقد وقع إحصاؤهم فى إحدى الروايات عن أبى ذر أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وصححه ابن حبان .

قال ابن حجر فى الفتح وليست النبوة راجعة إلى جسم النبى أو عرض من أعراضه بل ولا إلى علمه بكونه نبيا فلا تبطل بالموت ولا بالنوم والغفلة بل النبوة نعمة يمن الله بها على من يشاء والله أعلم حيث يجعل رسالته ولا يبلغها أحد بعلمه ولا كشفه ولا يستحقها بعمل يؤديه أو ولاية يصل إليها . وقد صدق صاحب الجوهرة حيث يقول :

ولم تكن نبوة مكتسبه ولو رقى فى الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن يشاء جل الله واهب المنن

فمهما لازم انسان الخلوة والعباده وتناول الحلال فان يكتسبها خلافاً للفلاسفه الذين يرون أنها صفاء للنفس يحدث لها من الرياضات فى العمل والخلق وهم يجوزون وجود نبى بعد محمد مع أن القرآن المتواتر والسنة الثابته أثبتا أنه خاتم النبين ولا نبوة بعده . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. والفرق بين النبى والرسول كما سبق أن الرسول ذكر من بنى آدم أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه . فإن لم يؤمر بالتبليغ فهو نبى موحى إليه فى خاصة نفسه .

ويقول المفسرون إن خطاب محمد صلى الله عليه وسلم بوصف النبوة ودخول حرف التنبيه فى أيها وتعريف النبى بأل العهدية كل ذلك يفيد تعظيم المخاطب أى تعظيم. ثم إذا استقرأت آيات القرآن الكريم وتتبعت خطابات الله لأنبيائه السابقين ثم قارنت بينها وبين خطاب الله لنبيه محمد وجدت البون شاسعاً والفرق واضحاً فاستمع إليه حيث يخاطب آدم باسمه مجرداً يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنه فتشقى : يا آدم أنبئهم بأسمائهم واستمع إليه حيث يخاطب الأنبياء بعد آدم فيقول يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك . يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى . يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى حتى الملائكة تخاطب الأنبياء السابقين بأسمائهم مجردة فتقول

يا إبرهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك : يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك . أما خطاب الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فكان مشفوعاً بألقاب التعظيم والتقدير استمع إليه حيث يقول يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك حتى في وقت العتاب لا يفارقه الوصف يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك صلوات الله وسلامه عليك يا نبي الله أسأل الله أن يحشرني تحت لوائك أنا وأحبابي والمسلمين . ومعنى كونه شاهداً أنه يشهد على أمته يوم القيامة . وإليك شبهة يوردها بعض المتكلمين ثم نسوق ردها . خلاصة هذه الشبهة أنهم يقولون :

شهادته على من مضى من أمته أمر ممكن لعلمه بأحوالهم فكيف يسوغ له أن يشهد على من يأتي بعده وهو لا يعرف أحوالهم وأيدوا كلامهم بما روى عن سهل بن سعد قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم أنا فرطكم على الحوض من ورده شرب منه ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً ليرد على أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم فأقول أمتي فيقال إنك لا تدري ما بدلوا بعدك فأقول سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي . رواه البخاري في كتاب الفتن فإذا كان النبي لا يعرف حال أصحابه بعد وفاته فكيف يعرف من جاء بعده من التابعين إلى يوم القيامة . وأجيب عن هذه الشبهة بأجوبه منها أنه صلى الله عليه وسلم يعلم حال أمته إجمالا هل هي في طاعة أو معصيه . أما الأعيان والأفراد فلا سبيل إلى معرفة كل فرد فرد إلى يوم القيامة . ويؤيد هذا الجواب ماروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : حياتي خير لكم ومماتي خير لكم تعرض على أعمالكم فإن وجدت خيراً حمدت الله وإن وجدت غير ذلك استغفرت لكم . فتكون شهادته على هذا الرأي شهادة إجمالية لا شهادة على كل فرد ولكن بعض الصوفية تمسكوا بأنه صلى الله عليه وسلم يعلم حال كل فرد إلى يوم القيامة وقالوا إن النبي يسير في أقطار الأرض والملكوت وهو حي بروحه وجسده يتصرف تصرف الأحياء في الدنيا

وهذه مغالاة منهم فى دين الله حملهم عليها الحب والعاطفة وقد نهى الله عن هذه المغالاة فقال لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولهذا لم يرتض هذا الرأى الشيخ الآلوسى المفسر الكبير وقال إن فى الأحاديث ما يرد عليه . وأجاب بعضهم بأنه يعلم حال أمته على الأعيان ويعرف ما يحدث من كل فرد إلى يوم القيامة إلا أنه قد يعرض له النسيان فى بعض مواقف القيامة لشدة الهول . فإذا وعى للشهادة تذكر فشهد عند هدوء الغضب الإلهى وهو جواب ضعيف كما ترى إذ أنه وهو قائم على الحوض يكون فى مقام التكريم والأمن فكيف يقال له فى هذه الحالة إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك . مع أنه ليس محلا للنسيان .

والأصح عند العلماء المحققين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم شيئاً عن أحوال أمته بعد وفاته والحديث الذى أوردوه عن عرض الأعمال ضعيف مطعون فيه من المحدثين . ومعنى كون الرسول شاهداً أنه يشهد على رسل الله السابقين بإبلاغ أممهم أو يشهد لأمته بالعدالة ويزكيهم وإنما علم الرسول بذلك من القرآن الصادق الذى أوحى إليه به ويؤيد هذا الرأى ما ثبت فى تفسير قوله تعالى : وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً . حيث روى جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما من رجل من الأمم إلا ود أنه منا أيتها الأمة : ما من نبى كذبه قومه إلا ونحن شهداؤه يوم القيامة أن قد بلغ رسالة الله ونصح لأمته رواه ابن حجر فى فتح البارى الجزء الثامن .

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب فيقول هل بلغت ؟ فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته فتشهدون أنه قد بلغ زاد أبو معاوية فيقال وما علمكم فيقولون أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا

وروى أحمد بسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ويجيء النبي ومعه الرجلان ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك فيقال لهم أبلغكم هذا فيقولون لا فيقال للنبي أبلغتهم فيقول نعم فيقال له من يشهد لك فيقول محمد وأمته . وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قول الله تعالى فى آخر سورة الحج وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس .

قال القرطبى فى تفسيره أورد ابن المبارك حديثاً بمعنى ما تقدم ثم زاد فيه فتقول الأمم كيف يشهد علينا من لم يدركنا فيقول لهم الرب سبحانه كيف تشهدون على من لم تدركوا فيقولون ربنا بعثت إلينا رسولا وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصت علينا أنهم قد بلغوا فشهدنا بما عهدت إلينا فيقول الرب صدقوا .

وقد قال المفسرون إن الرسول يزكى أمته عند ذلك بأن شهادتهم حق وصدق كذلك . وقال بعضهم إن على فى الآية بمعنى اللام فهو شهيد لهم عند ذاك لا عليهم وهو كما ترى .

وأغرب بعضهم فزعم أن معنى كون الرسول شاهداً أنه يحضر سؤال القبر لكل إنسان وبذلك يعرف حاله من طاعة أو معصية فيشهد يوم القيامة بناء على هذه المعرفة وهو كما ترى لم يسق على مدعاه دليلا . فاستمسك بما يوحى به الدليل فإنه أبعد عن الإنحراف . كما ذكر بعض المفسرين أن معنى كونه شاهداً أى بوحدانية الله تعالى وأنه لا إله إلا هو مع أن هذه الشهادة ليست خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم بل كل نبى وكل ملك وكل عالم يستخدم علمه وعقله ويسير وراء فطرته ولا ينحرف عنها يشهد بذلك ويدل عليه قوله تعالى .

شهد الله أنه لا إله هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم الآية من سورة آل عمران .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . والمراد بالفطرة هى التى فطر الله الناس عليها وركزها فى طباعهم من الإقرار بربوبيته والاعتقاد بخالقيته وإلى ذلك تشير الآية الكريمة فى قوله تعالى : وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين الآية من سورة الأعراف .

ومعنى كونه صلى الله عليه وسلم مبشراً أى يبشر الطائع بالجنة فإن المبشر هو المخبر بخبر سار ومعنى كونه نذيراً أى منذراً أى مخوفا مخبرا بخبر سيء وأما قوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم فهو من قبيل الاستعارة التهكميه وهى تكون فى وضع الألفاظ وإرادة أضداد معانيها أو أنه بمعنى أخبرهم بعذاب أليم يصلى بشرتهم ويحرق جلودهم ويباشرها . وإنما أتى بالإنذار على صيغة المبالغة مع أن المقابلة تقتضى أن يقال بعثته مبشراً ومنذراً لعموم الإنذار وخصوص التبشير فالإنذار موجه لجميع الأمه صالحهم وعاصيهم فالإنذار للصالح كى لا يحيد عن صلاحه والإنذار للعاصى كى يرتدع عن معصيته . أما التبشير فهو خاص بالطائعين الذين سعوا سعياً حثيثاً إلى الجنة وعلموا أن سلعة الله غالية فبذلوا ثمنها تهجداً بالليل وبذلا بالنهار ومسارعة إلى الخيرات وتسابقاً إلى الفرائض . قال تعالى : ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً من سورة الإسراء .

وقدم التبشير على الإنذار لأنه المقصود الأصلى من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ أنه رحمة مهداه ونعمة مسداه . وكذلك قدمه لبيان شرف المبشرين عند الله وكأن الله عوضه ما فاته من المبالغة بالتقديم . وقد ذكر هذا الوصف فى مواضع كثيرة من القرآن غير أن الله تارة يجمع للرسول الوصفين معاكما هنا فيقول فى سورة الأحزاب يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وفى سورة الفتح إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً

وفى سورة البقرة إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسئل عن أصحاب الجحيم . وغير ذلك من الآيات والغالب فى الوصفين إذا اجتمعا أن يقدم وصف التبشير على وصف الإنذار للحكم التى قد مناها ومن غير الغالب قد يقدم الإنذار على التبشير كما فى قوله تعالى فى سورة هود اننى لكم منه نذير وبشير وذلك لأن المقام خطاب للكفار فهم أولى بالتخويف والإنذار وقال الألوسى فى تفسير الآية روعى فى تقديم الإنذار على التبشير ما راعى عادة فى تقديم التخليه عن التحليه وتقديم النفى على الإثبات، وتارة يقتصر على وصف الإنذار كما فى قوله تعالى قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . وهنا يجب أن يراد بالإنذار مطلق التبليغ فيعم الوحى كله بما فيه من بشارة ونذاره أو أنه خص بالإنذار لأنه يخاطب الناس عموما . وقد كان أغلبهم كفاراً فغلب الإنذار على التبشير . ويوافق هذا ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال: يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أو تصبحكم ألستم مصدقى قالوا ما جربنا عليك كذبا فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، ومن أوصاف الرسول كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم .

ويطابق أيضاً قول الله تعالى فى سورة سبأ ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

ومعنى كونه صلى الله عليه وسلم (حرزا) أى حصنا (للأميين) المراد بهم العرب إذ كانوا قبل بعثته فى شقاق وتفرق تنقصهم الأمم من أطرافهم وتسخرهم الدول لأهوائهم فالمناذرة فى الشرق خاضعون تحت نير الفرس . والغساسنة فى الشمال مستذلون تحت حكم الروم ومن غير هؤلاء وهؤلاء أوزاع متفرقون فى أنحاء الجزيرة لا تجمعهم شريعة ولا تنتظمهم قيادة . فلما أرسل محمد إليهم جمعهم بعد تفرق وأعزهم بعد ذله وآخى بينهم بعد قتال وتنازع وأسس بهم ولهم دولة موحدة أمكنها أن تنشر دين الله فى الأرض حتى صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

وقد وصفهم القرآن فى غير آية بالأميين فقال تعالى هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين الآية من أول سورة الجمعة .

وقال تعالى حكاية عن اليهود ليس علينا فى الأميين سبيل . والأميون جمع أمى وهو من لا يعرف الكتابة ولا القراءة فى صحف وهو نسبة إلى الأم إشارة إلى أنه بقى على حالته التى ولد عليها لم يتعلم . وقد كان وصف الأمية فى الرسول مدحا عظيما حيث كان دليلا على صدقه فى أن القرآن كلام الله إذ لو كان كاتبا قارئا لقالوا إنه اكتسبه من غيره وكونه من ثقافاته وإلى ذلك يشير قوله تعالى : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون وقد زعم بعض العلماء أنه نسبة إلى الأمه وزعم أنه سماهم أميين لأنهم الأمة وحدهم دون سواهم وهو كلام متعصب لا يمت إلى التاريخ الصحيح بنسب ولا سبب . ويدل على ذلك قول الرسول إنا أمة أميه لا نكتب ولا نحسب . وأوضح من هذا قوله بعثت إلى أمة أميه ويدل على ذلك أيضاً أن اليهود كانوا يستدينون من العرب ولا يسددون دينهم ويقولون على سبيل التعبير والاستخفاف ليس علينا فى الأميين سبيل . اقرأ أول الآية يظهر لك هذا واضحاً .

قال تعالى : ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل الآية من سورة آل عمران .

فلو كان المراد بنسبتهم إلى الأمه دون سواهم لكانت نسبة تشريف لا سبب احتقار ولكانت سبباً فى أن يحذر جانبهم لا أن تؤخذ حقوقهم ويستهان بأموالهم .

والغريب أن بعض المحدثين فى زمننا هذا قد استهواهم هذا الرأى وكتبوا يدافعون عنه بل إن بعضهم ادعى ان هذا رأيه الذى وصل إليه

بفكره مع أنه منصوص عليه فى كتب التفسير قديماً وما أكثر لصوص الأدب والعلم فى هذا العصر . واعلم أيها القارىء الكريم أن الله وهب هذه الأمة العربية رغم أميتها وبعدها عن حضارات الفرس والروم وهبها عقولا حافظه ورءوسا مفكره أغنتهم عن السجل المكتوب فكانت حوافظهم دواوينهم التى إليها يرجعون . كان الرجل منهم يحفظ أنسابا وأياما ووقائع بما فيها من مثالب ومدائح وما فيها من قصائد ومقالات لا يحيط بها إلا من كان مثلهم فى معجزاتهم الخارقة . كما وهبهم الله ألسنة فصيحة وفهما صائبا عوضهم عما فقدوا من معرفة الكتابة والقراءة .

وهناك رأى غريب أيضاً فى تسميتهم أميين يقول إن السبب فى تسميتهم أميين سكناهم فى أم القرى فنسبوا إليها .

فإن قيل كيف يكون حرزاً لأمة العرب وحدها مع أنه صلى الله عليه وسلم بعث لجميع الناس كافة وقد نص على عموم رسالته القرآن والسنة مثل قوله تعالى وما أرسلناك إلا كافة للناس وقوله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ومنها وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة . رواه البخارى أجيب عن ذلك بأن الحديث لم يتعرض للمبعوث إليهم لا نفيا ولا إثباتا وإنما هو يتكلم عن قوم محمد الذين يبعث فيهم ومن بينهم كما فى قوله تعالى : هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمه الآية من سورة الجمعة وقد سبقت . وأيضاً فالعرب وحدهم الذين كانوا فى فرقة وتنازع وكانوا موضع أطماع من جيرانهم الأقوياء من الفرس والروم فلذلك خص بكونه حرزاً لهم حافظا لهم وحصنا ضد أطماع غيرهم فيهم . أما سائر الدول إذ ذاك فكانوا فى عزة ومنعة وحصون وقوه فكان ذكر هذا الوصف فى التوراة علامة من علامات نبوة محمد حيث ذكرت أمة ظهر أنها كانت أحوج ماتكون إلى نبى يستعيد لها قوتها ويحفظ عليها رشدها ويمنعها من أعدائها .

ومعنى قوله (أنت عبدى ورسولى) العبودية الطاعة الخالصة لله وقد يراد بالعبودية التسخير الكونى وعندئذ يصح أن يقال الناس جميعا عباد الله ولكن المراد بالعبودية هنا عبودية خاصة نشأت عن إرادة واختيار من العبد ولذلك استحق صاحبها أن يضاف إلى ضمير الجلالة كما فى قوله تعالى : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما الآيات من سورة الفرقان .

وقد أوضحت صفة من يستحق أن يوصف بأنه عبد الرحمن . والعبودية لله أعظم وصف يتمناه الأنبياء والأولياء . وقد أشار القاضى عياض إلى شرف العبودية فقال :

ومما زادنى عجبا وتيها   وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى   وجعلك خير خلقك لى نبيا

والعبودية أعظم دليل على صدق المحبة وإخلاص العمل ولذلك ترى المحبين العاشقين يفتخرون بهذا الوصف فيقول قائلهم :

بالله إن سألوك عنى قل لهم   عبدى وملك يدى وما أعتقته

ويقول آخر : ودعتنى بالعبد يوما فقالوا : قد دعته بأشرف الأسماء .

وإذا أردت أن تعرف عظمة هذا الوصف فاقرأ قوله تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . فلم يختر لنبيه فى ليلة التكريم أشرف من هذا الوصف .

فالعبودية هى الوصف الذى يتفاوت فيه الأنبياء والمرسلون وقد بلغ رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فيه غاية الغايات القاصيه، ونهاية النهايات النائيه . وقد روى الشيخ الألوسى فى تفسيره عن أبى القاسم الأنصارى أنه قال لما وصل النبى إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة أوحى الله إليه يا محمد بم نشرفك قال بنسبتى إليك بالعبودية . ومن هذا نعلم السر فى تقدم وصف العبودية على وصف الرسالة فى قوله أنت عبدى ورسولى وأحسن من هذا ما قيل إن النصارى غلوا فى دينهم فرفعوا المسيح بن مريم فوق

درجة النبوة وقالوا إنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة وضلوا فى دينهم بهذا الاعتقاد فأراد الله أن يحمى المسلمين من هذه الضلالات ومقدماتها فنهى عن الغلو فى الدين وبين أن محمداً عبده ورسوله فى مواضع كثيرة كآية الاسراء السابقة وكالحديث الذى نحن بصدد شرحه .

وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه على بيان هذه الصفة فى كثير من أحاديثه . فقد أهديت للنبى شاة فجثا على ركبتيه يأكل فقال له أعرابى ما هذه الجلسه فقال إن الله جعلنى عبداً كريما ولم يجعلنى جباراً عنيداً . رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

وروى ابن حجر فى فتح البارى عن الزهرى قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم ملك لم يأته قبلها فقال إن ربك يخيرك بين أن تكون عبداً نبيا أو ملكا نبيا فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأومأ إليه أن تواضع فقال بل عبداً نبيا . وقد ذكر ابن حجر أن النسائى قد وصل هذا الحديث عن طريق ابن عباس .

وروى الإمام الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا جلس لطعامه يجثو ولا يتكىء ويقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد . وقال العراقى إسناده ضعيف .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكره من الصحابة التغالى فى مدحه فقال لهم : لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم وإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء . والاطراء مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه . وما لنا نذهب بعيداً فى هذا الشأن وقد جعل الله من أركان الصلاة التشهد الذى يكرر فى اليوم والليلة أكثر من عشر مرات وفيه نشهد لمحمد بالعبودية لله والرسالة له فقد روى البخارى عن عبد الله قال : كنا إذا كنا مع النبى فى الصلاة قلنا السلام على الله من عباده السلام على فلان وفلان فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تقولوا السلام على الله

فإن الله هو السلام ولكن قولوا التحيات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وإضافة عبد ورسول إلى ضمير الجلاله فيه من التشريف ما فيه .

(سميتك المتوكل) التوكل الاعتماد على الله فى كل الأمور وهو مقام من مقامات الموقنين فإن المؤمنين إذا علموا أنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها وما من دابة إلا على الله رزقها وإذا علموا أن الله لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . وقد مدح الله التوكل وأهله فى آيات كثيرة فقال إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الآيات من سورة الأنفال .

وقال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه . من سورة الطلاق . وفى الآثار النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : عرضت على الأمم فأجد النبى يمر معه الأمه والنبى يمر معه النفر والنبى يمر معه العشر والنبى يمر وحده فنظرت فإذا سواد كثير فرجوت أن تكون أمتى فقيل هذا موسى فى قومه ثم قيل لى أنظر إلى الأفق فرأيت أمتى قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيأتهم فقيل لى أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم يارسول الله قال الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشه وقال يارسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم فقال الرسول اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشه . رواه البخارى ومسلم بروايات كثيرة . والحديث فى أصله صحيح وإن اختلفت الروايات فى بعض العبارات . والتوكل الصحيح الشرعى لا يكون إلا بعد فعل الأسباب الظاهرية فالزارع مثلا إذا أراد الخير من الله بذر الحب وسقى

الأرض ثم توكل على الله فى إنبات الزرع وإلى هذا يشير الله بقوله أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . ولو قعد فى بيته وقال توكلت على الله كان هذا تواكلا وتكاسلا . قال القرطبى فى تفسيره التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض وإتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى السعى فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو وإعداد واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتاده وهذا قول عامة الفقهاء ومحقق الصوفية . قال سهل بن عبد الله من قال التوكل يكون بترك السبب فقد طعن فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله يقول فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا والغنيمة اكتساب عن عمل وجهاد .

وقال تعالى : هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . الآية من سورة الملك .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم إن الله يحب العبد المحترف أى الذى يتخذ حرفة يأكل منه ويعول منها أهله ذكره الإمام الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين لكن حكم العراقى بضعفه .

وقال تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله الآية من سورة الجمعة . إلا أن التوكل الحقيقى لا يجعل الإنسان يطمئن إلى تلك الأسباب ويلتفت إليها بقلبه فإنها لا تجلب نفعا ولا تدفع ضراً بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل منه وبمشيئته فما فعل الأسباب وتعاطيها إلا الخضوع للأمر الشرعى فقط . هذه حقيقة التوكل فاحرص عليها .

وقد رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا ينام فى المسجد ولا يسعى إلى رزق ويقول توكلت على الله فضربه بالدره . وقال أما علمت أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضه .

واعلم أنه كما أن لله الأسماء الحسنى كذلك للرسول صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة أشهرها محمد وأحمد . وقد ذكرا فى القرآن الكريم : قال تعالى

وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد الآية من سورة الصف .

قال ابن القيم فى كتابه زاد المعاد وكلها أسماء من قبيل النعوت وليست اعلاما محضه للتعريف بل هى أسماء مشتقة من صفات قائمة به توجب له المدح والكمال فنها محمد وهو أشهرها وبه سمى فى التوراة صريحاً كما بيناه فى جلاء الأفهام فى فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ومنها أحمد وهو الأسم الذى سماه به المسيح بن مريم كما فى الآية السابقة ومنها الماحى ومنها الحاشر والعاقب وغير ذلك من الأسماء التى هى فى الحقيقة صفات ومعنى الماحى الذى يمحو الله به الكفر . ومعنى الحاشر الذى يحشر الناس بعد قيامه من قبره . ومعنى العاقب الذى ليس بعده نبى انتهى كلام ابن القيم مختصراً .

ولما كان ما مضى من الصفات أدخل فى باب العقيدة كان الخطاب فيه أولى ليؤمن به فى نفسه ويدعو إليه أمته أما ما سيأتى فهو أدخل فى باب المدح فكان أحق بالغيبة للإشارة إلى أن المدح فى الوجه مذموم وقد مدح رجل آخر فى وجهه فقال له رسول الله قطعتم ظهر الرجل . اسمع حيث يصفه ربه بحسن الخلق فقال : ليس بفظ ولا غليظ . فأنت تلاحظ أن لون الكلام قد تغير فبعد أن كان للخطاب أصبح للغيبة وهو ما يسميه البلاغيون الالتفات وهو يضفى على الكلام نوعاً من الجدة ويعطى للسامع نشاطا فى الانتباه وهو فوق هذا إشارة إلى أن الحكم بأخلاقه الحسنة حكم ظاهر عام يقر به كل من يعرفه وليس من قبيل المحاباة أو الاصطفاء ولذلك كان العرب يلقبون الرسول قبل البعثة بالصادق الأمين . وكان حلمه صلى الله عليه وسلم وسخاؤه وشجاعته مضرب المثل والفظ الغليظ السيء الخلق الغليظ الجانب الخشن الكلام . وقد مدحه الله بذلك أيضاً فى القرآن فقال ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك الآية . وقد كان خلقه

الكريم حقاً سبباً فى جمع الناس حوله والتفافهم به وحسن إيمانهم بدعوته وتفانيهم فى سبيل شريعته سيما حلمه الواسع الذى كان باباً من أبواب التأليف لقلوب العاصين وتخفيف غلواء المنكرين .

ومعنى قوله (ولا سخاب فى الأسواق) أى لا يرفع صوته بالخصومة وقت البيع أو الشراء أو المساومة . واستنبط العلماء من ذلك أن دخول الإمام الأعظم أماكن الأسواق لا يحط من مرتبته لأن الذم هنا وارد على رفع الصوت فيها وليس وارداً على أصل الدخول . وقد حكى الله على لسان الكفار قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي فى الأسواق ورد عليهم بقوله وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق فبين أن هذه سنة الأنبياء من قبل محمد صلى الله عليه وسلم وأن دخولهم الأسواق للبيع والتجارة ليس بعيب مادام الإنسان مراعيا آداب الشرع الكريم من صدق فى القـــول وأمانة فى العمل وخفض للصوت وسهولة فى المعاملة وسماحة فى المساومة وتحر للحلال. وهذه الآداب مذكورة فى كتب الحديث . وقد عقد صاحب الفتح الربانى أبوابا تتعلق بهذه الآداب فى الجزء الخامس عشر فارجع إليه إن شئت ولأذكر لك نموذجا منها ربما تقصر همتك عن الإطلاع على الأصل فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن . أخرجه الحافظ المنذرى ورواه أحمد فى مسنده .

وقال صلى الله عليه وسلم غفر الله لرجل كان من قبلكم سهلا إذا باع سهلا إذا اشترى سهلا إذا قضى أى دينه سهلا إذا اقتضى أى طلب قضاء حقه بسهولة وعدم إلحاف رواه أحمد وأنا أرى أن الله نهى عنه رفع الصوت فى الأسواق وأراد منه نفى النقائص كلها التى تتعلق بالأسواق من غش وخداع وكذب وحلف بالباطل وعدم سداد دين وما إلى ذلك فإن من

تحكم فى أمر قليل كرفع الصوت وأمكنه الزام نفسه بهذا الأدب البسيط فهو على منع غيره من القبائح أقدر ولهذا اضطررت أن أشير لك الى بعض قبائح الأسواق لتتحرز منها وتتأدب بآداب الشرع فيها والله يقول لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . الآية من سورة الأحزاب . وخلاصة هذه الصفه أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن كهؤلاء المنهمكين فى تجارة الدنيا الذين يملأون الجو صياحا وخصومة وحلفا بالباطل وغشا وتزييفا للحقائق .

ثم قال (ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح) والسيئة كل ما يسوء فى عرض أو نفس أو مال أو حاشية . وقد كان ذلك خلقا كريماً فيه امتثالا لقول الله تعالى ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن الآية من سورة فصلت . وسيرته الكريمه صلوات الله وسلامه عليه ملأى بالدلائل على حلمه وعفوه . فقد جاء أعرابى فجذب رسول الله من حاشية برده النجرانى حتى أثرت الحاشية فى عنق رسول الله وناداه بصوت أجش فى غلظة وجفاء وقال له أعطنى من مال الله الذى ليس مالك ولا مال أبيك فلم يزد على أنه تبسم فى وجه الأعرابى وأمر له بعطاء حتى أرضاه . أصله فى البخارى . وقد أمره الله بالعفو والصفح فى مواضع كثيرة فقال فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر الآية من سورة آل عمران وقال فاصفح الصفح الجميل من سورة الحجر وقال فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون من سورة الزخرف .

شبهة وردها : فإن قيل هـــذا يعارض قوله تعالى يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم أجيب عن ذلك بأجوبة منها أن حلمه وعفوه وصفحه كانت صفات طبيعيه فى فطرته النبوية أما الغلظة على الكفار أو العصاة فى بعض الأحيان فكانت تحتاج إلى معالجة وخروج عن المألوف اتباعا للأمر فقط وبقدر الضرورة فليس من شيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الانتقام وإنما كان يفعله فى بعض الأحيان ابتغاء وجه الله وغضبا

لحقه سبحانه وتعالى . ولذلك تقول عائشة ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه . وما انتقم رسول الله لنفسه فى شىء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى رواه البخارى ومسلم . وقد ذكره الإمام النووى فى كتابه رياض الصالحين .

وقد أجاب بعضهم عن هذه الشبهة فقال إن الحلم يكون فى معاملة المؤمنين الطائعين والأمر بالغلظة يكون فى حق الكافرين والمنافقين . ونظيره ما وصف الله به المؤمنين من أتباع محمد بقوله . محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . والمراد بالعفو والصفح التجاوز عن الذنب وترك عقاب المسىء وأصل العفو المحو والطمس . وأصل الصفح الإعراض بصفحة الوجه كأنه أعرض بوجهه عن ذنبه اه من كلام ابن الأثير فى النهاية .

ومعنى قوله (ولن يقبضه الله) أى لن يميته وإسناد الموت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم واتصافه به أمر ثابت شرعا وواقعا فالله يقول كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز الآية من سورة آل عمران .

ويقول الله مخاطبا نبيه : إنك ميت وإنهم ميتون الآية من سورة الزمر .

ويقول تعالى وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم الآية من سورة آل عمران .

فتحرز بعض الصوفية من قولهم مات رسول الله تحرز لا يدعو إليه دليل . بل إن عمر حينما أخذته الدهشة لموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن محمداً لم يمت ومن قال إن محمداً مات ضربت عنقه لم يلبث أن رجع عن رأيه حينما أقبل أبو بكر من العالية وهى ضاحية من ضواحى المدينة فكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبله وقال ما أطيبك يا رسول الله حيا وميتا . وقد بشره الله تعالى فى هذه الجملة بأن حياته ستمتد

حتى يحقق أهداف رسالته فلن يميته حتى (يقيم به الملة العوجاء) والمراد بها الشريعة وقد كانت مستقيمة بعيدة عن الوثنية من زمن إبرهيم عليه الصلاة والسلام إلى أن انحرف بها عباد الأصنام من كفار العرب الذين زعموا أن ابراهيم كان وثنيا وكان يستقسم بالأزلام فرد الله عليهم بقوله. ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين واستمرت عبادة الأصنام تشيع وتكثر حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بشريعة التوحيد ليطهر ملة إبراهيم من زيغ الملحدين ويرد إليها استقامتها التى نزلت عليها من عند الله . ويبعد عنها الاعوجاج الذى لحقها من المفسدين . وقد حقق الله هذا الوعد لمحمد صلى الله عليه وسلم فلم يمت حتى كسرت الأصنام وأزيلت من حول الكعبة وأنزل هبل صنم قريش الأعظم من علياء عرشه فوق الكعبة واندحر الشرك وظهر التوحيد الخالص وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا الآية من سورة الإسراء

وقوله (ويفتح به) أى بالرسول وهدايته وفى رواية (ويفتح بها) أى بكلمة لا إله إلا الله (أعينا عميا) عن الحق ولا يراد بالعمى حقيقته وهو فقد البصر وإنما هو كناية عن الضلال كما فى قوله تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا وأتى بقوله أعين على صيغة جمع القله لأن جمع القله قد يأتى فى موضع جمع الكثرة وبالعكس كقوله ثلاثة قروء والأولى أن يقال إنه للإشارة إلى أن المؤمنين فى كل عصر أقل عدداً من الكافرين وقيل للتشابه بينه وبين آذان . فإن قيل إنه جمع قلبا على قلوب جمع كثرة فلم لم يجعله جمع قلة للإشارة السابقة أجيب بأنه لم يسمع للقلوب جمع قلة كما لم يسمع للآذان جمع كثرة .

وقد هدى الله للإسلام بواسطة دعوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أناسا كانوا فى ضلالة عمياء فكنت تراهم كأنهم عمى لا يبصرون فإذا بهم هداة العالم ومصابيح الرشاد ، وكنت تراهم كأنهم صم لا يسمعون فإذا هم ينصتون للقرآن ويسمعونه كأن على رءوسهم الطير خشوعا وتبتلا .

وكنت تراهم كأن على قلوبهم غلافا فوق غلاف وحجابا فوق حجاب فأصبحوا بعد البعثة المحمدية يحملون قلوبا أمضى من السيف وأرسخ من الجبال وفى الوقت نفسه تبكى عند سماع الموعظة رقة وخوفا وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . فلله الحمد والمنة قد فتح أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .

وفى بعض الروايات مولده بمكة ومهاجره طيبة يعنى المدينة وملكه بالشام وأنت ترى فى هذه الزيادة دلائل قوية على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد تحققت فيه الأوصاف والعلامات كلها فمن غيره من الأنبياء قد جمع بين كونه ولد بمكة وهاجر إلى المدينة وملكت الشام أمته ؟

وهنا سؤال يتردد على الأذهان حاصله لم اختص عطاء بن يسار عبد الله ابن عمرو بن العاص بتوجيه هذا الأمر إليه والجواب أن عبد الله بن عمرو اشتهر من بين العرب والمسلمين بأنه يحسن الكتابة والقراءة والاطلاع وقد شاع بين الناس بأنه قرأ التوراة والإنجيل والكتب السماوية فلما نزل قوله تعالى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل حمل ذلك عطاء على أن يسأل عبد الله بن عمرو هذا السؤال فكانت إجابته خيراً وبركة لجميع المسلمين.

نبذة عن راوى الحديث

هو أبو محمد عبد الله بن عمرو بن العاص القرشى السهمى . أسلم قبل أبيه وكان مجتهداً فى العبادة مكثراً لتلاوة القرآن كما كان أكثر الناس اخذاً للحديث والعلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى البخارى فى كتاب العلم أن أبا هريرة قال (ماكان أحد أكثر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منى إلا ماكان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب) وجاء عنه أنه كان يكتب كل ما يسمعه من النبى صلى الله عليه وسلم فنهته الصحابة عن ذلك وقالوا له إن النبى صلى الله عليه وسلم يتكلم فى الغضب والرضا فلا تكتب كل ما تسمع فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك

فقال له : اكتب فوالذى نفسىء بيده ما خرج منهما إلا حق يعنى شفتيه الكريمتين .

وجاء عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لعروة بن الزبير (يا ابن أختى بلغنى أن عبد الله بن عمرو مار بنا إلى الحج فالقه فاسأله فإنه قد حمل عن النبى صلى الله عليه وسلم علما كثيراً) . وروى ابن سعد عن مجاهد أنه قال (رأيت عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة فسألت عنها فقال : هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بينى وبينه فيها أحد) . وروى ابن سعد أيضا عن عبدلله بن عمرو أنه قال (استأذنت النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابة ما سمعت منه فأدن لى فكتبته فكان عبدالله يسمى صحيفته تلك الصادقة) اﻫ .

اللغة والإعراب

وقد أخرنا لك هذا البحث لأننا بحسب تجاربنا السابقة وجدناك تنفر منها فخذ منها ما يتصل بعلمك ويوافق اتجاهاتك . واستعن بالله ولا تعجز .

(التوراة)كتاب موسى الذى أنزله الله عليه ولفظه عبرى وليس بعربى الأصل أما التور بسكون الواو فهو إناء من صفر أو حجارة ومنه حديث أم سلمة صنعت حيسا فى تور ويطلق التور على السفير بين القوم قال فى القاموس فى مادة ورى التوراة تفعله بفتح العين من ورى الزند خرجت ناره لأنها ضياء ونور . قال فى شرح القاموس مذهب الكوفيين أن التوراة وزنها تفعله فتاؤها زائدة . أما عند البصريين وسيبويه فوزنها فوعله وتاؤه مبدلة عن واو وقيل من ورى فى الكلام إذا عرض لأن فى التوراة رموزا كثيرة وتلويحات جليلة وأصلها وورية بواوين فابدلت الأولى تاء وتحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا فصارت توراة . وهذا الخلاف يشعر بأن الكلمه عربية الأصل مع أنها عبرية اتفاقاً فلا يعرف لها أصل إلا أن يقال إنهم أجروها بعد التعريب مجرى الكلمة العربية وتصرفوا فيها .

(والقرآن)كتاب الله المعجز الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه

وسلم وهو فى الأصل مصدر مرادف للقراءة ومنه قوله تعالى : إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه أى قراءته ثم نقل من هذا المعنى المصدرى وجعل اسما للكلام المعجز من باب إطلاق المصدر على المفعول . ورأى بعضهم أنه مأخوذ من القرء بمعنى الجمع لأنه مجموع الحروف والكلمات أو مشتق من القرائن لأن القرآن يحوى أدلة كثيرة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فهو قرينة على صدقه أو مشتق من القرن لأن الآيات قد قرن بعضها ببعض . وقيل إنه ليس بمشتق وإنما هو مرتجل أى موضوع من أول الأمر علما على هذا الكلام المعجز . والذى أختاره أنه مشتق وأنه مهموز وإذا حذف همزه فإنما ذلك للتخفيف وإذا دخلته فإنما هى للمح الأصل لا للتعريف . وقد استوفى هذا البحث إستاذنا الشيخ الزرقانى فى كتابه مناهل العرفان . (والنبى) فعيل بمعنى فاعل وهو المخبر عن الله والنبأ الخبر وقيل من نبأ بمعنى ارتفع والنباوه ما ارتفع من الأرض وكلا المعنيين واضح فى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم فهم مخبرون عن الله وهم مرتفعون بمنزلتهم عن الخلائق لشرفهم وجهادهم واصطفاء الله لهم .

(والشاهد) الذى يحضر الحادثة والشهيد من أسماء الله تعالى الذى لا يغيب عنه شيء . والشهيد من قتل فى معركة الكفار مؤمنا بربه لأنه حضرته الملائكة أو لأنه حضر الموقعة .

(ومبشراً) يقال بشره بالتخفيف وأبشره وبشره بالتشديد أى أخبره بما يسر وهذه الصفات كلها تقع موقع الحال من المفعول به ويقال فلان حسن البشر أى طلق الوجه وتباشير الصبح أوائله والبشرة بالتحريك ظاهر الجلد . والمبشرات الرياح التى تبشر بالغيث .

(ونذيراً) قال فى مختار الصحاح الإنذار الإبلاغ ولا يكون إلا فى التخويف والاسم النذر بضمتين والنذير المنذر .

(وحرزا) حصنا ومنه حديث الدعاء اللهم اجعلنا فى حرز أى كهف

منيع ويقال حرزه حفظه وقيل هو من باب الإبدال وأصل الزاى سين أى حرسه واحترز من كذا وتحرز منه أى توقاه .

(أنت عبدى) العبودية والعبدية والعبادة تدور معانيها اللغوية حول الطاعة التامة المخلصة ، والإنسان مطلقا عبد لله سواء كان حراً أم مملوكا مؤمنا أم كافراً لأنه مسخر لإرادته والآية تشير إلى هذا التسخير فى قوله تعالى : ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال الآية من سورة الرعد .

(المتوكل) يقال توكل بالأمر إذا ضمن القيام به ووكلت أمرى إلى فلان أى اعتمدت فيه عليه .

(سخاب فى الأسواق) السخب بالسين والصخب رفع الصوت وفى فتح البارى الصخب اللفظ وهو اختلاط الأصوات فى المخاصمة أما السخاب فعبارة عن قلادة تتخذ من خرز أو قرنفل ليس فيها ذهب ولا فضة ، وفى بعض الآثار وصف المنافقين بأنهم خشب بالليل سخب بالنهار أى إذا جن عليهم الليل سقطوا نياما كأنهم خشب فإذا أصبحوا تساخبوا على الدنيا شحا وحرصا والسخب الصياح .

(يعفو ويصفح) كثير من أهل اللغة يسوى بين العفو والصفح إلا أنى أرى أن العفو يشير إلى محو الذنب وطمسه أما الصفح فهو يشير إلى التغاضى عن المذنب مع بقاء ذنبه فى الذاكرة كأنه يقول فى حالة الصفح إن عدت إلى هذا الذنب جمعنا لك عقوبة الذنبين معا وقوله (عميا وصما وغلفا) الأعمى الذى لا يبصر والأصم الذى لا يسمع . والأغلف الذى يغشاه غلاف ويقال قلب أغلف كأنما أغشى غلافا فهو لا يعى . ومنه قوله تعالى وقالوا قلوبنا غلف .

الآيات والأحاديث التى تؤيد الباب

قال تعالى : ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل الآية من سورة الأعراف .

وقد سبقت الإشارة إليها . وقال تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم الآية وقد سبقت أيضاً .

وعن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا وما مسست ديباجا ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ولقد خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط ولا قال لشىء فعلته لم فعلته ولا لشىء لم أفعله ألا فعلت كذا متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا وكان يقول إن من خياركم أحسنكم أخلاقا متفق عليه .

أغراض الحديث وأحكامه

أولا : لا مانع من جمع الأدلة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لزيادة اليقين .

ثانياً : بيان الصفات البارزة فى رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم لنتمسك بشريعته ونعض عليها بالنواجذ .

ثالثاً : التخلق بأخلاق الرسول والتأدب بآدابه الكريمة .

رابعاً : التبشير باتساع الرقعة الإسلامية وظهور دين الإسلام على الأديان كلها .

خامساً : جواز قراءة الكتب السماوية السابقة لأخذ الأدلة منها على ثبوت الإسلام .

الحديث الثانى عشر

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ . أخرجه البخارى فى باب التعبير جزء ١٢ من شرحه فتح البارى .

المعنى الإجمالى

يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم أمته إلى التحلى بالفضائل والبعد عن الرذائل . والعليم بعباده قد وضع لهم آدابا تسعدهم فى دنياهم لو تمسكوا بها . من هذه الآداب ونلكم الفضائل الصدق فالصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة والكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار . وقد حرم الله الكذب فى المنام كما حرمه فى اليقظة فلا يباح للمسلم أن يقول رأيت فى منامى كذا ولم يره . وكذلك حرم الله التصوير للأجناس ذوات الأرواح لأن فى ذلك تشبها بالخالق فيما لا يجوز التشبه فيه . كذلك من الآيات الفاضلة التى حث الرسول عليها صلى الله عليه وسلم عدم التسمع والتجسس على المسلمين فإن هذا خلق ذميم وقد توعد الرسول من خالف أى أدب من هذه بالوعيد الشديد ليأخذ بيد المسلمين إلى طريق الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة .

المعنى التفصيلى

(من تحلم بما لم يحلم) من تكلف الحلم والحلم ما يراه النائم فإن كان ما يراه النائم صدقا فهو أحق باسم الرؤيا وإن كان تخليطا وأضغاث أحلام فهو أحق باسم الحلم ولذلك ورد الرؤيا من الله والحلم من الشيطان . رواه البخارى وقد كلف الله المسلم بالصدق وتحريه فى جميع أموره حتى فى رؤيا

منامه فلا يحل له شرعا أن يكذب فى روايته لرؤياه وقد ذكر لهذا العصيان وعيداً شديداً وهو أن يكلف هذا الكاذب يوم القيامة بأن يعقد بين شعيرتين وهو غير ممكن لأن الشعيرة ليس لها طرف يمكن عقدها منه ولذلك قال ولن يفعل كناية عن عجزه ودوام تعذيبه وفى رواية الإمام فى مسنده عذب حتى يعقد بين شعيرتين وليس عاقداً .

قال الطبرى : إنما اشتد الوعيد فيه مع أن الكذب فى اليقظة قد يكون أشد مفسدة منه إذ قد تكون شهادة زور فى قتل أو حد أو أخذ مال . لأن الكذب فى المنام كذب على الله أنه أراه ما لم يره . والكذب على الله أشد من الكذب على المخلوقين لقوله تعالى . ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين . الآية من سورة هود .

وإنما كان الكذب فى المنام كذبا على الله لحديث : إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة رواه البخارى ومسلم وما كان من أجزاء النبوة فهو من قبل الله تعالى ولعله يخفى عليك كون الرؤيا جزءاً من ستة وأربعين من النبوة فاعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم أوحى إليه أول ما بعث على هيئة رؤيا يراها فى المنام واستمرت هذه الحال مدة ستة أشهر فإذا كانت مدة بعثته ثلاثا وعشرين سنة . كانت نسبة رؤياه إلى نبوته جزءاً من ستة وأربعين والسر فى جعل بدء النبوة من قبيل الرؤيا عدم مفاجأة النبى بما لا يتحمله فكان الملك يأتيه فى منامه ليمهد له تحمل رؤيته فى اليقظة فكان ذلك رفقا من الله ورحمة بنبيه . والسر فى جعل الرؤيا جزءاً من النبوة أن الروح فى المنام تتغلب على المحيط الجسمى وتتصرف تصرفات فوق العادة فهى تشبه إلى حد كبير حالة النبوة حيث يتغلب فيها العنصر الروحانى على العنصر الجسمى كى يستطيع البشر من بنى آدم تلقى الوحى من الملائكة الروحانيين . والسنة أن تتحرى الصدق فى كل ما ترويه عن منامك فإن رأيت خيرا حدث به

الصالحين حديث صدق وأمانة ولا تزد فيه ، وإن رأيت غير ذلك فالأولى أن تحول مضجعك وتتفل عن يسارك وتستعيذ بالله مما رأيت ولا تحدث برؤياك أحدا عند ذلك فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هى من الله فليحمد الله عليها ولا يحدث بها إلا من يحب ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هى من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره رواه البخارى .

وللعلماء فى تفسير الرؤى وجهات متعددة لأنه لم يرد فى تفسيرها قانون معين من الكتاب والسنة وإنما تركت للفطنة والإلهام . وكثيراً ما نجد تفسير الرؤيا على نقيض ظاهرها فقد رأت امرأة من أهل المدينة رؤيا فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له إن زوجى غائب وتركنى حاملا فرأيت فى منامى أن سارية بيتى قد انكسرت وأنى ولدت غلاما أعور فقال الرسول صلى الله عليه وسلم خير يرجع زوجك إن شاء الله تعالى سالما وتلدين غلاما برا ولكن المرأة دخلت عند عائشة وقصت عليها منامها فقالت لئن صدقت رؤياك ليموتن زوجك وتلدين غلاما فاجراً فقعدت تبكى فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلم تعبير عائشة فقال مه يا عائشة إذا عبرتم للمسلم الرؤيا فاعبروها على خير فإن الرؤيا تكون على ما يعبرها صاحبها رواه الدارمى بسند حسن عن سليمان بن يسار . ذكر القسطلانى فى المواهب أنه رأت أم هانىء أن يداً للرسول قد ألقيت فى بيتها ففزعت من هذه الرؤيا وخافت أن يصيب الرسول شر منها فقصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلد فاطمة ثم يربى ولدها عندك . وفى هذا إشارة إلى أن الحسن جزء من رسول الله يشبه يده ففاطمة رضى الله عنها بضعة من رسول الله وهى ابنته الزهراء والحسن بضعة من فاطمة وقد تعبر الرؤيا عن حادث فى المستقبل كما رأى الرسول قبل خروجه لغزوة أحد أن فى سيفه ثلما وأن بقراً تنحر ففسرها الرسول صلى الله عليه وسلم بأن رجلا

من أهل بيته يستشهد وأن أصحابا له يقتلون وقد تحققت هذه الرؤيا فى غزوة أحد فقتل عمه حمزة بن عبد المطلب كما قتل كثير من الصحابة وصدقت عائشة حيث تقول ما كان رسول الله يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

والرؤيا ادراكات يخلقها الله تعالى فى قلب العبد فإن صاحبها ملك كانت صادقة وإن وسوس فيها شيطان كانت كاذبة . وإن كان تأثير الشيطان فيها ضعيفا كانت أخلاطا وأضغاثا . وعلماء النفس فى العصور المتأخرة ينكرون أن الرؤيا تخبر عن غيب مستقبل ويقولون إنها عبارة عن مشاهدات ووقائع حدثت للإنسان فى عهد الطفولة فاختزنها العقل الباطن وفى حالة النوم تظهر هذه الحوادث على شكل منامات وهى فى الحقيقة عندهم صور لما مضى فقط أو لما يرجوه الإنسان ويأمله ويتخيل وقوعه . أما أن تخبر بمستقبل لم يحدث أصلا فهذا غير ممكن عندهم .

والقرآن يثبت خلاف ذلك فقد تحدث عن رؤيا الملك فى زمن يوسف وكيف أنها أخبرت عن مجىء سبع سنين شداد تشتد فيها المجاعة ويهلك فيها الحرث والنسل . وكان لهذه الرؤيا أثرها فى تولية نبى الله يوسف عليه السلام خزائن الدولة وكان لها أثرها فى الادخار وتخطى سنى المجاعة بسلام . اقرأ قوله تعالى وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . الآيات من سورة يوسف ، وكذلك رؤيا رسول الله ما يقع قبل وقوعه فى غزوة أحد وقد أشرت إليه آنفا وقد عقد البخارى كتابا خاصا بالرؤيا وفيه عجائب نبوية فارجع إليه إن شئت ، وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى أن بعضها صادق يخبر بالغيب كما أن النبوة تخبر بالغيب روى القرطبى عن عوف بن مالك عن رسول الله قال : الرؤيا ثلاث منها أهاويل الشيطان ليحزن ابن آدم ، ومنها ما يهتم به فى يقظته فيراه فى منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . فما على المسلم فى هذه الحالات الخفية إلا أن يتمسك بظاهر الشرع ويقف عند الأدلة السمعية فإن الكلام

عن الروح وما يتصل بها من الرؤى والأسرار هو مما يجب على المسلم عدم الخوض فى حقائقه لأنه مما استأثر الله بعلمه وقد قال تعالى : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا الآية من سورة الإسراء .

قال المهلب فى هذا الحديث حجة للأشعرية فى تجويزهم التكليف بما لا يطاق وهو نظير قوله تعالى يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون الآية من سورة القلم واحتج من منع ذلك بقول الله تعالى لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . والحق أن الحديث لا دلالة فيه على مذهب الأشعرية لأن تكليف الكاذب فى منامه بالعقد بين شعيرتين ليس هو التكليف المعروف المصطلح عليه عند علماء الأصول وإنما هو كناية عن التعذيب وكذلك دعاؤهم إلى السجود فى الآية ليس إلا على سبيل التعجيز والتوبيخ حيث أمر به وهو سليم صحيح فى الدنيا فلم يستجب وإلى ذلك أشار الله بقوله « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » .

هذا وقد علمت الحكمة التى أبداها العلماء فى سبب هذا العذاب على من كذب فى منامه وهى كما ترى غير مقنعة إذ لا شك أن الرؤيا ليست جزءاً حقيقيا من النبوة ولا يوصف صاحبها بأنه بعض نبى .

والأولى أن يقال شدد الله الوعيد على من كذب فى منامه لئلا يتعود على الكذب فى ذلك فيجره إلى الكذب فى اليقظة فأراد الله أن يستأصل شأفة الكذب من أخلاق الأمة الإسلامية فشدد الوعيد على مقدماته وهذا شبيه بقول الرسول صلى الله عليه وسلم . لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده مع أن الذى يسرق البيضة ليس له حكم القطع ولكن الرسول أراد الزجر عن السرقة بجميع أنواعها لأن من تعود على سرقة البيضة مرنت نفسه على السرقة فيقع فى سرقة ربع دينار فأكثر فتقطع يده عند ذلك . وذاك أدب إسلامى رفيع يحارب القبائح فى أدنى صورها

وفى أبعد مقدماتها فنعم الإسلام ونعم نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه.

الأمر الثانى الذى نهى الرسول عنه هو التسمع والتجسس على أسرار الناس فقال. ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون وفى بعض روايات الحديث يفرون منه والتعبير باستمع دون سمع يدل على السعى والاختيار وذلك بخلاف من طرق سمعه حديث المتناجين رغم أنفه فلا حرمة عليه لأنهم هم الذين جهروا بسرهم ولأنه لم يسع إلى كشف أسرارهم ويجب عليه عندئذ البعد عن مواضع التهمة والحديث وإن كان خاصا بالتجسس بالأذن إلا أن التجسس مطلقا حرام سواء كان بالأذن أو بالبصر أو بأدوات التسجيل الحديثة التى تحكى كل ما يقال فى محيطها. أو بغير ذلك من وسائل العلم بأسرار الناس والقرآن يقول ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا الآية من سورة الحجرات والرسول صلى الله عليه وسلم يقول إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا . وقد نهى عن التجسس لأنه تتبع لعورات المسلمين ومعرفة أسرارهم التى يكرهون الاطلاع عليها . وقد رأى الرسول رجلا ينظر من ثقب الباب فأخذ مدرى وأراد أن يفقأ عينه لولا أن الرجل تنبه فأبعد نفسه وعينه عن الباب وأخبر الرسول حينذاك أنه لو بقى لفقأ عينه ولكانت هدراً لا دية لها . أخرجه البخارى فى كتاب الديات .

وخطب الرسول صلى الله عليه وسلم يوما فرفع صوته حتى أسمع العواتق فى الخدور فقال يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته رواه أحمد مع اختلاف فى ألفاظه وتتبع العورات دائما يذهب الثقة بين النـاس ويوجد الخوف بينهم ، ويفسد أخلاقهم ولذلك كان من وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : للوالى : لا تتبع العورات فإنك لو تتبعت عورة رعيتك أفسدتهم .

وقد حرم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتناجى اثنان دون ثالث لأن

ذلك يحزنه وربما وقع فى قلبه الظن السوء من مناجاتهما فيحمله ذلك على التسمع والتجسس . فقال صلى الله عليه وسلم : إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه رواه الشيخان كذلك نهى عن التجسس لأنه اشتغال بما لا يعنى ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وقوله وهم له كارهون يدل على أن النهى خاص بمن كره الناس استماعه لهم أما من أحبوا إطلاعه على أمورهم فلا حرمة عليه فى الاستماع . وقد جعل الله جزاء المتسمع لأسرار الناس من غير رضاهم أن يحمى على الرصاص حتى يذوب من شدة الحرارة ويصب فى أذنه جزاء وفاقا لما جنت أذناه .

الأمر الثالث : النهى عن التصوير وقد قال الإمام النووي فى شرحه على صحيح مسلم تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد سواء صنعه من مادة ممتهنة كالفخار أو بغيرها كالذهب والفضه فصنعته حرام بكل حال لأن فيه مضاهاة لخلق الله وسواء ما كان فى ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو إناء أو غيرها . وأما تصوير صورة الشجر ومتاع الإبل ورحالها وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام . هذا حكم نفس التصوير . أما اتخاذ المصور فيه صورة حيوان واقتناؤه فإن كان معلقا على حائط أو كان فى ثوب ملبوس أو عمامة ونحو ذلك مما لا يعد ممتهنا فهو حرام أيضا وإن كان فى بساط يداس ومخدة ووسادة ونحوها مما يمتهن فليس بحرام ثم قال : ولا فرق فى هذا كله بين ماله ظل وما لا ظل له هذا تلخيص مذهب الشافعى فى المسئلة وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم وهو مذهب مالك وأبى حنيفة أيضاً .

وقال بعض السلف : إنما ينهى عما كان له ظل ولا بأس بالصور التى ليس لها ظل واستدلوا بما رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سترت سهوة لى بقرام فيه تماثيل زاد فى رواية مسلم فيه الخيل ذوات الأجنحة فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم هتكه وقال أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله قالت عائشة فجعلناه وسادة .

قال ابن حجر فى فتح البارى الجزء العاشر . استدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ الصور إذا كانت لا ظل لها وهى مع ذلك مما يوطأ ويداس أو يمتهن بالاستعمال كالمخاد والوسائد . ولذلك قال عكرمة صاحب ابن عباس كانوا يكرهون ما نصب من التماثيل نصبا ولا يرون بأسا بما وطئته الأقدام فإنه ذل للتصاوير التى فى البسط . وكان عروة يتكىء على المرافق فيها تماثيل الطير والرجال .

قال النووى . وهذا مذهب باطل فإن الستر الذى أنكر النبى صلى الله عليه وسلم صورته لا يشك أحد فى أنه مذموم مع أنه ليس لصورته ظل أقول ولكننا نؤيد رأى عكرمة وعروة ومن تبعهما لأن الرسول لم يكره صورة الستر إلا لأنه معلق على صورة الاحترام والتعظيم . ولذلك أجاز استعماله فى الوسائد لأنها مما يمتهن غالباً .

ورأى أصحاب الرأى الأول أن الأحاديث جاءت مطلقة فلا معنى للاستثناء . من ذلك ما روته عائشة رضى الله عنها أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على الباب فلم يدخل فعرفت فى وجهه الكراهية فقلت يا رسول الله أتوب إلى الله وإلى رسوله فماذا أذنبت فقال فما بال هذه النمرقة فقالت عائشة اشتريتها لك تقعد عليها وتوسدها فقال صلى الله عليه وسلم إن أصحاب هذه الصور يعذبون ويقال لهم أحيوا ما خلقتم ثم قال إن البيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة . رواه مسلم .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن على رضى الله عنه أن النبى ﷺ

قال : أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثنا إلا كسره ولا صورة إلا لطخها أى طمسها وزاد فى رواية من عاد إلى صنعة شىء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد . ومال الإمام الزهرى إلى المنع مطلقا فقال النهى فى الصورة على العموم . وكذلك استعمال ما فيه صورة ودخول البيت الذى هى فيه سواء كانت رقما فى ثوب أو غير رقم وسواء كانت فى حائط أو ثوب أو بساط ممتهن أم غير ممتهن .

وقال الداودى إن حديث النمرقة ناسخ لغيره فالتحريم أولى وقد توسط آخرون فقالوا يجوز من الصور ما كان رقما فى ثوب سواء امتهن أم لا وسواء علق فى حائط أم لا . وأما ما كان له ظل فقالوا إنه لا يجوز . كما لا يجوز عندهم التصوير على الحيطان نفسها وما أشبه ذلك واحتجوا لمذهبهم بما رواه البخارى عن بسر بن سعيد التابعى عن زيد بن خالد الجهنى الصحابى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة قال بسر ثم اشتكى زيد فعدناه فإذا على بابه ستر فيه صورة فقلت لعبيد الله الخولانى ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الأول فقال عبيد الله ألم تسمعه حين قال إلا رقما فى ثوب .

وهكذا ترى الآراء متشعبة وكل رأى يستند إلى دليل من السنة والناظر فى الأحاديث يجد فى ظاهرها تعارضا ففى بعضها أن الرسول منع التوسد على النمرقة والجلوس عليها وفى بعضها أن عائشة قطعتها وسادتين وأجاز الرسول استعمالها بعد تقطيعها وجمع بعضهم بين الأحاديث المتعارضة فقال هناك فرق بين القعود والاتكاء فأجاز الاتكاء ومنع القعود وهو بعيد ، وأجاب آخرون بأنه لا يلزم من استعمال الثوب الذى فيه صور القعود على ذات الصورة فأجازوا استعمال الثوب المصور ومنعوا القعود على نفس الصورة وهو بعيد أيضاً . وأجاب قوم بأن الستر الذى أجاز الرسول استعماله قد قطعت فيه الصورة وتفرقت . أما الثوب الذى تبقى الصورة

فيه متجمعة فلا يجوز استعماله وقد لخص ابن العربى الأقوال فى الصور فقال : حاصل ما فى اتخاذ الصور أنها إن كانت ذات أجسام لحيوان حرم بالإجماع . وإن كانت رقما فى ثوب ففيها أربعة أقوال الأول يجوز مطلقا الثانى المنع مطلقا حتى الرقم . الثالث إن كانت الصورة باقية الهيئة قائمة الشكل حرم وإن قطعت الرأس أو تفرقت الأجزاء جاز وهذا هو الأصح الرابع إن كان مما يمتهن جاز وإن كان معلقا لم يجز . أما تصوير الشجر وغيره مما لا روح فيه فليس بحرام لقول ابن عباس رضى الله عنه لمن سأله ويحك إن أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر . والحكم فيه الجواز مطلقا سواء أكان مثمراً أم غير مثمر خلافا لمجاهد ولم يتابعه أحد بل رد عليه الطحاوى بقوله إن الصورة لما أبيحت بعد قطع رأسها دلت على إباحة ما لا روح له أصلا .

وأوضح ما ورد فى هذا الباب ما رواه أصحاب السنن عن أبى هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم أتانى جبريل فقال أتيتك البارحة فلم يمنعنى أن أكون دخلت إلا أنه كان على الباب تماثيل وكان فى البيت قرام ستر فيه تماثيل وكان فى البيت كلب فمر برأس التمثال الذى على الباب يقطع فيصير كهيئة الشجرة ومر بالستر فيقطع فليجعل منه وسادتان منبوذتان توطآن ومر بالكلب فليخرج . فإن قيل ما سبب امتناع الملائكة عن دخول بيت فيه صورة أو كلب قلنا لأن فى التصوير معصية فاحشة وفيه مضاهاة لخلق الله وبعض الصور كانت تعبد من دون الله .

قال القرطبى . السبب فى امتناع الملائكة أن متخذى الصورة قد تشبهوا بالكفار حيث كانوا يتخذون الصور فى بيوتهم ويعظمونها فهجرت الملائكة بيوت كل من تشبه بهم .

وأما امتناع الملائكة بسبب الكلب فلكثرة أكله النجاسات ولقبح رائحة الكلاب والملائكة تكره الرائحة القبيحة وتنفر منها ولأنها منهى عن اتخاذها.

فقد قال صلى الله عليه وسلم : من اقتنى كلبا إلا كلب صيد أو ماشية فإنه ينقص من أجره كل يوم قيراطان رواه البخارى ومسلم . فليسمع أولاء المتفرنجون الذين يصحبون الكلاب فى غدواتهم وروحاتهم . وبين البيوت الآمنة . والأماكن المأهولة بالسكان ولا غرض لهم إلا الزهو واللهو . وترويع الآمنين . فلما كانت الكلاب بهذه المثابة من القبح عوقب متخذها بحرمانه من دخول الملائكة بيته وصلاتها فيه واستغفارها له ودفعها أذى الشيطان

واعلم أن المراد بالملائكة الذين لا يدخلون عند ذلك هم أفراد يطوفون بالرحمة والتبريك .

وأما الحفظة فيدخلون فى كل بيت ، ولا يفارقون بنى آدم فى كل حال لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها . والكلب عند الشافعى نجس العين ونجاسته مغلظة ويجب غسل الإناء من ولوغه سبع مرات إحداهن بالتراب فالحكمة عنده ظاهرة .

ولذلك قال الخطابى إنما يتنزل هذا الحرمان على ما يحرم اقتناؤه من الكلاب التى ليست لصيد ولا لزرع وما يحرم اتخاذه من الصور المجسمة التى هى لذى روح ولم يقطع رأسها ولم تمتهن. أما ما ليس بحرام من كلب الصيد والحراسة وما أشبهها من ضبط الحوادث ومعرفة اللصوص كالكلب (هول) البوليسى الذى يستخدمه الحكام فى معرفة ما خفى من الجرائم بواسطة قوة الشم التى أودعها الله فى الكلاب . وكذلك من الصور التى ليس لها ظل ولا تعظم فلا يمتنع دخول الملائكة بسببه .

والظاهر الذى نأخذه من الأحاديث أن الملك لا يدخل بيتا فى داخله كلب حتى ولو كان ذلك عن غير عمد لأن جروا أى كلبا صغيراً دخل بيت النبى صلى الله عليه وسلم من غير علمه فامتنع جبريل من الدخول مع أنه كان على موعد مع الرسول صلى الله عليه وسلم فلو كان العذر فى وجود الكلب

أو الصورة لا يمنعهم لدخل جبريل ولم يمتنع . وقد رأى الداودى وابن وضاح أن هذا الحكم من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم وأنه خاص بملك الوحى جبريل دون سائر الملائكة قال فى الفتح وهو شاذ لأنه يلزم عليه اختصاص النهى بعهد النبى صلى الله عليه وسلم لأن الوحى قد انقطع بعده . وأغرب من هذا ما فسره بعض العلماء . فقال معنى قول الرسول لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة أى لا يتساوى دخول الملائكة بيتا ملتزما للطاعة محافظا على السنة ودخولهم بيتا مخالفا للآداب الإسلامية مستهترا بأمر الدين فهم يدخلون كل بيت إلا أنهم إذا دخلوا البيت الأول استغفروا لصاحبه ودعوا له بزيادة التوفيق ، وإذا دخلوا الثانى لعنوا صاحبه وكرهوا عمله .

شبهة وردها ـ قال قائل : إذا كان اتخاذ التصاوير وصنعها محرما شرعاً فكيف جاز لنبى الله سليمان أن يتخذها ويأذن بصنعها ودليل ذلك قوله تعالى ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعلمون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية من سورة سبأ . وجوابنا على هذا أن شرع سليمان ليس موافقا لشرعنا فى هذه المسئلة فيحتمل أن يكون هذا النحت للتماثيل كان جائزاً ثم نهى عنه فى شرعنا وذلك لأنهم كانوا يصورون الأنبياء والصالحين للاقتداء بهم فكان القصد الأول حسنا فكان التصوير جائزا لحسن القصد فلما تطاول الزمن واتخذ الناس هذه الصور آلهة من دون الله وشاعت عبادة الأصنام تبعاً لذلك نهى الإسلام عنه وقد نسب الحافظ ابن حجر هذا الجواب إلى أبى العالية . وأجاب آخرون بأن هذه التماثيل التى كانت زمن سليمان كانت صوراً لغير ذى روح وهو كما علمت جائز مطلقا كتصاوير الأشجار والجبال والأنهار وما إلى ذلك وهذا الجواب أولى .

والظاهر الذى أميل إليه أن تصوير التماثيل لذوات الأرواح محرم منذ القدم لأن عبادة الأصنام شاعت منذ زمن بعيد حتى أن نوحا حكى

الله عنه قوله رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . كما جاء نبى الله إبراهيم ينعى على أبيه وقومه عبادة الأصنام بقوله أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . الآية من سورة الأنعام .

اعتراض : كيف يحكم الرسول على المصور بأنه أشد الناس عذابا أجيب بأن المراد هنا من يصور ما يعبد من دون الله وهو عارف بذلك ومتعمد له فإنه يكفر بذلك فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون الذين قال الله فى شأنهم : ادخلوا آل فرعون أشد العذاب أو أن الحديث للزجر والتغليظ فإن من لم يقصد بتصويره المعنى السابق المكفر فإنه يكون عاصيا بتصويره ومعصيته من الكبائر وأجاب القرطبى بأن المراد بالناس قوم اشتركوا مع العاصى فى نوع معصيته وهو أشدهم . فكما أن فرعون أشد الكفار عذاباً فكذلك المصور لذات الروح قاصداً عبادتها أشد عذاباً ممن يصورها لغير العبادة .

وقال أبو على الفارسى إن معنى قول الرسول المصورون أشد الناس عذاباً . يريدبهم الذين يعتقدون أن لله شبها وصورة واستدل بهذا الحديث على تكفير المشبهه وهذا التأويل بعيد لأن بعض الروايات تقول : إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون . وفى بعضها يقول : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلق فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة .

وأجاب بعضهم عن قوله صلى الله عليه وسلم إن أشد الناس عذاباً المصورون فقالوا إن من هنا مقدره أى من أشد وعلى هذا أيضاً يحمل قوله إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبيا أو قتله نبى وإمام ضلالة وممثل من الممثلين أى مصور من المصورين لأن التمثيل معناه التصوير فالمعنى على تقدير من أيضاً لأنه لا يمكن تساوى المذكورين فى كون كل منهم أشد الناس عذابا يوم القيامة .

أو أن الحديث محمول على من استحل معصيته كما سبق أول رسالتى « من هدى النبوة » عند تأويل قوله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

قال ابن حجر واستدل بأحاديث التصوير على أن أفعال العباد مخلوقة لله للحوق الوعيد الشديد بمن تشبه بالخالق فدل على أن غير الله ليس بخالق حقيقة . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم كلف أن ينفخ فيها الروح ظاهره أنه تكليف بما لا يطاق وليس كذلك كما علمت أول الحديث وإنما القصد طول تعذيبه وإظهار عجزه وأما التكليف الذى يستتبع العقاب والثواب فهو خاص بدار الدنيا لا يوجد يوم القيامة .

واعلم أن الحكمة فى تحريم التصوير للحيوان أنه تشبه بالخالق فى أخص صفاته كما أشارت بعض الروايات وقال تعالى هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم . وهو كذلك سبب فى عبادة الأصنام لأن هذه التماثيل ربما تقادم العهد عليها وضل الناس عن دينهم وتوحيد ربهم فعبدوها من دون الله سيما إذا علمت أن أكثر الأصنام التى عبدت من دون الله كانت تماثيل لرجال صالحين . فلما تقادم العهد أصبحت معبودات للناس .

قال الشيخ الألوسى فى تفسير قوله تعالى ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيراً قال كانت هذه الأسماء أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إليهم ان انصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ودرس العلم عبدت من دون الله وتسمى الناس بعبد ود وعبد يغوث .



اعتراض : فإن قال قائلون : إن النحت والتصوير أصبح كل منهما فناله قيمته فى العلوم والمعارف والآثار وأصبحت له معاهد وكليات تحرص على

دراسته . قلنا لهم أمامكم مناظر الطبيعة الخلابة من البحار والأشجار والورود والأزهار والسحاب والجبال والأرض والسماء فعليكم أن تشبعوا هوايتكم فيها ، وتبرزوا فنكم فى جمالها ، ولعلكم أيضاً تسمون الرقص فنا والخلاعة والمجون حرية وهكذا ترون المعروف منكراً والمنكر معروفا فتختلف موازين الأمور فى نظركم وتنعكس مقاييس الفضيلة أمامكم والأولى أن يكون ميزان الحق والفضيلة واحداً فالحق والحسن ما أثبته الشرع وحسنه وإن كان فى نظركم باطلا وقبيحا ، وكذلك الباطل والقبيح ما أبطله الشرع وقبحه وإن كان فى نظركم حقا وجميلا . ولقد سمعت وأنا أشك فيما سمعت أن الطلاب فى احد المعاهد الفنية الجميلة يلتفون حول امرأة عارية وكل منهم مكلف بتمثيل ما قابله من أجزاء جسمها . فإن كان هذا هو الفن عندهم فلعن الله هذا الفن أيها الأخوة . التزموا حدود ربكم وحافظوا عليها . واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . قد يقول قائل : إن الصور الفوتوغرافية التى يحبس ظلها على الورق أصبحت ضرورة من ضرورات الحياة فالطالب لا يتقدم لشهادة أو لمدرسة إلا بها والجندى لا يقبل فى الجيش إلا بصورة . والمبعوث لا يستطيع الذهاب إلى بعثته إلا بها . والمسجون لا يعرف إلا بها وهكذا تجدها فى كل ظروف الحياة من أدق الضروريات وألزمها .

نقول له : لا مانع من هذه الصور حتى على رأى من يكرهها إذا التزمنا فيها حدود الضرورة فلم نستعملها كزينة فى البيوت . ولم نعلقها على أماكن عالية وصورنا الرأس فقط لتثبت الشخصية ولم نبالغ فى تعظيمها والاهتمام بها وتصبح كبلوى عامة تخف مسئولية العبد فيها لاضطراره إليها .

وبذلك نقطع على الشيطان سبيله ، ونحارب الأوثان من جميع وجوهها ووسائلها . أما أن نتوسع فى نحت التماثيل ونقيم لها الأعياد والمواسم . ونضعها على القمم العالية فى الميادين العامة فذلك منكر لا يقره مذهب من مذاهب المسلمين . وإذا أردتم بهذه التماثيل أحياء لذكرى أصحابها فعندكم ألف وجه

ووجه فى هذا الإحياء كبناء مستشفيات وملاجىء ومبرات بأسماء العظماء وبدل أن ينفق على التمثال ثلاثون ألفاً من الجنيهات يقام مصنع يضم ألفاً من العمال ، ويفتحون ألف بيت ويعولون ألف أسرة . ثم مع هذا رضوان الله والتزام حدوده، وكفى بها من فضيله .

اللغة والإعراب

من شرطيه فى المواضع الثلاثة وجملة وهم له كارهون حالية من قوم والآنك نائب فاعل والتحلم تكلف الحلم وقد حلم يحلم حلما بسكون اللام وضمها ما يراه النائم والحلم بكسر الحاء الأناة ، وتحالم أرى من نفسه ذلك وليس به . والحلمة رأس الثدى .

والآنك الرصاص الأسود ويحتمل أن يكون على وزن أفعل وهو مفرد وإن كان على وزن أبنية الجمع مثل أشد بضم الشين وقيل هو على وزن فاعل وهو شاذ أيضاً . ولا بد أن يضاف إلى وصف الرصاص شرط الحرارة الشديدة حتى يذوب ويمكن صبه فى الآذن وبه يتصور التعذيب أما لو بقى الرصاص متماسكا كما هو شأنه فى حال برودته فكيف يصب . وكيف يكون تعذيبا .

والتصوير تمثيل الشىء على صورته ومن أسماء الله تعالى المصور ومعناه الذى صور جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شىء منها صورة خاصة تميز بها على اختلافها وكثرتها . والصور القرن الذى ينفخ فيه عند النفختين والتصاوير التماثيل ويقال صار الشىء أماله ومنه قوله تعالى نصرهن إليك ومنه حديث أكره للمرء أن يصور شجرة مثمرة أى يميلها لئلا تجف .

والتعبير بلن فى قوله ولن يفعل كناية عن دوام عذابه حيث لا يستطيع العقد بين شعيرتين وذلك على رأى من يجعل لن لتأبيد النفى كالزمخشرى فى أنموذجه . ولكنها تفيد التأكيد كما فى الكشاف ، وحذف مفعول يفعل إجراء للمتعدى مجرى اللازم لقصد نفى الفعل نفسه كما فى قوله تعالى ذلك

بأنهم قوم لا يعلمون أى ليست عندهم صفة العلم أصلا . وبناء كلف وصب للمفعول لتعين الفاعل ولزيادة التهويل فى إخفاء الفاعل . وتقديم الجار والمجرور فى قوله صب فى أذنيه الآنك على نائب الفاعل مسارعة إلى الإنذار والتخويف والتنكير فى قوم للتعميم وفى صورة للوحدة . ودخول الباء فى خبر ليس لتأكيد النفى . والوصل بين الجمل الثلاث الشرطية لأنها متناسبة من وجوه فبينها جامع قوى . ذلك لأنها متحدة فى المسند إليه ولأن كلا من الثلاث معصية تفعل بجارحة فالأولى كذب بجارحة اللسان والثانية تجسس بجارحة الأذن والثالثة تصوير باليد . وكذلك كلها محرمات عليها وعيد شديد.

أغراض الحديث

أولا : النهى عن الكذب فى الرؤيا ومن باب أولى الكذب فى الحوادث الواقعة فى اليقظة .

ثانياً : النهى عن الاستماع لحديث الناس وهم يحبون سترها وكذلك النهى عن التجسس عموماً .

ثالثاً : النهى عن تصوير الحيوان لما فيه من التشبه بالخالق ولما فيه من أضرار فى المستقبل على دين الناس وعباداتهم .

الآيات والأحاديث التى تؤيد الباب

قال تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين . الآية من سورة براءة .

وقال تعالى إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . الآية من سورة النحل .

وقال تعالى : ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين الآية من سورة الزمر. وقال تعالى ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا

الآية من سورة الإسراء . وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً الآية من سورة الحجرات .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينه ما لم تر أو يقول على رسول الله ما لم يقل . رواه البخاري . ومعنى يدعى ينتسب : والفرى جمع فرية وهي الكذب .

وعن معاوية رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا ويشير إلى صدره . بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله . إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم . رواه مسلم .

وعن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل مصور فى النار يجعل له بكل صورة صورها نفس فيعذبه فى جهنم . قال ابن عباس فإن كنت لا بد فاعلا فاصنع الشجر وما لا روح فيه . متفق عليه.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فى ساعة أن يأتيه فجاءت تلك الساعة ولم يأته قالت وكان بيده عصا فطرحها من يده وهو يقول : ما يخلف الله وعده ولا رسله ثم التفت فإذا جرو كلب تحت سريره فقال متى دخل هذا الكلب فقلت والله ما دريت به فأمر به فأخرج فجاءه جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدتنى فجلست لك ولم تأتنى فقال منعنى الكلب الذى كان فى بيتك إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة . رواه مسلم .

نبذة عن الراوى

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أخت زوجه ميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين . ولد قبل الهجرة بثلاث سنين على الأصح وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة على أحد الأقوال . فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم ضمه إليه وقال اللهم علمه الحكمة . وكان لابن عباس بحكم قرابته من النبى صلى الله عليه وسلم وصغر سنه اختلاط كثير مكنه من كثرة الرواية عنه ، أضف إلى هذا ميله الطبيعى إلى تحصيل الحديث وشغفه العظيم به مما وجه نظر النبى صلى الله عليه وسلم إليه فسر به ودعا له .

وقد ظهر لكل هذه العوامل أثرها فى شخص هذا الصحابى الجليل حتى أصبح ترجمان القرآن وعد من المكثرين لرواية الحديث وقد عاش ابن عباس بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ثمانية وخمسين عاما هيأت له أسباب الأخذ والتحمل عن كبار الصحابة وصغارهم وفاق غيره فى العلم والفقه والحساب والفرائض والعربية حتى لقد كان يجلس لكل مادة يوما لا يذكر فيه سواها وما جلس إليه عالم قط إلا خضع له ولا سأله إلا وجد عنده علما . وقد قال طاووس فى شأنه : إنى رأيت سبعين رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تدارأوا فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس . هذه النبذة مختصره من كتاب الحديث والمحدثون للأستاذ محمد أبى زهو .

الحديث الثالث عشر

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن على بن أبى طالب بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن بذهيبة فى أديم مقروظ لم تحصل من ترابها فقسمها بين أربعة نفر فقال رجل من أصحابه كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحا ومساء فقام رجل غائر العينين ناشز الجبهة كث اللحية فقال يا رسول الله اتق الله فقال له ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله فقال خالد بن الوليد يا رسول الله ألا أضرب عنقه فقال له لا لعله أن يكون يصلى فقال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ماليس فى قلبه فقال له إنى لم أومر أن أنقب قلوب الناس ثم نظر إليه وهو مقف وقال إنه يخرج من ضضىء هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود. رواه البخارى فى كتاب المغازى مطولا ورويناه مختصراً.

المعنى الإجمالى

يقول أبو سعيد الخدرى إن على بن أبى طالب رضى الله عنه أرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع من الذهب فاصطفى الرسول بها طائفة من المسلمين فتأثر قوم بهذا التخصيص وتفوهوا بألفاظ لا ترضى الله ورسوله فأراد بعض الصحابة أن يقتلهم فمنعه الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك لأنهم يصلون وقد أمر الرسول أن يحكم بالظاهر والله يتولى سرائر الناس ويحاسبهم على ما فى قلوبهم. ثم بين الرسول أن قوما يخرجون من نسل هذا الظالم الذى اعترض على الرسول فى قسمته ووصفهم بأوصاف وقد تحقق قول الرسول فظهر فى زمن على طائفة من الخوارج كانت تنطبق

عليهم هذه الأوصاف فكان ذلك من علامات النبوة ثم بين الرسول وجوب قتالهم فكان هذا سلاحا فى يد على رضى الله عنه حارب به الخوارج الذين خرجوا عليه فى عصره .

المعنى التفصيلى

كان على رضى الله عنه مبعوثا من قبل النبى صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ليقوم بتقسيم الغنيمة ولا يخفى على طالب العلم أن الغنيمة تقسم إلى خمسة أقسام الخمس لله ولرسوله وذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وإلى هذا يشير قوله تعالى : واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله واليوم الآخر . الآية من سورة الأنفال . أما باقى الغنيمة فهو للمحاربين من المسلمين لاعلاء كلمة الله تعالى . وقد جعل الله حل الغنيمة خصوصية للأمة المحمدية اكراما لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ومنها وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى . بل كان شأن الغنائم فى العصور الأولى أن تجمع فى الصحراء ومواقع الحروب ثم تترك فى الخلاء فتنزل نار من السماء فتأكلها وكانوا يسمونها القربان .

وكان ذلك معروفا عند اليهود . ولذلك أخبر القرآن عنهم بأنهم كذبوا فقالوا : إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ورد الله عليهم بقوله قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين . قال الشيخ الألوسى فى تفسيره الكبير وقد كان أمر إحراق النار للقربان إذا قبله الله شائعاً فى زمن الأنبياء السالفين اقرأ قصة يوشع فى البخارى حـ ٦ .

قال الخطابى : كان من تقدم من الأمم على ضربين منهم من لم يؤذن له فى الجهاد فلم تكن لهم مغانم ومنهم من أذن له فيه لكن كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحل لهم أن يأكلوه وجاءت نار فأحرقته .

فلما قسم على الغنيمة بعث بخمسها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتصرف فيه كما أذن الله وليرى فيه رأيه فإن الله أعطاه حق التصرف فى قوله تعالى : يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين الآية فى أول سورة الأنفال .

أما إن كان المبعوث إلى الرسول فيئالم يؤخذ من الكفار بقتال فهو أحق به وله أن يتبرع به وله أن يصطفيه لنفسه لأنه لاحق للمحاربين فيه وأنا أرجح أنه كان الفيء لأنه لو لم يكن كذلك لما خص الرسول به أربعة نفر دون سائر المحاربين . وقوله بذهيبة أى بقطعة من الذهب صغيرة فى أديم أى وعاء من الجلد (مقروظ) مدبوغ بالقرظ وهو ثمر شجر يسمى السنط يميل لونه إلى الحمرة وهو حريف يزيل الدهن من الجلد ولذلك يستعمل فى دبغ الجلود لازالة ما عليها من أدهان ويقوم مقامه الشبه أو الملح ولا يخفى على طالب العلم أن جلد الميتة إذا دبغ. فقد طهر لقول النبى صلى الله عليه وسلم أيما أهاب دبغ فقد طهر والإهاب الجلد رواه الإمام أحمد عن ابن عباس . وسنده جيد وذكره صاحب الفتح الربانى فى الجزء الأول ومعنى كونها لم تحصل من ترابها . أى أنها تبر لم تسبك ولم تنق من تراب معدنها . وفائدة هذا التعبير الإشارة إلى أنها صغيرة فى حجمها غير مسبوكة ولا مصفاه وهذا تقليل لشأنها فقسمها الرسول بين أربعة نفرهم عيينة بن حصن بن بدر الفزارى وأقرع بن حابس الحنظلى وزيد الخيل بن مهلهل الطائى وعامر بن الطفيل وهؤلاء كانوا صناديد من أهل نجد فأعطاهم الرسول صلى الله عليه وسلم تأليفا لقلوبهم لحاجة الإسلام إليهم فى الدفاع عنه ونشر دعوته أما اليوم فلا يجيز الإسلام تأليف قلوب الكافرين بمال . قال الشيخ الألوسى فى تفسيره . المؤلفة قلوبهم كانوا ثلاثة أصناف صنف كان يؤلفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا ، وصنف أسلموا لكن على ضعف كعيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمى فكان عليه الصلاة والسلام يعطيهم لتقوى نيتهم فى الإسلام ، وصنف

كانوا يعطون لدفع شرهم عن المؤمنين . قال فى الهـــداية من كتب الأحناف إن صنف المؤلفة قلوبهم قد سقط من الأصناف الثمانية التى ذكرها الله فى قوله تعالى : إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل . الآية من سورة التوبة وانعقد اجماع الصحابة على ذلك فى خلافة الصديق رضى الله عنه . روى أن عيينة والأقرع جاءا يطلبان أرضا من أبى بكر فقال عمر هذا شىء كان الرسول يعطيكموه تأليفا لكم . أما اليوم فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم فإن ثبتم على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف . ولم ينكر أحد من الصحابة هذا القول .

(فقال رجل) معترضا إن كان منافقا أو مسترشداً عن بيان الحكم إن كان مؤمنا وقوله من أصحابه لا يقتضى إيمانه لأن المنافق فى الظاهر محكوم عليه بأنه من أصحابه وقوله (كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء) بنى أحقيته على كونه سابقا فى الإسلام أو أحوج إلى المال من هؤلاء الأغنياء ولكن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى هؤلاء وترك صحابته تأليفا لقلوبهم وجذبا لها حتى تكون قوة للمسلمين وعزاً للإسلام وقد روى البخارى فى الإيمان عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رهطا وسعد جالس فيهم ، قال سعد فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا هو أعجبهم إلى فقلت يا رسول الله : مالك عن فلان . فوالله إنى لأراه مؤمنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مسلما . قال فسكت قليلا . ثم غلبنى ما أعلم منه فقلت يا رسول الله مالك عن فلان فوالله إنى لأراه مؤمنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مسلما . إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله فى النار .

(فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم) فإن قيل إن النميمة محرمة والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لا يدخل الجنة قتات أى نمام والنميمة

نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد فكيف جاز لصحابى أن ينقل هذا الكلام والنميمة من كبائر الذنوب بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير بلى إنه كبير . أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة . وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله رواه البخارى ومسلم . أجيب عن ذلك بأن الصحابى لم ينقل الكلام إلى النبى على جهة الإفساد ولم يقصد ذلك وإنما أراد أن يعلم الراعى الأكبر ليعمل على سياسة رعيته بما يراه صالحا فى مثل هذا الشأن فهو فى الحقيقة سعى للاصلاح لا للإفساد وإرشاد للرئيس عن مواضع الخطر ليعمل على تلافيه فهو من باب النصيحة التى قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأنها الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم . رواه مسلم .

هذا إن قلنا إن الذى بلغ الرسول صحابى مؤمن ، أما إن كان منافقا أو يهوديا يريد تعكير صفو المسلمين كما هو شأن المنافقين واليهود فى كل عصر فلا يستبعد منه قصد الإفساد ولا يتعجب من وقوع النميمة منه . كذلك لا إشكال إن كان علم الرسول بالقول كان عن طريق الوحى فقد كان جبريل فى بعض الأحيان يكلف بتبليغ الرسول صلى الله عليه وسلم بعض ما يقال أو يفعل فى غيبته كما فى حادثة حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها فى قوله تعالى : من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير الآية فى سورة التحريم . ثم أنكر الرسول عليهم ذلك القول بقوله (ألا تأمنونى) وهو استفهام انكارى ثم وصف نفسه صلى الله عليه وسلم بما يفيد ائتمان الله له على وحيه فكيف لا يأمنونه على أعراض الدنيا فقال (وأنا أمين من فى السماء) وقد خاض العلماء فى مثل هذا التعبير واختلفت مسالكهم فيرى السلف الصالح من أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية أننا نقف من المتشابه موقف الإيمان به من غير تشبيه ولا تفسير . مع كمال التنزيه والتفويض فى المعنى المراد لله عز وجل وذلك كما قال الله تعالى : والراسخون فى العلم يقولون

آمنا به كل من عند ربنا . الآية من سورة آل عمران .

وكما أخرج الحاكم عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : اعملوا بمحكم القرآن وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب . وأسند البيهقى بسند صحيح عن سفيان بن عيينة قال : كل ما وصف الله به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه وهذه طريقة الشافعى وأحمد بن حنبل . وقال إمام الحرمين فى الرسالة النظامية : اختلفت مسالك العلماء فى هذه الظواهر فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك فى آى الكتاب وما يصح من السنن. وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله عز وجل .

قال إمام الحرمين والذى نرتضيه رأيا وندين الله تعالى به عقيدة إتباع سلف الأمة للدليل القاطع على أن إجماع الأمة حجة فلو كان تأويل هذه الظواهر حتما لأوشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة. وإذا كان عهد الصحابة والتابعين قد انقضى والأمر على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع اهـ .

قال الحافظ ابن حجر وكان على هذا المسلك فقهاء القرن الثانى والثالث كمالك والليث والأوزاعى ومن عاصرهم ومن أخذ عنهم من الأئمة اهـ .

ورغم ذلك فهناك فريق آخر يرى التأويل لجميع المتشابه سواء ما كان منها فى الكتاب أم فى السنة فيؤول كل ظاهر بمعنى يليق به سبحانه وتعالى فمثلا يؤول قوله تعالى يد الله فوق أيديهم بمعنى قدرة الله فوق قدرتهم . ويؤول استوى على العرش بمعنى استولى .

وهكذا مع أن هذه التأويلات قد تؤدى إلى إشكال علمى فمثلا إذا فسرنا اليد بالقدرة فماذا نصنع فى قوله تعالى بل يداه مبسوطتان إذا فسرناها بالقدرة كان لله صفتان من القدرة وعلماء التوحيد يمنعون وجود صفتين

من نوع واحد لله سبحانه فليس له قدرتان ولا إرادتان ولا علمان وهكذا لأن ذلك يؤدى إلى نقص إحداهما أو تعطيلها . وكذلك تفسير الاستواء على العرش بالاستيلاء يشعر بأن الله لم يستول على العرش إلا بعد مغالبة لخصومه ومحاربة لأنداده مع أنه لم يشاركه فى ملكه أحد لا ابتداء ولا انتهاء سبحانه و تعالى عما يصفون .

وأصحاب التأويل يقولون فى قوله أمين من فى السماء أى من فى السماء قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته . فإن قيل لهم لم خص السماء مع أن ملكه يشمل العالم كله قالوا لأن السماء أشرف من الأرض ولأن الناس فى الأرض قد يضيفون إلى أنفسهم ملك المنازل والعمارات والأدوات والأثاث . وكذلك قد يضيفون إلى آلهتهم وأصنامهم ملك الأشياء فيقولون هذا للات وهذا للعزى وإلى ذلك تشير الآية : وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا الآية من سورة الأنعام .

وبعضهم أراد بمن فى السماء غير الله وهم الملائكة أو جبريل الموكل بالعذاب والوحى .

وبعضهم قدر مضافاً فقال أنا أمين خالق من فى السماء . وقال آخرون من أهل التأويل أيضاً معناه أمين من فوق السماء كقوله تعالى فسيحوا فى الأرض أى فوقها لا بالمماسة والتحيز ولكن بالقهر والتدبير وقيل معنى فى على فيكون المعنى أنا أمين من على السماء كقوله تعالى ولأصلبنكم فى جذوع النخل أى عليها ويرجع معناه إلى الملك والتدبير كما يقال فلان على العراق أى واليها وأميرها . فإن قيل الفوقية توهم المكانية قالوا المراد بالفوقية الرفعة والكبرياء وقالوا إن الأحاديث التى تشير إلى العلو صحيحة منتشرة لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل معاند والمراد بها توقيره سبحانه وتنزيهه عن السفل والتحت .

قال القرطبى فى تفسيره . وصف الله بالفوقية معناه وصفه بالعلو والعظمة

لا بالأماكن والجهات والحدود لأنها صفات الأجسام . وإنما ترفع الأيدى بالدعاء إلى السماء لأن السماء مهبط الوحى ومحل القدس ومعدن المطهرين من الملائكة وإليها ترفع أعمال العباد وفوقها عرشه وجنته كما جعل الله الكعبة قبلة الدعاء والصلاة . فهو منزه عن الأمكنة لأنه خلقها وهو غير محتاج إليها وكان فى أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان وهو الآن على ما عليه كان ا هـ .

وقال ابن حجر فى الجزء الثالث عشر من فتح البارى قال شهاب الدين السهروردى فى كتاب العقيدة له أخبر الله فى كتابه وثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم الاستواء والنزول والنفس واليد والعين وغير ذلك فلا يتصرف فيها بتشبيه ولا تعطيل إذ لولا أخبار الله ورسوله ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى .

قال الطيبى هذا هو المذهب المعتمد وبه يقول السلف الصالح . وقال غيره لم ينقل عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شىء من ذلك ولا المنع من ذكره . ومن المحال . أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما يجوز نسبته إليه وما لا يجوز فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذى أراده الله منها ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى : ليس كمثله شىء فمن أوجب خلاف ذلك بعد الصحابة والتابعين فقد خالف سبيلهم . ا هـ .

واعلم أن رأى السلف بعد ما قدمنا لك من الأدلة أولى وأرجح من رأى الخلف ومن حذا حذوهم إلا أن الفريقين مؤمنان . وهناك فريق ثالث على خطر وهم المشبهة والمجسمة وهم الذين يقفون عند الظواهر ولا ينزهون الله عن مشابهة الحوادث . ولذلك يقولون فى حديثنا الذى نحن بصدد بيانه إنه يثبت الفوقية والمكانية لله تعالى عما يقولون علوا كبيراً . وقد

أخذوا بظاهر قوله تعالى أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . واستدلوا بالحديث المذكور وبما روى أن أم الشريد بن سويد الثقفى رضى الله عنها أوصت ابنها أن يعتق عنها رقبة مؤمنة فقال للرسول عندى جارية سوداء نوبية أفأعتقها فقال ائت بها فدعوتها فجاءت فقال لها من ربك فأشارت برأسها إلى السماء فقالت الله قال من أنا فقالت رسول الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم أعتقها فإنها مؤمنة وإن شئت الاطلاع على مرجع هذا الحديث فعليك بالجزء الأول من الفتح الربانى شرح مسند الإمام أحمد فى باب خصال الإيمان وآياته .

ولعلى أكون قد وفقت لبيان العقيدة الصحيحة فى هذا المعترك الشائك الذى زلت فيه أقدام واسودت فيه وجوه فاستمسك بأسلم الآراء وعلى الله فتوكل .

وقوله يأتينى خبر السماء صباحا ومساء عبارة عن الوحى الذى يأتى بواسطة جبريل عليه السلام وليس المراد بالصباح والمساء هذين الوقتين المحددين وإنما هما كناية عن الدوام ، فقد كان جبريل ينزل عليه فى أى وقت يشاء من ليل أو نهار بمجرد صدور الأمر الإلهى وقد يتأخر كثيراً حتى يشتاق الرسول إليه بناء أيضاً على أمر إلهى كما ثبت فى كتب التفسير أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح فلم يدر عليه الصلاة والسلام كيف يجيب حتى حزن واشتد عليه ذلك واحتبس عنه جبريل حتى قال المشركون إن ربه ودعه وقلاه أى أبغضه . فلما نزل قال له عليه الصلاة والسلام يا جبريل احتبست عنى حتى ساء ظنى واشتقت إليك فقال جبريل إنى كنت أشوق ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حبست احتبست وأنزل الله قوله : وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا .

بل قد كان ينزل عليه الوحى وهو فى لحاف عائشة كما ثبت ذلك فى رواية هشام عن أبيه قال :

كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة : قالت عائشة فاجتمع

صواحبي إلى أم سلمه وقلن لها إنا نريد الخير كما تريده عائشة فمرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما دار فذكرت ذلك أم سلمه للنبي قالت أم سلمه فأعرض عني فلما عاد إلى ذكرت له ذاك فقال يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها . رواه البخاري . بل كان الوحي ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيتفصد جبينه عرقا .

ولذلك لما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسراء على قريش تعجبوا منه وقالوا تذهب إلى بيت المقدس وترجع في ليلة واحدة ونحن نضرب أكباد الإبل إليها شهراً ذهابا وشهراً جيئه ثم ذهبوا إلى أبي بكر ظانين أنها فرصة لتكذيبه لمحمد فقالوا له أسمعت ما يقول محمد فقال وماذا قالوا إنه يدعى ويزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس ثم عاد في ليلة واحدة فقال أبو بكر إن كان قال ذلك فقد صدق إني لأصدقه في أبعد من هذا إني لأصدقه في خبر السماء ينزل عليه في لحظة .

وقوله (فقام رجل) هو ذو الخويصرة التميمي وقيل حرقوص وأنا أرجح أنه منافق لأن الصحابة المخلصين كانوا يتحرون الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كانوا لا يخاطبونه باسمه بل يقولون يا رسول الله يا نبي الله يا أبا القاسم عملا بقول الله تعالى لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً الآية من سورة النور كما كانوا يخفضون أصواتهم عند مجلس النبوة عملا بقوله تعالى في سورة الحجرات يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ثم وصف الراوي الرجل بأنه (غائر العينين) من الغور وهو ضد الجحوظ يعني أن عينيه غائرتان في محاجرهما لاصقتان بقعر الحدقة (ناشز الجبهة) مرتفعها وفي رواية ناتىء من النتوء وهو الارتفاع (كث اللحية) غزيرة الشعر كثيفته وقد كان هذا مظهراً من مظاهر الصلاح فأراد الرجل أن يتسم بسيما الصالحين وقلبه مريض

بالنفاق واعلم أن الأئمة اتفقوا على أن تربية اللحية أمر مطلوب شرعاً لقوله صلى الله عليه وسلم أحفوا الشوارب واعفوا اللحى . ومعنى إحفاء الشوارب استئصال شعرها وهو قول جمهور العلماء ويرى مالك قص الشارب حتى يبدو طرف الشفة ووافقه النووى على ذلك ومعنى إعفاء اللحية توفيرها وإبقاؤها على حالها قال مالك ولا بأس بالأخذ من طولها إذا طالت كثيراً بحيث خرجت عن المعتاد فيقص الزائد لأن بقاءه يقبح المنظر . واعلم أن حلقها حرام وإلى ذلك ذهب الجمهور والحنابلة والظاهرية وللشافعية قولان قول بالحرمة وقول بالكراهة مع أن الشافعى نفسه نص فى كتابه الأم على التحريم نقل هذا الشيخ الساعاتى فى كتابه الفتح الربانى فى الجزء السابع عشر .

وفى بعض الروايات زاد الراوى أوصافا للرجـــل منها أنه مشرف الوجنتين أى مرتفعهما محلوق الرأس تشبها بعلى رضى الله عنه فقد كان يكره شعره ويقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تحت كل شعرة جنابة فكرهت شعرى لذلك (مشمر الازار) لأن السنة أن يكون الإزار إلى نصف الساقين . بعض هذه الصفات كان يفعلها الرجل ليستر ما فى قلبه من النفاق وهذا شأن كل منافق (فقال يا رسول الله اتق الله) التقوى أن تجعل بينك وبين الله وقاية باتباع المأمورات واجتناب المنهيات ولا يليق بمسلم أن يأمر رسوله بالتقوى لأنه المعصوم من الذنوب فكيف يؤمر بتقوى الله وهو سيد المتقين . ولذلك قال له الرسول (ويلك) وهى كلمة عذاب أما ويح فهى كلمة اشفاق (أو لست أحق أهل الأرض أن يتقى الله) لأن الرسول أعلم الناس بربه وهو لذلك أشد الناس خشية منه لأن الإنسان يخاف ربه بقدر معرفته لعظمته . ولذلك ورد أن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون قالوا إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيغضب حتى يعرف الغضب فى وجهه ثم يقول : إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا . رواه البخارى .

وكان الرسول أحق أهل الأرض بالتقوى لأنه أفضل رسول وهو القدوة الحسنة لأمته فكان فعله وقوله واعتقاده فى أعلى مراتب التقوى . (فقال خالد بن الوليد) وكان حاضراً (يا رسول الله ألا أضرب عنقه) لأنه تفوه بألفاظ لا تليق بمقام النبوة وفيها نسبة الرسول المعصوم إلى الظلم والفسق وسب الرسول وإيذاؤه كفر .

قال تعالى والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم الآية من سورة التوبة . قال المفسرون فى تكرير الإسناد بإثبات العذاب لهم ثم جعل الجملة خبراً ما لا يخفى من المبالغة وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مع الإضافة إلى الإسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته على الحقيقة راجعة إلى الله تعالى وموجبة لكمال السخط والغضب منه سبحانه . وذكر بعض العلماء أن الإيذاء للرسول لا يختص بحال حياته بل يكون بعد وفاته أيضاً صلوات الله وسلامه عليه وعدوا من ذلك التكلم فى أبويه صلى الله عليه وسلم بما لا يليق وكذا بالاستهزاء بحديثه والسخرية بتشريعه وهكذا . ألزمنا الله الأدب فى حقه وجعلنا من أتباعه الصادقين المخلصين فقال الرسول لخالد لا تضرب عنقه ثم علل ذلك بقوله لعله أن يكون يصلى . وفيه إشارة إلى أن من لا يصلى يستحق القتل حداً . وهذا رأى الجمهور حتى إن أحمد بن حنبل يرى أن من ترك صلاة واحدة عمداً حتى خرج وقتها أصبح فى حكم الكافر لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة . وأما الجمهور فاستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فان فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله . رواه الشيخان .

(فقال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه) كالمنافقين وهم كثيرون فى كل عصر وقد كان عددهم فى عصر النبوة نحوا من ثلثمائة

على رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول . فقال له الرسول (إنى لم أومر) من قبل الله تعالى (أن أنقب قلوب الناس) أى لم يأذن لى الله أن أفتش وأبحث عن أسرار الخلق (ولا أشق بطونهم) لأعرف ما بداخلها من الإيمان . والرسول صلى الله عليه وسلم أمر أن يحكم بالظاهر ويترك السرائر لله تعالى وهذا من السياسة الإلهية الحكيمة التى اتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لو قتل أمثال هؤلاء المنافقين لا تخذ الأعداء من ذلك دعاية سيئة بأن الرسول غدر بمن آمن معه وذلك يجعل الكافرين يحجمون عن الإيمان خوفا من هذا الغدر المزعوم .

ولذلك قال أحد الصحابة للرسول لماذا لم تقتل المنافقين مع كفرهم بالله وبالرسول فقال لئلا يقول الناس أن محمداً يقتل أصحابه . (ثم نظر الرسول إلى الرجل وهو مقف) أى مول ظهره وقال (إنه يخرج من ضئضىء هذا) أى من نسله وعقبه (قوم يتلون كتاب الله رطباً) أى سهلا يسيراً وذلك لمداومتهم على التلاوة أو لتحسين أصواتهم بها . ومع ذلك (لا يجاوز حناجرهم) فهم لا يتدبرونه لأنه لا يصل إلى قلوبهم أو أن المعنى لا ترتفع تلاوتهم إلى الله لأنها عمل غير صالح لانعدام النية الصالحة فيها (يمرقون من الدين) أى يخرجون من الإسلام كما يمرق ويخرج السهم من الرمية وهو دليل على كفر الخوارج الذين خرجوا فى زمن على (لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود) وفى رواية قتل عاد وهى أقرب وأثبت فى الرواية وهذا يدل على وجوب قتالهم وحل قتلهم . وقد قام على بهذا الواجب هو وأصحابه رضى الله عنهم حتى أضعف شوكتهم وأزال بأسهم . وقد حقق الله ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث فكان من علامات النبوة إذ خرج من نسل هذا الرجل هؤلاء الخوارج الذين قالوا لا حكم إلا لله ولم يرضوا بالتحكيم الذى اتفق عليه فريق على ومعاوية وصاروا يسفكون دم المسلمين فى حين أنهم يتركون أصحاب الأوثان. وقد قال الرسول لأصحابه فى رواية أخرى ذكرها البخارى آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة

يخرجون على حين فرقة من الناس قال أبو سعيد فأشهد أنى سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به حتى نظرت إليه على نعت النبى صلى الله عليه وسلم الذى نعته .

واعلم أن الخوارج لهم آراء ومذاهب باطلة ومن أبرز آرائهم تكفير مرتكب الكبيرة وتنقيص على رضى الله عنه بعد التحكيم وتكفير كثير من الصحابة والتابعين . وكانوا على جهل بالسنة لأنهم كفروا المحدثين فلم يأخذوا عنهم . وكان من مذهبهم فى الفروع جواز التيمم مع وجود الماء وعدم العذر وسموا خوارج لخروجهم على الإمام على رضى الله عنه .

اللغة والإعراب والبلاغة

بذهيبة تصغير ذهبة وهى القطعة من الذهب وتأنيثها باعتبار معنى الطائفة وقال فى مختار الصحاح الذهب ربما أنث وشىء مذهب أى مموه بالذهب والمؤنث الثلاثى إذا صغر لحقته الهاء كما فى تصغير أذن فيقال أذينه والأديم الجلد مطلقا وقيل لا يقال له أديم إلا إذا دبغ وربما سمى وجه الأرض أديما والأدمة السمرة والأدمة أيضاً باطن الجلد والمقروظ المدبوغ بالقرظ وهو ثمر السنط وهو اسم مفعول من قرظ الجلد إذا دبغه بالقرظ أو صبغه به والجار والمجرور صفة لذهيبة وجملة لم تحصل من ترابها حال من ذهيبة لأنها وإن كانت نكرة لكن وصفها بالجار والمجرور سوغ مجىء الحال منها . والنفر عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة وكذا النفير والإضافة فيه بيانية أى أربعة هم نفر وقوله ألا تأمنونى . الهمزة فيه للاستفهام ولا للنفى وهو استفهام إنكارى ينكر عليهم عدم ائتمانهم له وجملة وأنا أمين من فى السماء فى موقع النصب على الحال من مفعول تأمنونى وحذفت النون من تأمنونى للثقل لكثرة النونات والنون الموجودة للوقاية وفى السماء صلة اسم الموصول وهو من بفتح الميم وجملة يأتينى خبر السماء مستأنفة وقد فصلت

عما قبلها لشبه كمال الاتصال لأنها جواب سؤال تضمنته الأولى كأن قائلا قال ما دليل أمانتك ويمكن أن يقال إن الأولى إنشائية لوجود الاستفهام والثانية خبرية فبينهما كمال الانقطاع وقوله ويلك منصوب على المفعولية المطلقة لفعل محذوف من معناه تقديره هلكت لأنه لا فعل له من لفظه وهو دعاء عليه بالهلاك وقوله أن يتق الله مصدر مؤول مسبوك من أن والفعل وهو فى محل نصب بنزع الخافض وهو الباء وأصل اتقى وتى فأبدلت الواو تاء لأنها فاء الافتعال وأدغمت فى التاء وفى قوله لعله أن يكون يصلى إجراء لعل مجرى عسى فاقترنت بأن فى خبرها وهو قليل وجملة يصلى خبر يكون ومعنى مقف اسم فاعل من قفى إذا ولى وأعطاك قفاه وهو مؤخر العنق وقفا أثره اتبعه وجملة وهو مقف حال من الضمير المجرور فى إليه . وفى قوله أنقب قلوب الناس استعارة تصريحية تبعية أما كونها تصريحية فلوجود المشبه به وأما كونها تبعية فلجريانها فى الفعل وهو أنقب ، شبه البحث والتفتيش عما خفى فى القلوب بالنقب بجامع ظهور المستتر فى كل واستعير لفظ النقب للبحث واشتق منه أنقب بمعنى أبحث وأفتش على طريق الاستعارة التبعية ورطبا حال من كتاب الله وفيه وفى قوله لا يجاوز حناجرهم كناية أريد بها صفه فقد أطلق الرطب وأراد السهل وذكر لا يجاوز حناجرهم وأراد لا يصل إلى قلوبهم ولا يتدبرونه . وقوله كما يمرق ما مصدرية والمصدر المجرور بالكاف متعلق بمحذوف صفة لموصوف محذوف مفعول مطلق والتقدير يمرقون مروقا كمروق السهم من الرمية والرمية بوزن فعيلة الصيد المرمى .

تنبيه . رأى بعض العلماء عدم تكفير الخوارج وأول قوله يمرقون من الدين أى يخرجون عن طاعة الإمام كما يخرج السهم سريعاً . قال وهذه صفة الخوارج الذين كانوا لا يطيعون الخلفاء كالبغاة لأن من عادة هؤلاء الثورة السريعة على الولاة ولكن الراجح أنهم كفار وأن المراد بالدين

الإسلام كما فسرته رواية سعيد بن مسروق حيث قال فى روايته يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان .

شبهه وردها : كيف يقول الرسول لئن أدركتهم لأقتلنهم مع أنه نهى خالداً عن قتل أصلهم وأجيب بأن هؤلاء حين خروجهم على الخلفاء سيعترضون المسلمين بالسيوف وسيحاربون الآمة والخليفة إذ ذاك فهم أحق بالمحاربة حينئذ ولم يكن ظهر ذلك فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وأول ما ظهر منهم ذلك كان فى زمن على رضى الله عنه كما هو مشهور . أما هذا القائل المعترض على قسمة الرسول فلم يعلن حربا ولم يرفع سيفاً . لذلك نهى عن قتله وحث على قتال نسله وعقبه حينما يشهرون السيف فى وجوه المسلمين .

فائدة : كان بعث على رضى الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع وبعد أن انتهى على من مهمته وهى تخميس الغنيمة وإرسال الخمس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى مكة محرما بما أحرم به رسول الله فلما وصل إليه قال له الرسول بم أحرمت فقال بما أحرمت به فقال له نحرنا الهدى وأحرمنا بالحج والعمرة معاً فأمسك على رضى الله عنه على إحرامه حتى انتهى من مراسم الحج وشعائره .

أثر هذه القسمة : كان تصرف الرسول صلى الله عليه وسلم حكيما ألف به قلوب هؤلاء الرؤساء الصناديد وجذب نفوسهم إلى الإسلام وحسن إسلامهم وتبعهم من أوطانهم خلق كثير وذلك كله ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وحسن سياسته .

نبذة عن الراوى

أبو سعيد الخدرى هو سعد بن مالك بن سنان الخدرى الأنصارى الخزرجى استشهد أبوه يوم أحد ولم يترك له مالا فتحمل أبو سعيد هموم العيش ومصاعب الحياة صغيراً . لكن لم يمنعه ذلك عن حضور مجالس

النبي صلى الله عليه وسلم وتلقى الحديث عنه فى رغبة وحرص فائقين حتى تحمل عنه ما لم يتحمله من كان فى مثل متاعبه المعيشية فعد بحق من مشهورى الصحابة وفضلائهم ومحدثيهم المكثرين عاش أبو سعيد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة وستين عاماً مكنته من تحمل الحديث عن كبار الصحابة ثم نشره وأدائه إلى التابعين . لذلك كثر المروى عنه حتى جاوز الألف .

روى الحديث عن أبى سعيد كثير من التابعين كسعيد بن المسيب وعطاء ابن يسار وغيرهما وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة غزوة أولاها الخندق وكان قوالا للحق لا يرهب فيه أحداً مهما كان شأنه وتوفى أبو سعيد بالمدينة سنة ٧٤ هـ وكان محل تقدير للصحابة والتابعين فرضى الله عنهم . هذه النبذة مختصرة من كتاب (الحديث والمحدثون) للأستاذ الكبير محمد أبى زهو .

الآيات والأحاديث التى تؤيد حديث الباب

قال الله تعالى . وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم الآية من سورة الحشر وقال صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وإنما أنا قاسم والله يعطى ، ولن تزال هذه الأمه قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله . رواه البخارى الجزء الأول

وقال تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما الآية من سورة النساء .

وقال تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم

عذاب أليم . الآية من سورة النور . وقال تعالى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى . الآية من سورة النجم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال دعونى ما تركتكم انما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ؛ فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم متفق عليه .

فائدة : قد أمرتك سابقا بقراءة قصة النبى يوشع ولما كنت أشك فى عزيمتك أرحتك من عناء البحث ومن قبح الجهل فهاك مجملها .

روى البخارى فى كتابه الصحيح فى باب قول النبى صلى الله عليه وسلم أحلت لكم الغنائم قال :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : غزا نبى من الأنبياء فقال لقومه لا يتبعنى رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن بها ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرفع سقوفها ولا آخر اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر ولادها فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليهم فجمع الغنائم فجاءت يعنى النار لتأكلها فلم تطعمها فقال إن فيكم غلولا فليبايعنى من كل قبيلة رجل فلزقت يد رجل بيده فقال فيكم الغلول فجاءوا بقطعة ذهب مثل رأس بقرة فوضعوها فجاءت النار فأكلتها ثم أحل الله لنا الغنائم لما رأى ضعفنا وعجزنا أحلها لنا .

النبى المذكور فى الحديث هو يوشع بن نون أحد أنبياء بنى إسرائيل والمراد بالقرية بيت المقدس . وخلفات بكسر اللام جمع خلفه وهى الناقة الحامل . والغلول الخيانة فى الغنيمة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما أعطيكم ولا أمنعكم أنا قاسم أضع حيث أمرت. رواه البخارى فى الجزء السادس من فتح البارى .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال لما كان يوم حنين آثر النبى صلى الله عليه وسلم أناسا فى القسمة فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة مثل ذلك وأعطى أناسا من أشراف العرب فآثرهم يومئذ فى القسمة قال رجل والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت والله لأخبرن النبى صلى الله عليه وسلم فأتيته فأخبرته فقال فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر . رواه البخارى .

الحديث الرابع عشر

روى مسلم بسنده الصحيح الى أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان قال ابن شهاب فكان حميد بن عبد يقول : يوم النحر يوم الحج الأكبر من أجل حديث أبي هريرة .

المعنى الإجمالي

لما كان العرب في الجاهلية يعتادون أمورا ليست من الشرع ولا من الفضيلة بل هي أقرب إلى البداوة والجهالة نبه الرسول صلى الله عليه وسلم على ازالة هذه القبائح قبل وفوده الى الحج فبعث أبا بكر رضي الله عنه الى مكة في السنة التاسعة من الهجرة قبل أن يحج حجة الوداع التي كانت في السنة العاشرة في آخر حياته صلوات الله عليه فاتخذ أبا هريرة في ضمن قوم ليقوموا بهذه المهمة ويعلنوا للناس بهذه القوانين الشرعية . لا يصح لمشرك أن يحج البيت بعد هذه السنة . ولا يجوز الطواف إلا بستر العورة ، فقام الصحابة بهذه المهمة يوم العيد الأضحى وهو يوم النحر فاستجاب العرب لهذه القوانين وأصبح الحج طاهرا من هذه الأرجاس وأعز الله الاسلام ورفع لواءه على العالمين .

المعنى التفصيلي

في سنة تسع من الهجرة النبوية نزلت آيات من سورة براءة على النبي صلى الله عليه وسلم تنبذ الى المشركين عهودهم فهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحج ليبلغهم بنفسه ذلك ولكنه تذكر أن عادات العرب في الجاهلية لا تزال منتشرة حول البيت الحرام ، فالمشركون لا يزالون يطوفون عراة على عادتهم ، ويسجدون لأصنامهم التي هدمها الاسلام وأزالها القرآن

فبعث أبا بكر رضى الله عنه أميراً على الناس لأداء فريضة الحج وليبلغهم أوامر الله وليعلم المشركين بأن هذا العام آخر فرصة لهم فى زيارة البيت الحرام وقد زوده رسول الله بتعاليمه وكتب له سنته فلما فصل ابو بكر من المدينة سمع صوتا يشبه صوت ناقة رسول الله ﷺ فوقف وقال هذا رغاء ناقة رسول الله العضباء ورَبما يكون الرسول قادما عليها لأمر حدث ، فانتظر وانتظر المسلمون معه حتى أهل عليهم القادم فاذا هو على بن أبى طالب رضى الله عنه قد أقبل راكبا على العضباء فلما لحقه بالجحفة قال أبو بكر يا على أمير أومأمور؟ قال مأمور . ومن هذه الحادثة تدرك الخلق الكريم السامى الذى طبع عليه المسلمون من السلف الصالح فقد كان لا يهمهم أن يكونوا أمراء أومأمورين ما داموا جندا فى طاعة الله . وهذا هو الذى حمل خالد بن الوليد رضى الله عنه أن ينزل من علياء قيادته وهو فى أعز الوية النصر وأصر على أن يكون جنديا فى جيش واحد من أتباعه بمجرد وصول خطاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعزله عن القيادة فتنازل راضيا وسلم الأمارة التى رفع رايتها وأعز جانبها لأبى عبيدة عامر بن الجراح .

والسر فى مقدم على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزلت أوائل سورة التوبه وفيها انهاء لعهود مبرمة بين المشركين والمسلمين فقال النبى لا يبلغها عنى الا رجل منى . وذلك كان على حسب ما تواضع عليه العرب من أن العهود ونقضها أو امدادها أوتحويرها لا يكون الا من صاحب العهد أو من أهل بيته

وقد أراد أبو بكر أن يطمئن على نفسه ومنزلته من رسول الله فاستأذن الجيش قليلا ورجع الى رسول الله فقال مالى يا رسول الله ؟ قال خير أنت اخى وصاحبى فى الغار وأنت معى على الحوض غير أنه لا يبلغ عنى الا رجل منى . وذلك ليس عزلا لأبى بكر عن أمارة الناس فى الحج وانما هو اسناد لمهمة التبليغ فقط الى على رضى الله عنه وقد أمده أبو بكر بابى هريرة

وأصحاب آخرين فقاموا بها خير قيام يدل على ذلك ما روى عن أبي هريرة قال : كنت أنادي حتى يصحل صوتى أى يبح ، وكان على ينادى حتى يعيا ، ولم يكتفوا بالخطابة فى المجامع العامة ، بل كانوا يتتبعون القبائل فى منازلهم. بل ثبت أن أبا بكر نفسه كان يعاون عليا فى ذلك فقد أخرج الترمذى وحسنه والحاكم وصححه والبيهقى فى كتابه الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر وأمره أن ينادى بهؤلاء الكلمات ثم أتبعه عليا وأمره أن ينادى بها فحجا فقام على فى أيام التشريق فنادى إن الله برىء من المشركين ورسوله برفع رسوله عطفا على لفظ الجلالة المنصوب وهو سائغ لغة بدليل قول ابن مالك .

وجائز رفعك معطوفا على منصوب إن بعد أن تستكملا .

ثم نادى فقال مخاطبا المشركين : فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر . ولا يحجن بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده فكان على كرم الله وجهه ينادى فإذا أعيا قام أبو بكر رضى الله عنه فنادى بها .

وهنا شبهة أوردها زعيم الشيعة ومن تابعه . وقالوا : إن عزل أبي بكر عن مهمته دليل عل أن عليا أفضل منه . وتغالى بعضهم فقال تسليم الرسول مهمة التبليغ عنه لعلى دليل على أنه الخليفة من بعده وبنوا على رأيهم هذا بطلان خلافة أبي بكر وجعلوه غاصباً لها من علي . والجواب انك علمت من ظروف الخبر أن أبا بكر رضى الله عنه لم يعزل عن إمارته للناس فى الحج وإنما خفف عنه مهمة التبليغ لأوائل سورة التوبة لمعنى ذكرناه فيما سبق وهو أن العرب لا يجعلون نقض العهود ولا إبرامها إلا لصاحب الأمر أو رجل من أهل بيته لتنقطع أعذارهم بالكلية . ولو أنصف هؤلاء لعلموا أن إسناد الإمارة العامة فى الحج يدل على شرف أبي بكر وفضله لأن الحج ركن عظيم من أركان الإسلام وقد أنابه الرسول عنه لإقامة شعائر دينه

وتبيين مناسك الحج للناس جميعاً ومنهم علي ، وقد أيد الرسول ذلك بإقامته مقامه فى الصلاة بالناس فى آخر حياته وهى العماد الأعظم والركن الأقوم .

قال الشيخ الألوسى : والقول بأن أبا بكر رضى الله عنه عزل عن إمارة الحج أيضاً كما يزعمه بعض الشيعة لا أصل له وعلى المدعى البيان ودونه الشم الراسيات ، وقصارى ما فى الخبر الدلالة على فضل الأمير على كرم الله وجهه وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمن لا ينكر ذلك لكنه بمعزل عن اقتضائه التقدم بالخلافه على الصديق رضى الله عنه ، وقد ذكر بعض أهل السنة نكتة فى نصب أبى بكر أميراً للناس فى حجهم وجعل على رضى الله عنه مبلغا نقض العهد فى ذلك المحفل وهى أن الصديق رضى الله عنه لما كان مظهراً لصفة الرحمة والجمال كما يرشد إليه قوله صلى الله عليه وسلم أرحم أمتى بأمتى أبو بكر أحال إليه أمر المسلمين الذين هم مورد الرحمة ، ولما كان على رضى الله عنه الذى هو أسد الله مظهر جلال الله وبطشه فوض الرسول إليه نقض عهد الكافرين الذى هو من آثار الجلال وصفات القهر فكانا كعينتين فوارتين يفور من أحداهما صفة الجمال ومن الأخرى صفة الجلال فى ذلك المجمع العظيم الذى كان أنموذجا للحشر وموردا للمسلم والكافر اهـ .

أقول ولايخفى حسن هذا التعليل لأن المشهور عن أبى بكر صفة الرحمة. ولذلك لما انتهى أمر القتال فى غزوة بدر وأسر المسلمون سبعين من صناديد المشركين استشار الرسول أصحابه فقال له أبو بكر يارسول الله هؤلاء الأسرى قومك وعشيرتك فاستبقهم وخذ منهم الفداء يكن ذلك رحمة بهم وعونا لنا ولعل الله أن يتوب عليهم فقال إن الله تعالى ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام حيث قال : من تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام حيث قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم .

وكذلك المشهور عن على صفة الشدة والبأس ولذلك كان عدد القتلى من المشركين سبعين فى غزوة بدر وكان كثير منهم قد لقى حتفه على يد على ابن أبى طالب لشجاعته وشدة بأسه . وكان عمر رضى الله عنه وعثمان بن عفان رضى الله عنه يجعل كل منهما عليا لإقامة الحدود من جلد وقطع يد وقصاص وغير ذلك .

فإن قيل : صريح الحديث يدل على أن الذى بعث أبا هريرة هو أبو بكر مع أن مهمة التبليغ موكولة إلى على كما قلنا . أجيب عن هذا بأن عليا لما وجد نفسه لا يستطيع القيام وحده فى هذا الجمع الحاشد بمهمة التبليغ ذهب إلى أبى بكر باعتباره أميراً للحج ليمده بمن شاء فبعث معه أبا هريرة وغيره .

شبهة وردها : فإن قيل لماذا لم يحج الرسول إلا حجة واحدة مع أن الحج قد فرض فى السنة السادسة من الهجرة على المشهور .

قلنا إن السنة التى فرض فيها الحج رأى الرسول فيها رؤيا حاصلها أنه دخل المسجد الحرام هو وأصحابه وطافوا بالبيت فسعى إلى مكة هو وأصحابه ولكن كفار مكة كانوا قوما أشداء حملتهم الحمية الجاهلية على صد الرسول عن دخول مكة وأجمعوا أمرهم على هذا وقد رأى الرسول بثاقب فكره أن يرجع من غير عمرة حقنا للدماء وحفظا لحرمة البيت الحرام وعقد مع المشركين صلحا سمى صلح الحديبية باسم بئر نزلوا عنده ومن شروط هذا الصلح الإذن للمسلمين بثلاثة أيام فقط لدخول مكة من العام المقبل ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أوحى إلى أصحابه ان الأفضل أن لا يشتغلوا بمراسم الحج وشعائره بل يكتفون بالطواف والسعى لكى لا ينتهز المشركون الفرصة ، ويهجمون على المسلمين فى أثناء وقوفهم بعرفة أو مبيتهم بمنى وربما بيتوا لهم الغدر ، فاكتفى الرسول وأصحابه بعمرة القضاء فى السنة السابعة من الهجرة . ولما كانت السنة الثامنة فتحت مكة وأزيلت الأصنام من حولها لا أن هناك قوما يتربصون بالمسلمين الدوائر من ضواحى مكة كهوازن

وثقيف والأعراب الذين فروا حين فتح مكة فلم يأمن الرسول على المسلمين ولذلك لم يأذن لهم بالحج فى عام فتح مكة فلما كان فى السنة التاسعة أرسل أبا بكر كما فى حديث الباب ليطهر الكعبة من الخرافات والقبائح كالعراة الطائفين والمشركين عبدة الأوثان فلما استقر الأمر للمسلمين واستتب الأمن وطهرت الكعبة من الأوثان وخلص الحج للمسلمين حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فى السنة العاشرة من حياته العامرة وتوفى بعدها بقليل . وإنما سميت حجة الوداع لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وعظ الناس ولخص لهم دينهم وجمع لهم مبادىء الخير وحذرهم من جوامع الشر وقال لهم لعلى لا القاكم بعد عامى هذا ، وكانت خطبته فى حجة الوداع من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم . وكانت فى جمع حاشد يقرب من مائة ألف نفس .

والمراد بيوم النحر يوم العيد الأكبر وسمى بذلك لأن من السنة المؤكدة ذبح اضحية فى ذلك اليوم وغالب أضاحيهم كانت من الإبل فالنحر كان أكثر من الذبح .

وإنما نهى الله عن حج المشرك لأن المشرك نجس كما يقول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا الآية من سورة التوبة .

قال المفسرون فى تفسير هذه الآية أخبر عنهم بالمصدر وهو قوله نجس للمبالغة كأنهم عين النجاسة أو المراد ذوو نجس لخبث بواطنهم وفساد عقائدهم أو لأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم . ويجوز أن يكون نجس صفة مشبهه أى جنس نجس . وليس المراد نجاسة عقائدهم ولذلك رأى جمهور الفقهاء أن أعيان المشركين طاهرة ولافرق بين عبدة الأصنام وغيرهم من أصناف الكفار فى ذلك . وقد رأى ابن عباس رضى الله عنهما أن عين الكافر نجسه كالكلب والخنزير

واستدل على ذلك بحديث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صافح مشركا فليتوضأ أو ليغسل كفيه . وروى هشام بن عروة عن أبيه عن جده قال : استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فمد يده ليصافحه فأبى جبريل أن يتناولها فقال : يا جبريل ما منعك أن تصافحنى فقال إنك أخذت بيد يهودى فكرهت أن تمس يدى يداً قد مستها يد كافر فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ فناوله يده فتناولها . وإلى هذا المذهب الذى رآه ابن عباس مال الإمام الرازى وقال هذا الرأى هو الذى يقتضيه ظاهر الآية ولا يعدل عنه إلا بدليل منفصل وعلى هذا المذهب لا يحل الشرب من أوانيهم ولا مؤاكلتهم ولا لبس ثيابهم ولكنى أرى أن هذا المذهب ضعيف وما رووه من الأحاديث ضعيف جداً بل هو إلى الكذب أقرب وإنى أشك فى نسبة هذه الروايات إلى ابن عباس . فقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم خلافه فقد كان يعود اليهودى المريض ويجلس على فراشه ويسلم عليه ويصافحه ويتعامل معه ويرهن درعه عنده . وغير ذلك والإسلام دين سمح يجذب القلوب بسهولة أحكامه ويسر تعاليمه فكيف يتصور هذا من خير العلماء ابن عباس وقد ادعى بعض العلماء أن هذه المعاملات النبوية لليهود والكفار كانت قبل نزول الآية فهى منسوخة بالآية وذلك بعيد والنسخ لا يثبت بالظن فعلى مدعيه الدليل . وقد نهى الله المشرك عن قربان المسجد الحرام مبالغة فى النهى عن دخولهم أو أنه قد نهى المشركون عن دخول الحرم كله فيكون المنع من قرب نفس المسجد على ظاهره .

ويرى أبو حنيفة أن القصد من النهى عن دخولهم المسجد المنع من الحج والعمرة . فلا يمنعون من دخول المسجد الحرام لغير حج أو عمرة وكذلك سائر المساجد عنده . ومذهب الشافعى ومالك وأحمد أنه لا يجوز للكافر ذمياً كان أو مستأمناً أن يدخل المسجد الحرام بحال من الأحوال فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام فى المسجد الحرام لم يأذن له فى دخوله بل

يخرج إليه بنفسه أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج المسجد ويجوز دخوله سائر المساجد عند الشافعي رحمه الله . ومذهب مالك كل المساجد سواء في منع المشرك والكافر من دخولها .

وأنا أرى أن المسجد الحرام وحده دون سائر المساجد هو الذي يختص بالمنع كما رأى الشافعي لأن الآية نص فيه. أما مسجد الرسول وسائر المساجد فيصح دخول الكافر فيها وقد ثبت عن أبي هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه في سارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما عندك يا ثمامه فقال عندي خير . يا محمد ان تقتلني تقتل ذادم . وأن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت فترك حتى كان الغد ثم قال له ما عندك يا ثمامه قال ما قلت لك فقال الرسول أطلقوا ثمامه فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى . والله ما كان دين أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلى والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلى ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره النبي صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل صبوت قال لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم رواه البخاري في كتاب المغازي . فمن هذا الحديث نعلم جواز دخول الكافر المسجد حتى ولو كان مسجد الرسول نفسه . ولذلك عقد البخاري باباً فقال باب دخول المشرك المسجد . وأنا أرجح أن المشركين قد منعوا من الحرم كله لا خصوص المسجد لأن الوقوف بعرفه ورمى الجمار بمنى ليس في المسجد ومع ذلك منعوا منه فدل على أن المراد بالمسجد الحرام الحرم كله . فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يمكن أحداً

من الكافرين من دخول الحرم ، ولو دخل خفية ومات أخرج من الحرم ودفن خارجه ، فإن دفن من غير علمنا نبش قبره وأخرج منه ، فإن قيل لم خص الحج بالنهى فى الحديث مع أن الدخول ولو لغير الحج محرم كما علمت قلنا لما كان الحج هو المقصود الأعظم حتى عند الجاهليين المشركين صرح لهم بمنعهم منه وغيره من باب أولى . وقد منع الإسلام أيضاً الطواف إلا بستر العورة ويؤيد ذلك ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال الطواف كالصلاة إلا أنكم تتكلمون فيه فلا تكلموا فيه إلا بخير صححه ابن خذيمة وإلى هذا ذهب جمهور العلماء وخالف الحنفية فقالوا ستر العورة فى الطواف ليس بشرط إلا أنه من طاف عاريا أعاد ما دام فى مكة فإن خرج لزمه دم وهو ذبح نسك . وقد ابتدع العرب العرى فى الطواف قبل حادثة الفيل بقليل فكانوا يزعمون أنه لا يصح أن يعبدوا ربهم وآلهتهم بثياب أذنبوا فيها وكانوا يتشددون فى ذلك سيما للوافدين إلى مكة من غير أهلها فكانوا لا يسمحون لوافد أن يطوف إلا إذا خلع ثيابه ولبس من ثياب قريش فإن لم يجد طاف عارياً . وقد كان العرى شائعاً بين الرجال والنساء حتى إن المرأة كانت تتغنى بذلك وهى تطوف عارية فتقول :

إن كان يبدو بعضه أو كله ‏ ‏ فإنى غـــداً لا أحله

وفاعل يبدو يحمل ضميراً راجعاً إلى ما تكنى عنه المرأة دائماً .

قال ابن شهاب الزهرى وهو الذى دون الحديث فى عهد عمر بن عبد العزيز (فكان حميد بن عبد الرحمن) الراوى عن أبى هريرة يستنبط ويقول (يوم النحر يوم الحج الأكبر من أجل حديث أبى هريرة) قال المفسرون فى قوله تعالى : وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين الآية اختلف علماء المسلمين فى المراد بيوم الحج الأكبر اختلافا كبيراً فقيل هو يوم عرفه لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم القائل : الحج عرفه وهذا رأى الإمام أبى حنيفة .

وقيل المراد بالحج الأكبر هو يوم النحر وظاهر الحديث الذى نشرحه يؤيد ذلك . وقد ثبت أن أبا بكر وعليا وأبا هريرة وسائر المؤذنين آذنوا الناس يوم النحر وهم أدرى بمدلول الآية . وكذلك ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع : أى يوم هذا قالوا يوم النحر قال هذا يوم الحج الأكبر رواه أبو داود عن ابن عمر .

وهذا الرأى أخذ به كثير من الصحابة كعلى وابن عباس وابن عمر . وكذلك جمهور التابعين ومنهم سعيد ابن جبير ومجاهد وابن زيد وغيرهم وعليه مالك والشافعى وقال آخرون إنه جميع أيام الحج كما يقال يوم صفين ويوم بغاث مع أنه أيام كثيرة . وأعدل الأقوال أوسطها وهو أقواها رواية ودرايه .

فإن قيل ما السر فى وصف الحج بالأكبر قلنا احترازاً من العمره فإن بعض الصحابة سماها الحج الأصغر . أو وصف يوم العيد الأضحى بذلك لأن فيه معظم أعمال الحج من طواف الإفاضة ومن السعى بين الصفا والمروه لمن لم يسع قبل ذلك ومن الحلق أو التقصير ومن رمى جمرة العقبة وغير ذلك وقيل وصف بالأكبر لأن المسلمين والمشركين قد اجتمعوا فى ذلك العام فوق عرفه ووافق عيده أعياد أهل الكتاب وهذا الرأى ضعيف لأن الله لا يعظم شعيرة من شعائر الإسلام لحضور مشرك فيها أو لموافقته عيداً من أعياد الكافرين والأولى أن يقال السر فى وصفه بالأكبر أنه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين .

أو لأنه لم يصادف الحج موعده الحقيقى إلا فى هذا الموسم لأن النسىء الذى ابتدعه المشركون وهو تأخير حرمة المحرم إلى صفر ووضعه مكانه غيرّ من وضع الشهور وكانت طائفة من العرب تجعل السنة ثلاثة عشر شهراً فتغير موعد الشهور إلى أن جاءت السنة التى حج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلن أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات

والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد وهو رجب مضر الذى بين جمادى وشعبان أخرجه الشيخان . وإن أراد أحد المزيد فى هذا الشأن فعليه بتفسير الألوسى عند قوله تعالى . إن عدة الشهور عندالله اثناعشر شهراً فى كتاب الله الآيات من سورة التوبة . فمن فضل الله على المسلمين أن أوقع حجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم موقعه الحقيق .

اللغة والإعراب والبلاغة

الصديق . بتشديد الدال كثير الصدق وهو لقب لأبى بكر رضى الله عنه وهو مرفوع لأنه نعت له وقد لقب به لأنه كان يصدق الرسول فى كل ما يكذبه المشركون حتى فى الإسراء والمعراج الذى كان خارقاً للعاده والصدق ضد الكذب . والحج القصد ولا يسمى شرعا إلا إذا كان قصد الزيارة البيت الحرام للنسك والحجة بالفتح المرة الواحدة . وأمره جعله أميراً يعرف الناس مناسكهم ويقضى بينهم . والرهط بسكون الهاء وقد تحرك قوم الرجل وقبيلته قال فى القاموس من ثلاثة إلى عشرة أو ما دون العشرة ليس فيهم امرأة ولا واحد له من لفظه . يؤذنون فى الناس جملة وقعت وصفاً لرهط أى يعلمونهم ومنه سميت الأذن لأنها إحدى طرق العلم وهو اقتباس من قوله تعالى وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر . وآذنه أعلمه وهو يتعدى بنفسه إلا أنه عدى بفى هنا فى الحديث إشارة إلى التمكن والإحاطة كأنه يشير إلى أن المؤذنين انبثوا فى وسط الناس حتى أبلغوهم ما كلفوا بتبليغه . والنحر يقال نحر البعير طعنه حيث يبدو الحلقوم على الصدر ويوم النحر عاشر ذى الحجة ونحر الصدر أعلاه .

والمشرك قال فى القاموس أشرك بالله كفر فهو مشرك ومشركى أما الشرك بالتحريك فهى حبائل الصيد وما ينصب للطير . والأصل فى تسمية الكافر مشركا أن من رفض الإيمان بالله كأنه اعتقد أن هناك إلها غيره والغالب

فى هؤلاء أن يعتقدوا بتعدد الشركاء كعباد الأصنام والنجوم والملائكة ومن قال الله ثالث ثلاثة ومن قال إن هناك إلها للخير وإلها للشر ومن قال الظلمة والنور إلهان وغير ذلك من أنواع الشرك والكفر وفصل جملة لا يحج عن جملة يؤذنون لأنها بيان لها فبينهما كمال الاتصال وهو يوجب الفصل ووصل بين لا يحج ولا يطوف لاتفاقهما فى الخبرية فبينهما التوسط بين الكمالين وهو يوجب الوصل . فإن قلت عريان مصروفه أو ممنوعه من الصرف قلنا إنها مصروفة منونه فإن قلت إنها وصف وفيه الألف والنون الزائدتان وهما علتان تمنعان الصرف قلنا إن الشرط فى منع الوصف مع الزيادة من الصرف أن لا يلحق مؤنثه التاء وهنا يقال للمؤنث عريانة وفى ذلك يقول ابن مالك :

وزائد فعلان فى وصف سلم ... من أن يرى بتاء تأنيث ختم

وقوله لا يحج ولا يطوف وإن كان كل منهما خبراً والفعل فى كل منهما مرفوع إلا أنه متضمن معنى النهى . فإن قيل لم لم يأت من أول الأمر على طريق الإنشاء قلنا كأن الشارع نهى فامتثلت الأمة أمر الشرع فأخبر عن الواقع . وفى رواية أن لا يحج بنصب المضارع ورفعه لأن أن يحتمل أن تكون ناصبة ويحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة . وعلى هذا يجوز فى قوله لا يطوف الرفع والنصب على هذه الرواية الثانية .

سند الحديث

روى مسلم فى صحيحه قال حدثنى هرون بن سعيد الإيلى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال الحديث وهو حديث صحيح

ويجب أن تعلم أن الإمام مسلما إذا قال حدثنى يريد أن التلميذ سمع من شيخه وإذا قال أخبرنى يريد أن التلميذ قرأ على شيخه فأقره وذلك اصطلاح خاص لمسلم وحده .

وهذا الحديث فى الجزء التاسع من شرح الإمام النووى صفحة ١١٥ من كتاب الحج .

أغراض الحديث

أولا : سمو الصحابة وارتفاع نفوسهم عن المناصب .

ثانياً : إخلاص الصحابة فى تنفيذ أوامر الشرع .

ثالثاً : لا يقبل الحج إلا من مسلم ، ولا يجوز قربان المشرك بيت الله الحرام .

رابعاً : لا يصح الطواف مع كشف العورة .

خامساً : تعظيم يوم النحر بكونه زمانا للنسك ومعظم أعمال الحج .

سادساً : وجوب التبليغ على الأمة .

سابعاً : فضل أبى بكر وعلى رضى الله عنهما .

تنبيه : سبق الكلام على أبى هريرة راوى الحديث فارجع إليه إن شئت.

الآيات والأحاديث التى تؤيد الباب

قال الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء الآية من سورة براءة .

وقال تعالى : وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . الآية من سورة البقرة .

وقال تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين وعن السائب بن يزيد قال حج بى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين رواه البخارى .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : الطواف بالبيت صلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام فمن نطق فلا ينطق إلا بخير . أخرجه أصحاب السنن .

الحديث الخامس عشر

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول صلى الله عليه وسلم قال:

أربع إذا كن فيك فلا عليك مافاتك من الدنيا : حفظ أمانة : وصدق حديث ، وحسن خليقة وعفة فى طعمه . أورده المنذرى فى كتابه الترغيب والترهيب وقال رواه الإمام أحمد بسند حسن .

المعنى الإجمالى

يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم المسلم إلى التحلى بهذه الصفات الكريمة وهى محافظته على أمانات الناس وردها إلى أهلها ، وكذلك أداء الفرائض التى ائتمن الله العبد عليها وصدق الحديث وحسن الخلق وأكل الحلال وشرب الحلال . ويجعل الرسول هذه الخصال أعظم غنيمة فى الدنيا لو حصل المسلم عليها لم يضره ما فاته من زخرف الدنيا وأموالها ولذائذها لأن هذه الخصال الأربع تحيط بخيرى الدنيا والآخرة . فاحرص أيها المسلم وتمسك بآداب الإسلام العالية التى تربى الأفراد والشعوب فكم من أمة وصلت إلى السماك الأعزل بانضوائها تحت راية الإسلام وتنفيذها لحدوده وشرائعه .

المعنى التفصيلى

(أربع) أى أربع خصال فالتنوين عوض عن المضاف إليه والوصف المسوغ لكونه مبتدأ محذوف تقديره أربع عظيمات وإذا شرطية غير جازمة وكن فعل الشرط وجملة لا عليك الخ جواب الشرط واقترن بالفاء لأنه جملة أسمية أى إذا وجدت هذه الخصال فيك أيها المسلم فلا خير عليك من أى نقص فى جاه أو مال أو غير ذلك من متاع الدنيا .

الخصلة الأولى : حفظ أمانه وهى تنتظم أمانات الناس وعهود الله وأولها التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى فقد أخذ الله على كل نفس

أن تؤمن به وتقر بوحدانيته قال تعالى : وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . الآب من سورة الأعراف .

وقد أخرج الإمام أحمد وصححه الحاكم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرها بين يديه كالذر ثم كلمهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا . وأخرج مالك فى الموطأ والترمذى وحسنه عن مسلم ابن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن آية (وإذ أخذ ربك) فقال سمعت رسول صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره فاستخرج بيمينه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعلمون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون فقال الرجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة . وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله تعالى النار .

وكذلك ما ركبه الله تعالى فى النفوس من فضيلة العقل وما آتاها من البصائر وما منحه الله لها من الفطرة السليمة التى يشير إليها قوله صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كل ذلك يجعل الاقرار بالله ووحدانيته أمراً مركوزاً فى كل نفس وأمانة لدى كل عاقل .

وقد نهى الله عن الخيانة بأى نوع من أنواعها فقال :(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) الآية من سورة الأنفال وقد صور الله تعالى عظم هذه الأمانة بقوله : إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

الإنسان أنه كان ظلوما جهولا . الآية من سورة الأحزاب . قال المفسرون أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث لوكلفت هاتيك الأجرام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وإدراك لأبين منها وخفن من تحملها . وقال القرطبي روى الترمذى عن ابن عباس قال قال رسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى فى حديثه القدسى يا آدم إنى عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطقها فهل أنت حاملها بما فيها فقال وما فيها يارب قال إن حملتها أجرت وإن ضيعتها عذبت فاحتملها بما فيها فلم يلبث فى الجنة إلا قدر مابين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجه الشيطان منها . قال ابن مسعود المراد بالأمانة أمانات الأموال كالودائع وغيرها وقال غيره هى كل الفرائض وأشدها أمانة المال . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أول ماخلق الله تعالى من الإنسان شهوة فرجه وقال له هذه أمانة استودعتكها فلا تضعها إلا فى حقها فان حفظتها حفظتك فالفرج أمانة والأذن أمانة والعين أمانة واللسان أمانة والبطن أمانة ولا إيمان لمن لا أمانة له ، وقد جعل الرسول الخيانة فى الأمانة من علامات النفاق فقال آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان . متفق عليه زاد فى رواية عن مسلم وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم .

الخصلة الثانية : صدق الحديث . وهو الأخبار عن الواقع المطابق من غير زيادة ولاتحريف وضده الكذب وهو الأخبار عن شىء خلاف ما هو عليه فى الواقع والصدق محمود والكذب مذموم حتى تقول عائشة ما كان خلق أبغض إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله الكذبة فما يزال فى نفسه عليه حتى يعلم أن قد أحدث منها توبة صححه الحاكم . ولم يسمح الرسول صلى الله عليه وسلم بالكذب فى المزاح لأن له أضرارا اجتماعية خطيرة يدل على ذلك ماقالت عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت يا رسول الله أن لى زوجاً ولى ضرة وإنى أتشبع من زوجى أقول أعطانى كذا وكسانى كذا وهو كذب

فقال صلى الله عليه وسلم : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور رواه مسلم ومعنى الحديث أن المتحلى بما لم يعط والمفتخر بما ليس فيه حقيقة كلابس ثوبين من الزور ارتدى بأحدهما واتزر بالآخر وقال النووى هو كالذى يظهر أنه حصل له فضيلة وليست بحاصله كمن يزور على الناس فيلبس لباس ذوى العلم ويتزى بزى أهل الصلاح والزهد وليس هو بتلك الصفه . وقال الرسول لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب من المزاح ويترك المراء وإن كان صادقاً رواه أحمد وله شواهد كثيرة .

واعلم أن العلماء اختلفوا هل يباح الكذب فى بعض الأحوال أولا فقال فريق منهم الإمام الطبرى المفسر لا يجوز الكذب فى شىء أصلا لأن الرسول حض على الصدق وحذر من الكذب وبين أن طريق الصدق إلى الجنة وطريق الكذب إلى النار فقال . عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فان الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً . رواه الترمذى قال الطبرى فكيف يعقل أن يبيح الرسول الكذب وهو يؤدى إلى الفجور وبالتالى يؤدى إلى النار .

وقال الجمهور أن الكذب الذى يقصد منه الخير ولا يعود على إنسان ولا حيوان بالضرر غير محرم وهو ما يسميه الناس الكذب الأبيض واستدلوا بأدله منها .

ما روى عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يقول : يا أيها الذين آمنوا ما يحملكم على أن تتابعوا فى الكذب كما يتتابع الفراش فى النار .

كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا ثلاث خصال : رجل كذب على امرأته ليرضيها ورجل كذب فى خديعة حرب ، ورجل كذب بين امرأين

مسلمين ليصلح بينهما رواه الترمذى وحسنه وعن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيراً أو يقول خيراً ولم أسمعه يرخص فى شىء مما يقول الناس إلا فى ثلاث فى الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها . وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتى بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . اتفق البخارى ومسلم على الفقرة الأولى وروى مسلم وحده الفقرة الثانية .

ومن أدلة الجمهور وقوع هذا الكذب الأبيض من الأنبياء فقد ورد فى حديث الشفاعة أن الناس حينما يحشرون وتشتد عليهم حرارة الشمس ويصيبهم من العرق ما يصيبهم يلجأون إلى الأنبياء يستشفعون بهم إلى ربهم فيعتذر كل نبى حتى إذا أتوا إلى إبراهيم اعتذر قال لست هناكم إنما كنت خليلا من وراء وراء نفسى نفسى إنى كنت كذبت ثلاث كذبات ويريد بالكذبة الأولى قوله : إنى سقيم ولم يكن به سقم وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم . روى القرطبى عن ابن مسعود قال قال أبو إبراهيم إن لنا عيداً لو خرجت معنا لأعجبك ديننا فلما كان يوم العيد خرجوا إليه وخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى بنفسه وقال إنى سقيم أشتكى رجلى فوطئوا رجله وهو صريع فلما مضوا نادى فى آخرهم « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » .

الكذبة الثانية : قوله حينما سئل من كسر الأصنام؟ ومن فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قال فعله كبيرهم هذا . مع أن الله يخبر عنه أنه هو الذى كسرهم بقوله تعالى فجعلهم جذاذاً إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون .

الكذبة الثالثة : أنه لما كان ماراً برجل من الفراعنة خاف على زوجته سارة أن ينالها سوء منه فقال إن سألك فأخبريه أنك أختى وقد سئل عن صلتها به فقال هى أختى .

وكذلك وقع هذا الكذب من منادى العير زمن يوسف عليه السلام والراجح أنه بإيحاء منه وتدبير له فقالوا أيتها العير أنكم لسارقون الآية من سورة يوسف ومن أدلة الجمهور أيضاً قالوا : لا خلاف بين العلماء أنه لو قصد ظالم قتل رجل هو مختف عند رجل آخر لوجب على صاحب البيت أن يكذب على الظالم إذا سأله عن الرجل المختفى أين هو؟ ويقول لا أعلم مكانه وليس عندى .

وقد رد عليهم الطبرى وقال كل ما ذكرتموه من كذب الأنبياء والصالحين مؤول والمقصود به التورية والتعريض وليس من الكذب فى شىء فقول إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام إنى سقيم أى سأسقم سقم الموت وهذا تعريض وتورية كما فى قوله تعالى إنك ميت وإنهم ميتون أى فى المستقبل ومنه المثل السائر كفى بالسلامة داء ومنه قول الشاعر لبيد :

فدعوت ربى بالسلامة جاهداً ليصحنى فإذا السلامة داء

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس فقالوا مات وهو صحيح فقال أعرابى أصحيح من الموت فى عنقه ؟ فإبراهيم النبي على هذا التأويل صادق فى الأولى أو يقال إنه أراد سقيم النفس لكفرهم وقوله فعله كبيرهم مقيد بالشرط وهو قوله إن كانوا ينطقون أى إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم وإن لم يستطيعوا النطق فهم أعجز عن الفعل وتكسير الأصنام . أو أنه وقف على قوله بل فعله . ثم قال كبيرهم هذا جملة من مبتدأ مؤخر وخبر مقدم .

وقوله فى سارة زوجته إنها أختى يريد أخوة الدين . وكذلك أجاب الطبرى ومن وافقه عن قوله منادى العير إنكم لسارقون مع أن إخوة يوسف لم يسرقوا أجاب فقال إنهم وإن لم يسرقوا فى هذه المرة فقد سرقوا يوسف من أبيه سابقاً ووضعوه فى الجب فاستحقوا هذا الاسم وصح إطلاقه عليهم. واستعمال المعاريض جائز لأن فيها مندوحة عن الكذب الصريح مثل أن يعد زوجته أن يكسوها أو يحسن إليها بكذا وينوى إن قدر الله ذلك

وحاصل كلامهم أن يأتى الإنسان بكلمات محتملة يفهم المخاطب منها ما يطيب قلبه وإذا سعى فى الإصلاح نقل من هؤلاء إلى هؤلاء كلاما جميلا وعن الآخرين إلى الأولين كذلك ويورى وكذا فى الحرب بأن يقول لعدوه مات قائدكم الأعظم ويريد الإمام السابق فى الأزمان الماضية ويقول لأعدائه غداً يأتينا مدد ويريد طعاما ونحو هذا من المعاريض المباحة وقد عقد البخارى باباً فقال فى ترجمة المعاريض مندوحة عن الكذب وذكر حادثة رواها أنس قال : اشتكى ابن لأبى طلحة فمات وهو خارج عند النبى صلى الله عليه وسلم فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً ونحته فى جانب البيت فلما جاء أبو طلحة قال كيف الغلام قالت قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح وظن أبو طلحة أنها صادقة قال فبات . وفى رواية ثم تعرضت له فأصاب منها فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات فصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم أخبره بما كان منهما فقال رسول الله لعل الله أن يبارك لكما فى ليلتكما . قال رجل من الأنصار فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن . والشاهد فى الحديث قول أم سليم هدأت نفسه وهى تريد أنه مات وهو يظن أنه قد برأ من علته فهذا من باب المعاريض .

وقال عمر بن الخطاب أما فى المعاريض ما يكفى المسلم عن الكذب . وأنا أرجح رأى الجمهور لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لم يكذب إبرهيم غير ثلاث كذبات غير أنه دافع عن أخيه فى النبوة فقال كل كذبة منها ماحل بها أى جادل بها عن دين الله .

والأحاديث التى ساقها الجمهور توضح بصراحة أن هناك رخصة فى بعض الأحيان يكون الكذب فيها غير محرم لأنه لا ضرر فيه فالوقوف عند النصوص أولى . أما إذا كان الكذب مضراً لا مصلحة فيه فهو من كبائر الذنوب سيما إذا أدى إلى ضياع حق أو انتشار فتنة .

وقد روى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقى الله وهو عليه

غضبان . وروى مسلم أن الرسول قال من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال له رجل وإن كان شيئاً يسيرا يارسول الله قال وإن كان قضيبا من أراك . وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم وأدوا إذا ائتمنتم واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم رواه الإمام أحمد ورجاله ثقات .

واعلم أن أشد الكذب الممقوت الكذب على الله ورسوله فالله يقول ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين الآية من الزمر .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم إن كذبا على ليس ككذب على أحد ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . وقد كان عمر وأبو بكر رضى الله عنهما أقل الناس رواية عن رسول الله مع سبق إسلامهما وقربهما . يدل على ذلك ما ذكره شارح أحمد ومرتبه صاحب الفتح الربانى الشيخ الساعاتى قال إن أبا الغصن قدم المدينة فلقى أسلم مولى عمر بن الخطاب فقال حدثنى عن عمر فقال لا أستطيع أخاف أن أزيد أو أنقص ثم قال كنا إذا قلنا لعمر حدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أخاف أن أزيد حرفا أو أنقص إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من كذب على فهو فى النار . وتكرر هذا الحديث من رواية كثير من الصحابة حتى أصبح هذا الحديث مثالا للتواتر اللفظى وقد أشار الرسول فى بعض أحاديثه إلى أن المسلم قد يكون بخيلا وقد يكون جبانا ولكنه لا يكون كذابا فلا يجتمع الإيمان والكذب فى المسلم . ولذلك روى المنذرى فى كتابه الترغيب والترهيب قال عن أبى أمامة قال : قال صلى الله عليه وسلم : يطبع المؤمن على كل خلة إلا الخيانة والكذب . قال المنذرى رواته رواة الصحيح . وقال الحافظ سنده قوى فتمسك بالصدق أيها المسلم وتحل به مادمت قد عرفت فضله كما عرفت إثم الكذب ورذيلته ومقت الله ورسوله له .

الخصلة الثالثة . حسن الخلق. وهو أمر جامع بين سعادة الدنيا والآخرة ينتظم فى طياته حسن المعاملة للخالق وحسن المعاملة للمخلوق وذلك يشمل العمل بكل أوامر الله والاجتناب عن كل ما نهى وذلك يظهر واضحا حينما نعلم أن شخصا أراد أن يعرف أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخص أهل بيته فسأل عائشة ما خلق رسول الله ؟ فقالت كان خلقه القرآن.

وتدرك عظمة ما يريد الله بقوله وإنك لعلى خلق عظيم الآية من سورة القلم . وإن أردت فروعا من حسن الخلق فهاك نماذج . فالحلم والرفق منه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناه رواه مسلم ويقول : إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله وإن الله يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف ، وإن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله . رواه مسلم .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله لنفسه فى شىء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله رواه الشيخان .

وكذلك طيب الكلام وطلاقة الوجه من حسن الخلق فالله يقول : ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم اتقوا النار ولو بشق تمره فمن لم يجد فبكلمة طيبة . متفق عليه .

ويقول صلى الله عليه وسلم لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق رواه مسلم .

وإكرام الضيف من حسن الخلق فالرسول يقول من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته قالوا وما جائزته يا رسول الله قال : يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقه عليه متفق عليه

وهذا بحر لجى لا ساحل له يشمل سياسة العبد مع الناس كما يشمل سياسته مع مولاه ولذا لا عجب أن سمعنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم ما من شيء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يبغض الفاحش البذيء رواه الترمذى وصححه .

ولما سئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال تقوى الله وحسن الخلق . ولما سئل عن أكثر ما يدخل الناس النار قال الفم والفرج رواه الترمذى . وقال حديث حسن صحيح . وقال أيضاً إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم رواه أبو داود . فإن قلت قد سئل عبد الله ابن المبارك عن حسن الخلق ما هو فقال هو طلاقة الوجه وبذل المعروف وكف الأذى . قلت ليس معنى هذا وأمثاله قصر حسن الخلق على ما ذكر وإنما هو بيان لأهمية هذه الخصال اما بالنسبة للعصر الذى قيلت فيه واما بالنسبة للشخص الذى ألقيت إليه النصيحة كما كان يحدث فى عصر النبوة أن يأتى سائل فيقول يا رسول الله ما أفضل الأعمال فتارة يقول له الصلاة لوقتها وتارة يقول له من سلم المسلمون من لسانه ويده وتارة يقول تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف فكان الرسول كالطبيب يعطى لكل مسلم ما ينفعه فى دينه ودنياه .

الخصلة الرابعة : عفة فى طعمة أى تحرى الحلال فيما يطعم من مأكل ومشرب ويتعفف عما سواه من المحرم والذى فيه شبهه من حرام . ولو أمكن للإنسان أن يحفظ بطنه فلا يدخلها إلا الحلال الواضح لزكى نفسه وطهرها وأورثها الحكمة لأن الدم سيجرى فى عروقه زكيا طاهراً حلالا . وقد أورد الإمام الغزالى فى ذلك حديثاً عن أبى أيوب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه . قال المحدثون إن التقييد بأربعين يوما لا يفهم سره والواجب اتباع الحلال دائما لأن من أوتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً فكيف

يكون هذا الخير الكثير نتيجة لتحرى الحلال فى هذه المدة الوجيزة فقط ، أقول إن الحديث ضعيف من أصله حتى قال عنه الإمام العراقى إنه حديث منكر وإن أخرجه أبو نعيم فى الحلية .

كذلك من آثار المطعم الحلال استجابة الله للدعاء من صاحبه فقد ثبت أن سعد بن أبى وقاص سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اسأل الله تعالى أن يجعلنى مجاب الدعوة فقال أطب طعمتك تستجب دعوتك ومهما دعا المتقلب فى الحرام المتغذى به لا يقبل الله منه فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم الآية من سورة (المؤمنون) ثم ذكر الرسول الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذى بالحرام يرفع يديه يقول يارب يارب فأنى يستجاب له ؟ وأشد ماروى فى هذا الباب قول الرسول كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به . رواه الترمذى وحسنه من حديث كعب .

واعلم أن الله لا يقبل صدقة من حرام فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحما أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله جمع الله ذلك جميعاً ثم قذفه فى النار ذكره الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين وقال الإمام العراقى فى تخريجه رواه أبو داود فى المراسيل وروى أحمد فى مسنده من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اكتسب مالا من حرام فإن تصدق به لم يقبل منه وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار .

فتحرى الحلال باب عظيم من أبواب الإسلام بل جعله أبو هريرة أساس الإسلام فقال : مثل الطعمة من الدين مثل الأساس من البنيان فإذا

ثبت الأساس وقوى استقام البنيان وارتفع . وإذا ضعف الأساس واعوج انهار البنيان ووقع .

واعلم أن أكل الحرام يحدث ظلمة فى النفس وقسوة فى القلب وهو من الرين الذى يقول الله فى شأنه كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون الآية من سورة المطففين .

وقد قيل فى الحكمة: من أكل الشبهة أربعين يوما أظلم قلبه . فإذا كان هذا أمر الشبهة فما بالك بالحرام الصرف . والواجب على المسلم أيضاً البعد عن الشبهات فالرسول يقول دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . ويقول الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه الا وإن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه . وقد أرق الرسول صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فأحست بذلك بعض نسائه فقالت ما سبب أرقك قال وجدت تمرة فأكلتها فخشيت أن تكون من الصدقه رواه أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بإسناد حسن .

وقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يتركون تسعة وتسعين باباً من الحلال مخافة أن يقعوا فى باب واحد من الحرام . وقد شرب أبو بكر لبنا لشدة عطشه وكان هذا اللبن من كسب عبده فلما علم أنه اكتسبه من حرام أدخل أصابعه فى فيه ومازال يقيء حتى ظن العبد أن نفسه ستخرج ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس .

ولعلك أيها القارىء الكريم قد استبان لك شمول هذه الصفات الأربع واتساع محيطها ففهمت قول الرسول ﷺ فلا عليك ما فاتك من الدنيا .

اللغة والإعراب

(الدنيا) نقيض الآخرة من دنا دنوا أى قرب . والدنى كغنى الساقط الضعيف ودنيا بضم الدال وحكى ابن قتيبة كسرها ووزنها فعلى وهى تأنيث الأدنى وقعت الواو لاما لفعلى وصفا فقلبت ياء ولفظها مقصور غير منون ممنوع من الصرف لألف التأنيث المقصورة . قال فى القاموس وقد تنون جمعها دنى قال شارحه لا تنون إلا إذ انكرت وزالت أل منها . سميت بذلك إما لسبقها الأخرى وإما لدنوها وقربها من الفناء والزوال وحقيقتها كل ما سوى الله قبل قيام الساعة من المخلوقات .

(أمانه) الأمانة ضد الخيانه وأمن كسمع وأمن ككرم فهو أمين ثقة وآمن به صدقه فى القاموس إنا عرضنا الأمانة أى الفرائض المفروضة أو النية التى يعتقدها فيما يظهره باللسان من الإيمان لأن الله تعالى ائتمنه عليها ولم يظهرها لأحد من خلقه فمن أضمر من التوحيد مثل ما أظهر فقد أدى الأمانة.

(وحسن خليقه) أى حسن خلق والخلق الدين والطبع والسجية قال ابن الأثير فى النهاية : وحقيقة الخلق أنه لصورة الإنسان الباطنة وهى نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق بسكون اللام لصورته الظاهره وأوصافها ولهما أوصاف حسنة وقبيحة والثواب والعقاب مما يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة . ولهذا تكررت الأحاديث فى مدح حسن الخلق فى غير موضع اه والخلاق بفتح اللام النصيب ومنه قوله تعالى ماله فى الآخرة من خلاق . والاختلاق الكذب .

(وعفة فى طعمه) الطعمة المأكلة ووجه الكسب والطعم الطعام . وقول الرسول فى حديث أبى ذر ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم يريد أنه يشبع ويشفى من شربه . ويقال طعم الشىء إذا ذاقه مأكولا كان أو مشروبا

قال الشيخ الآلوسى فى تفسير قوله تعالى ومن لم يطعمه فإنه منى أى لم يذقه واستعمال طعم الماء بمعنى ذاقه مستفيض لا يعاب استعماله لدى العرب العرباء ويشهد له قول الشاعر :

وإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

والنقاخ الماء العذب .

الآيات والأحاديث التى تؤيد الباب

قال الله تعالى : خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين الآية من سورة الأعراف .

وقال تعالى : إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل الآية من سورة النساء .

وعن عبد الرحمن بن سعد قال استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبيه على الصدقه فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدى إلى فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله فيأتى فيقول هذا لكم وهذا هدية أهديت إلى أفلا جلس فى بيت أبيه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة فلا أعرفن أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رؤى بياض أبطيه فقال اللهم هل بلغت . متفق عليه .

وقال الله تعالى يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين الآية من سورة البقرة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع رواه مسلم . وقال صلى الله عليه وسلم أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وصلى الله على خاتم النبيين محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

خاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين وبعد فقد صادف الانتهاء من رسالتنا (من هدى النبوة) غرة شهر رمضان المبارك لعام ١٣٨٤ هـ الموافق سنة ١٩٦٥ وهذا يجعلنا نستبشر ونعتقد أن الله سينفع بهذه الرسالة بقدر ما يعلمه من إخلاصنا فى تأليفها وأسأل الله أن يتقبل عملنا ويزكى جهودنا والله الموفق ؟

المؤلف

الشرباصى الحسينى

الأستاذية فى علوم القرآن الكريم

ميت أبو غالب دقهلية

فهرس لتراجم الصحابة رواة الأحاديث

صفحة	اسم الصحابى	صفحة	اسم الصحابى
١٣	أنس بن مالك رضى الله عنه	١٠٥	معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما
٢٤	عبد الله بن مسعود «	١٠٥	عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما
٣٦	عبد الرحمن بن سمره «	١٤٩	عبد الله بن عمرو بن العاص «
٤٧، ١٠٣	أبو هريرة «	١٧٢	عبد الله بن عباس «
٦١	المغيرة بن شعبة «	١٨٨	أبو سعيد الخدرى «
٧٤	أبو ذر «		
٨٧	عمران بن حصين «		

أهم المراجع التى اعتمدت عليها

اسم المـــرجع	اسم المؤلف
فتح البارى شرح البخارى	لابن حجر
كتب التفسير وأشهرها روح المعانى	للألوسى
رياض الصالحين	للنووى
الوحى المحمدى	لرشيد رضا
أبو هريرة	الخطيب
الوجيز فى شرح الحديث	الشيخ أحمدين
النهاية فى غريب الحديث	لابن الأثير
إحياء علوم الدين	للغزالى
زاد المعاد	لابن القيم
الحديث والمحدثون	للأستاذ أبى زهو
المواهب اللدنية	للقسطلانى
الفتح الربانى ترتيب مسند أحمد	للشيخ البنا الساعاتى

فهرس عام لمواضع الكتاب (من هدى النبوة)

الطبعة الثانية سنة ١٣٨٤ هـ سنة ١٩٦٥ م

صفحة	الموضـــوع
٣	مقدمة تبين الدافع لهذا التأليف :
٤	الحديث الأول ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان .
٤	تربية الحديث فضيلة صفة العرفان بالجميل فى المؤمن .
٥	أساس محبة الله تعالى .
٦	أساس محبة الرسول الأعظم .
٧	شواهد من آثار الصحابة على وجود هذه المحبة وسموها .
٨	آثار المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .
١١	إشكال وارد على قوله مما سواهما والرد عليه .
١٤	الآيات والأحاديث التى تؤيد الباب .
١٦	الحديث الثانى لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .
١٦	كيف نجيب عن نصوص أثبتت الخلود للعاصى .
١٨	الإسلام يحارب التفرقة العنصرية .
١٨	أسباب الكبر وأنواعه وعاقبة كل نوع .
١٩	حكمة بليغه من على بن أبى طالب لعلاج الكبر .
٢٠	بحث فى إطلاق اسم جميل على الله ومعناه .
٢٢	حكم لبس الدبلة الذهب فى الخطبه . بكسر الخاء
٢٥	الآيات والأحاديث التى تؤيد الباب .
٢٦	الحديث الثالث لا تسأل الإمارة .
٢٧	كراهية الصحابة للمناصب والمظاهر .

صفحة	الموضــــوع
٢٩	توجيه النصح إلى أعضاء مجلس الأمة .
٣١	حكم الحلف بغير الله والجواب عن القسم الذى ورد فى الشرع بمخلوق .
٣٢	حكم كفارة اليمين قبل الحنث .
٣٥	الشبه الواردة والجواب عنها .
٣٧	الآيات والأحاديث التى تؤيد الباب .
٣٨	تحريم اتخاذ الحجاب الذين يمنعون الناس من رفع ظلاماتهم .
٣٩	الحديث الرابع بادروا بالأعمال سبعا .
٤٢	متى يكون المال ممدوحا ومتى يكون مذموما .
٤٣	هل موت الفجأة مذموم أو ممدوح ؟
٤٤	ما قيل فى شأن الدجال .
٥٠	الحديث الخامس : إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات .
٥٢	بر الوالدين فى حياتهما وبعد وفاتهما .
٥٣	وأد البنات وكيف شاع .
٥٤	حكم إجهاض الحامل وإسقاط الجنين .
٥٤	حكم العزل وتحديد النسل .
٥٦	السؤال الجائز والسؤال المحرم .
٥٨	حكم الإنفاق للمال .
٦١	الآيات والأحاديث التى تؤيد الباب .
٦٣	الحديث السادس عن أبى ذر كنت أمشى مع النبى .
٦٤	حكم الرقص التوقيعى والرياضات الأخرى .
٦٥	معجزة للرسول وعلامة من علامات نبوته .
٦٧	تشديد الرسول فى سداد الدين وامتناعه عن صلاة الجنازة على المدين .
٦٨	الإسلام لا يمنع من جمع المال بشرطين .



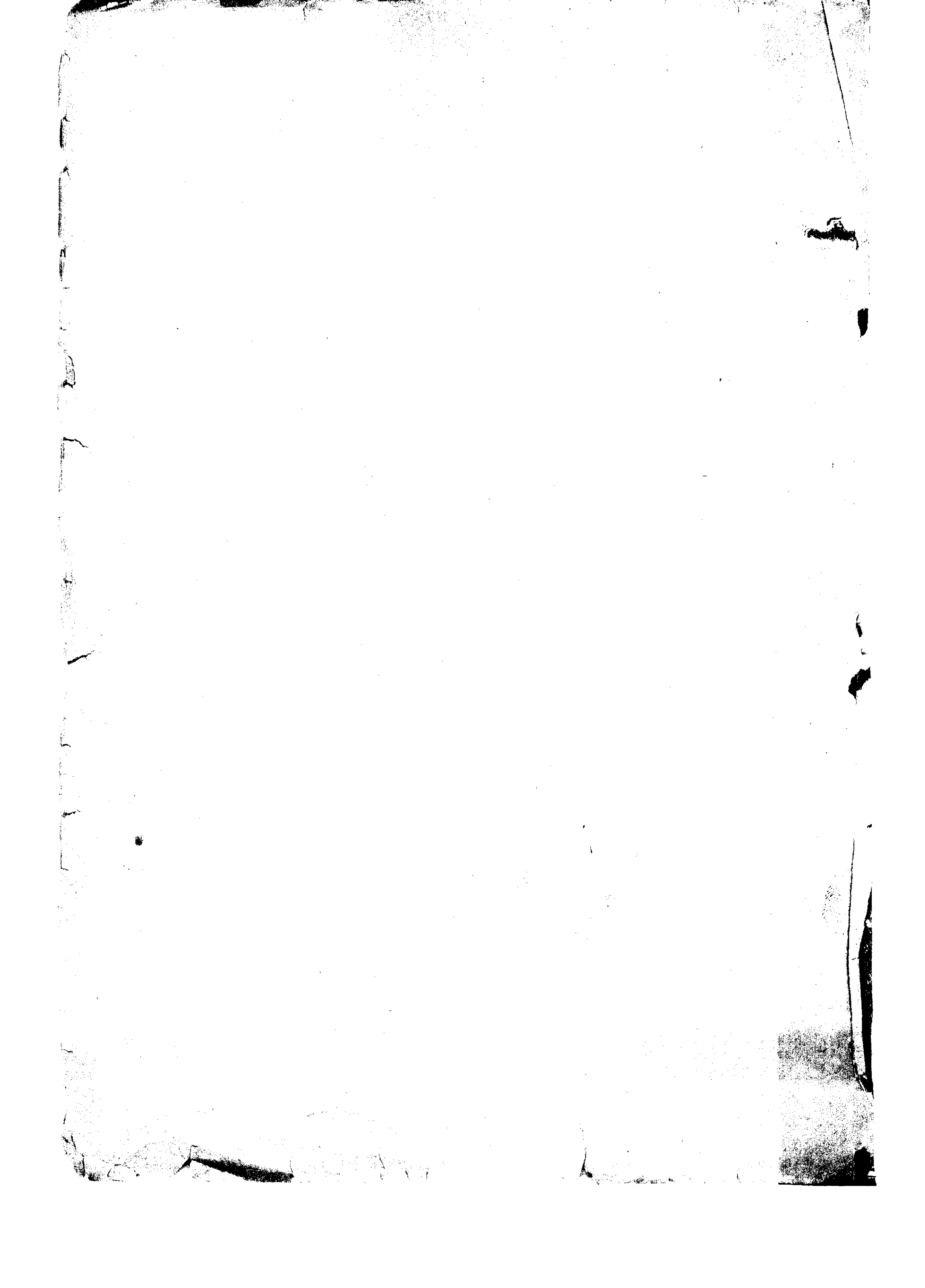
صفحة الموضـــوع

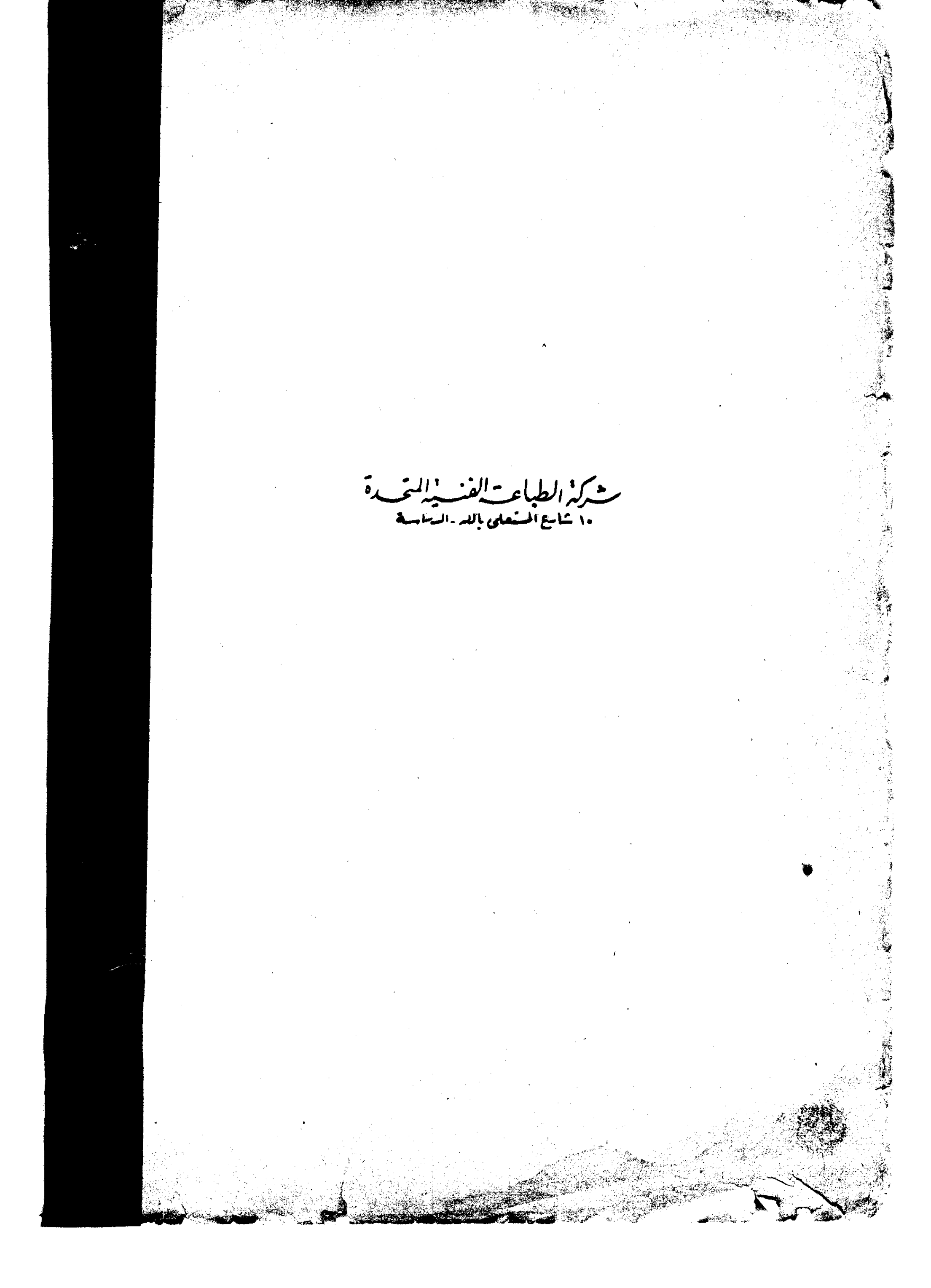
٧٠ الزهد المزيف والزهد الحقيق .
٧٦ الحديث السابع خيركم قرنى
٧٨ أدلة تفضيل الصحابة كمجموع .
٧٩ ضابط الصحبة وأوصافهم .
٨٠ أدلة تفضيل كل فرد من الصحابة على سائر من أتى بعدهم .
٨١ حكم شهادة الزور .
٨٣ التوفيق بين النصوص التى تمدح النذر والتى تذمه .
٨٤ حكم النذر للأضرحه وأصحاب القبور وإضاءتها بالشموع .
٨٩ فضل أويس القرنى خير التابعين
٩٠ الحديث الثامن لا عدوى ولا طيره إلخ .
٩١ التوفيق بين نفى العدوى والأمر بالفرار من المجذوم .
٩٤ التطير فى الجاهلية وعلاجه فى الإسلام .
٩٥ حب الرسول للفأل الحسن .
٩٦ معنى ولا صفر .
٩٧ الحكمة فى تخصيص مرض الجذام بالذكر .
٩٨ لا أثر للنجم فى حياة الناس .
١٠٣ تدوين الحديث فى عصر الخلفاء الراشدين .
١٠٥ الحديث التاسع من سره أن يمثل له الرجال قياما .
١٠٦ حكم القيام للتحيه .
١١٢ الحديث العاشر إن مثلى ومثل الأنبياء قبلى .
١١٣ تشبيه الشرائع ببيت أسست قواعده .
١١٤ الإسلام يصلح لكل زمان ومكان .

ص الموضـــوع

١١٥ موضع اللبنة .
١١٧ الشبه التي وردت على كون محمد خاتم النبيين .
١١٨ أدلة موت الخضر وحياته وترجيح موته .
١٢٥ الحكم البالغة فى جعل محمد خاتم النبيين :
١٢٧ سهولة الإسلام وسماحته
١٢٩ الحديث الحادى عشر وصف النبي فى التوراة .
١٣١ عدد الأنبياء والمرسلين .
١٣٢ رأى أهل السنة والفلاسفة فى النبوات .
١٣٢ الفرق بين خطاب الله لمحمد وخطابه لأنبيائه .
١٣٣ هل يعلم الرسول أحوال أمته بعد وفاته ؟ .
١٣٥ معنى كون الرسول شاهداً .
١٣٧ معنى كونه حرزاً للأميين :
١٣٨ لم سمى العرب أميين ؟
١٤٠ وصف العبودية وصف تشريف .
١٤٤ أسماء الرسول المشهورة .
١٤٥ آداب الأسواق والمعاملة .
١٤٦ كيف يوفق بين حلم الرسول وبين قوله تعالى وأغلظ عليهم .
١٤٧ هل يجوز أن يقال مات الرسول ؟ .
١٥٠ اللغة والإعراب .
١٥٢ الفرق بين العفو والصفح .
١٥٤ الحديث الثانى عشر من تحلم بحلم لم يره الخ .
١٥٥ لم كان عذاب الكذب فى المنام أشد منه فى اليقظة ؟ :
١٥٦ تعبير الرؤيا وآدابها .
[illegible] حقيقة الرؤيا عند الشرعيين وعند الفلاسفة .
١٥٩ حرمة التجسس .

صفحة	الموضـــوع
١٦٠	حكم التصوير والحكمة فى تحريمه :
١٦٣	لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة والسر فى ذلك .
١٦٥	كيف جاز لنبى الله سليمان أن يتخذ التماثيل .
١٧٣	الحديث الثالث عشر فى بعث على عند تقسيم الفىء .
١٧٦	حكم تأليف المؤلفة قلوبهم بعد عز الإسلام .
١٧٧	كيف جاز للصحابى النميمة .
١٧٨	خلاف العلماء فى المتشابه .
١٨٣	حكم حلق اللحية .
١٨٥	ظهور الخوارج من علامات النبوة .
١٩٠	غزوة النبى يوشع .
١٩٢	الحديث الرابع عشر فى حجة أبى بكر .
١٩٤	ابطال زعم الشيعة فى أفضلية على على أبى بكر .
١٩٦	السر فى أن الرسول حج مرة واحدة .
١٩٨	هل نجاسة المشركين معنوية أو حسية ؟ .
١٩٩	حادثة ثمامة الحنفى .
٢٠٠	حكم دخول الكافر المسجد .
٢٠١	لم سمى يوم النحر بالحج الأكبر . ؟
٢٠٣	الفرق بين حدثنى وأخبرنى عند مسلم .
٢٠٥	الحديث الخامس عشر أربع إذا كن فيك إلخ .
٢٠٨	هل يباح الكذب فى بعض المواضع ؟ .
٢١٤	وجوب تحرى الحلال
٢١٩	فهرس لتراجم الرواه
٢٢٠	اهم المراجع
٢٢١	فهرس عام لمواضع كتاب (من هدى النبوة)





شركة الطباعة الفنية المتحدة
١٠ شارع المستعلى بالله - الساسة